التعويذة الأخيرة

التعويذة الأخيرة

تسردونت نيسمضال

ⵜⵙⵔⴷⵓⵏⵜ ⵏⵉⵙⵎⴹⴰⵍ

لميس أشرف

الطبعة الأولى، القاهرة 2019م

غلاف : أحمد فرج

تدقيق لغوي : خالد رجب عواد

رقم الإيداع : 2514 /**2019**

I.S.B.N: 978-977-488-633-1

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذن خطي من الدار

دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة، مصر

هاتف : 01111947957

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

التعويذة الأخيرة

تسردونت نيسمضال

ⵜⵙⵔⴷⵓⵏⵜ ⵏⵢⵙⵎⴹⴰⵍ

رواية

لميس أشرف

دار اكتب للنشر والتوزيع

مبنية على أحداث حقيقية

"ويُراقُ الدم على الرِمال

ويصير الفتي ظِلال

والهرُّ السأكن في الأطلال

يُفتح برُفاته الأقفال

والروحُ تأتي قُربانًا

و يُغلّ الجسد بالأغلال

ت س ر د و ن ت ن ي س م ا ض ا ل "

قيل دومًا إن الصفحة الأولى هي الأصعب، ربما لأن ليس لديك أي شيء كي تسرده، ربما ما لديك لا يستحق السرد، وربما لأن لديك الكثير الذي تود أن تكتبه، ولكن من زحام أفكارك لا يستوعب عقلك كيفية تنظيم تلك الأفكار، وربما تريد أن تنسى.. أن تنسى كل شيء.. صدقني هناك أشياء ما وذكريات ما، ومشاهد ما تستحق وبجدارة أن تُمحى من الذاكرة..تُمحى تمامًا كي لا يبقى لها أي أثر.. إنها تلك الذكريات التي ليست فقط تؤرقك ليلًا فيجافي عيناك النوم فحسب، كلا، إنها تلك الذكريات التي تطاردك نهارًا قبل الليل فلا فارق بينهما لديك، كلاهما مرعب..مخيف.. مفزع..ذلك النوع من الخوف الذي يجعل إغلاق عينيك مغامرة جريئة، ويجعل قلبك ينسى كيف كان طعم الخفقان الهادئ ودقات تلك العضلة القلبية بطمأنينة، الخوف الذي يجعلك ترحب باحتباس بولي على أن تغادر فراشك في الطريق إلى دورة المياه ليلًا، طريق قد لا تعود منه، ولا تدري من الذي خلفك ومن الذي يرافقك ومن الذي ستراه في حمامك والأفظع.. من الذي ستراه في فراشك إذا عدت سالمًا من تلك الرحلة القصيرة وأتيحت لك الفرصة كي تلبي نداء الطبيعة بسلام.

كلا، لا تأخذ عني فكرة خاطئة، فأنا لم أكن ممن يخافون بسهولة، لم أكن ممن يخافون أصلًا، لم أكن يومًا ممن يغلقون الأبواب بعشرة أقفال كي لا يتهجم على اللصوص ليلًا، ولم أكن ممن يغطون أرجلهم عند النوم خائفين من أن يأكلهم "العوو" إذا خرجت أرجلهم خارج تلك الشرنقة التي يبيتون فيها، لم أخف يومًا أن أخرج أتمشى في الصالة ليلًا أو أذهب كي أشرب والتخيل أن أرى الشيطان جالسًا يأكل لقمة على طاولة مطبخي!

صدقني أنا لا أعرف، لا أعرف نفسي الجديدة التي أصبحت أخافها هي ذاتها، لا أعرف شيئًا، لكن هناك ما حاولت ان أعرفه ليتني ما فعلت، كلا كان لا بد أن أفعل وأن أعرف، فما كنت أبحث عنه كان أغلي من أن أخاف أو أفكر أو أحسب ما الذي سيحدث بعدها، فهناك مواقف يجلس فيها المنطق على جانب، فلا مجال فيها سوى أن تُلقي نفسك في اليم،إما أن تسبح للشاطئ وتكون حيًّا أو أن تغرق فلا يتبقى من ذكراك سوى كلمتين..الله يرحمه..

إذا وجدت مذكراتي هذه بين يديك فاعلم أنها وصلت لك لسبب.

سليم

القاهرة، 2015

***

البداية

الحُلم

(1)

2013م

على شرفة المنزل أو كما نُطلق عليه البيت القديم، في مكان ريفي يغلف السماء ظلام حالك، لا أرى أي أثر للقمر، ولكن كان هناك انبعاث لضوء خافت، ضوء لا يُرى مباشرة لكنه ينير على استحياء وكأني أرى المشهد من بعيد، كأنه فيلم أشاهده، هذا أنا الواقف هناك، طفل صغير، على وجهه علامة من لم يذق للنوم طعمًا، أراني الآن، أرتدي ملابس صيفية قصيرة وأمي تكاد تحتضنني وتحوطني بذراعها اليسرى، وفي حضن ذراعها الأخرى أخي الأكبر مني، أخي كارم، وفي عينيه نظرة دومًا لا أُفسرها، هل هي نظرة رعب، فزع، أم يُفكر في شيء ما لا أدري ما هو؟ ثلاثتنا واقفون هناك على شرفة المنزل ذي الطابقين، منزل عادي لا شيء يميزه سوى أنه كان بعيدًا عن كل البيوت المجاورة، كأن أبي وأمي أردا لنا عُزلة أو كانا يبحثون عن الهدوء لا أدري، لا أدري لماذا اختارا البُعد عن العمَار؟ المشهد وحدّه يصلح أن يكون في فيلم رعب، أمي التي في وسطنا تقف رافعة رأسها إلى أعلى، ترتدي جلبابًا أنيقًا لكنه متسخ بعض الشيء، كان عليه طين، أنا أرانا، أرانا نحن الثلاثة، وظللت أرانا جامدين، واقفين، صامتين، انقبض قلبي من هذا المشهد اللعين، إن عيني

مغرورقتان بالدموع، لماذا لا يوجد أحد من سأكني هذا المنزل يدخل إلى غرفتي كي أفيق من هذا الكابوس المخيف؟ أنا أريد أن أصحو ولا أعرف للصحو سبيلًا؟ ألا يوجد أحد فيهم لديه ضمير يطمئن على؟ أنا لا أريد المزيد اكتفيت من النوم، أريد أن أصحو، أيقظوني أرجوكم.. يا رب.. ما زلت أرى نفس المشهد، كأنها صورة وثبتت على مبدئها، نحن والخوف والظلام والكآبة تُحيطنا.. أيقظوني.. كلما أدرت وجهي أرى نفس المشهد؟ ما هذا الحلم الكرتوني؟ ينتقل المنزل فيه بساكنيه إلى أي اتجاه وكل اتجاه، أنا الآن أقترب منهم أو بمعنى أصح، منا، لا– لا أريد أن...

أخيرا وبمعجزة إلهية استيقظت على صوت قطتي، أوفت بحق تربيتي لها ربنا يكرمها،نظرت لها فإذا بها تبادلني النظر بمعنى هل ستصحو وتُطعمني أم أتركك المرة القادمة للكابوس؟ نهضت على مهل وهي تنتظر بجوار سريري هادئة، ما دمتُ أنا أصحو ولا أعود أدراجي إلى السرير مرة أخرى فهي تنتظرني بصبر، ذهبت إلى المطبخ وضعت لها الطعام، وانحنيت أضعه لها على الأرض مبتسمًا، تفضلي يا لوجي يا حبيبتي، كانت القطة هدية من حبيبتي الأولى، لوجي، وكانت شبيهة بصاحبتها، جميلة، ذات فِراء زاهٍ، تنقذني أحيانًا، لكنها مزاجية للغاية من الممكن أن تنساني أيامًا ثم تعود لتتسلي على قليلًا، كانتا شبيهتين فعلًا!

ذهبتُ إلى غرفة نومي وخلعت ملابسي التي كانت تقطر مياهًا بسبب العرق من الكابوس اللعين، ترددت كثيرًا قبل أن ألقي نفسي في حوض الاستحمام، الكسل كان يسيطر على، ولكني لا أحب ملمس الجلد بعد أن يجف العرق، أكره ملمس هذا المزيج اللزج، ليست طباعًا أنثوية ولكنها خطوة

إلى الحضارة يجب القيام بها، ها هي الصابونة ذات الرائحة القوية بدأت تأتي ببعض المفعول، في دقائق انتهيت من ارتداء ملابسي وذهبت إلى المطبخ وجدت أخي كارمًا لتوِّه استيقظ، بادرني بالكلام، ليست عادتك يا سليم الصحو مبكرًا إلى هذا الحد، أجبته مبتسمًا: طبيعي أن أصحو مبكرًا، فأنا لا أسهر للفجر مثل سيادتك، ثم لماذا لم ترتدِ ملابس الخروج؟ أليس لديك عمل اليوم؟ أجاب: كلا، اتفقت مع زميلي أن أبدل معه ساعات العمل، سأذهب إلى منزلنا في البلدة اليوم، نظرت له مفكرًا، ما حكاية تلك الزيارات الكثيرة لبيت البلدة طوال تلك السنوات؟ أنا منذ صغري أكره هذا المنزل وأمي لم تذهب إليه منذ سنوات عديدة، لماذا يذهب كارم كثيرًا هناك، أيعقل أن يكون لديه زوجة وسبعة أطفال لا نعلم عنهم شيئًا؟ صارحته بهذا وضحكت بصوت خافت وقابل هو ضحكي بابتسامة لزجة نوعًا، فعرفت أنه يخبئ شيئًا لا أدريه، كان جلّ خوفي أن يكون يمارس أي خطيئة، هل يتعاطى شيئًا؟ وإن كان، فلماذا يذهب هناك؟ هل لديه عشيقة يذهب إليها؟ لا أدري لكني انصرفت إلى عملي على عجل، فتحت باب الشقة وأغلقته خلفي بهدوء، على السلم قابلت جارتنا، ميادة، ابتسمت في وجهي مُرحبة: صباح الخير يا سليم. رددتُ التحية: كيف حالك وحال والدتك؟ أجابتني بابتسامتها المعتادة:

الحمد لله بخير..

كانت ميادة تنظر إلى سليم، نظرات حب واضحة جلية، نظرات بقلب لديه من الإحساس ما يكفي لأحداث عاصفة جارفة من الورود الزهرية والقلوب الحمراء الصغيرة في الأرجاء، إحساس ينتاب جسدها بأكمله عندما تستنشق رائحة عطره الرجولي الذي يملأ أرجاء المكان، كانت رائحته تنعش

كل خلية في رئتيها، وبعينين خجلتين يشع منهما نور، كانت تنظر إلى عينيه البنيتين وجسده الرياضي ووجه الوسيم، كان سليم أشبه بأمه في ملامحه الدقيقة ولون أبيه الأسمر، كان يسلب عقلها كل صباح، ودومًا ما تساءلت: هل هو يعلم أنها تُكنُّ له مشاعر، ولكنه يُمثل أنه لا يبإلى، كعادة الشباب، أم أنه لا يعلم؟ هي جميلة ولديها عينان زرقاون لحورية وملامح شرقية خمرية، كان سليم هو الوحيد الذي لم يحبها يومًا، على نقيض كل الرجال الذين رأتهم في حياتها، أنها تخرج معه إلى الدرج كل يوم في موعد عمله المبكر على الرغم من أن عملها يبدأ بعد التاسعة، لا شيء يرغمها أن تخرج كل صباح في السابعة صباحًا سوى أن تراه وتمضي، لاعنة إياه، كيف تحبه وهو لا مبالٍ لهذه الدرجة؟ ألا يشعر هذا الشيء؟

***

سليم..

طوال الطريق إلى الشركة وأنا أفكر في هذا الكابوس اللعين بصورته الغريبة، صعدت إلى الطابق الخامس وجلست على مكتبي، حاولت أن أبدأ يومي بأي شيء مبهج قليلًا حتى لا أرى في ذهني صورة الحلم الثابتة أو أقله أُبعدها عني قليلًا حتى أستطيع أن اركز في عملي، أخرجت الموبايل ووضعت سماعات الأذن، كنت قد ذهبت إلى العمل اليوم مبكرًا بعض الشيء، لذا، نعم أستطيع أن أستمع إلى بعض من الموسيقا، دوَّى في أذني، صوت العندليب عبد الحليم على آخر أغنية سمعت نصفها بالأمس، وقال إيه.. جاي يا زمان تداوينا.. اندمجت معه ثم لمحت، هاديًا، ساعي المكتب وطلبت منه فنجان قهوة، فقال لي حاضر وابتعد بنظرة دومًا ما ألمحها فيه يوجهها إلى، نظرة غضب وامتعاض خافتتان، إما أنه يكرهني لله في لله أو أني قد تخرجت في كلية تجارة محللًا نفسيًّا.

جلست ندى عز الديَّن، على الكرسي المقابل لمكتب المقدم "وجدي ناجي الخيشي"، كانت اللوحة المعدنية الصغيرة الموضوعة على مكتبه، تحمل اسمه بخط أنيق، كانت ندى تتأمل المكتب والغرفة وتنتظر أن ينهي حديثه الهاتفي الذي لا ينتهي، حوارًا ما مع أحدهم الذي يُدعى بالباشا الكبير، جميعهم يُدعون هكذا تلك الأيام، كان وجدي يقهقه بين الحين والآخر بصوت عالٍ، ثم ينظر إلى ندى، ندى، كان بها شيء غريب يجعل من يراها ينبهر بها لوهلة قبل أن يتحدث معها، كانت قصيرة، ممتلئة، بيضاء ذات شعر أشقر قصير، كانت ملامح وجهها جميلة، لكن كان هناك شيء في نظراتها، عيناها ذكيتان، ماكرتان، عميقتان، لهما نظرة طفولية غريبة، ليس من السهل قراءتهما، لكنهما تعكسان براءة للوهلة الأولى، لكن عقلها ليس بريئًا على الإطلاق، كانت مثقفة إلى حد مخيف، لكن وجهها لا يعكس من هذا شيئًا ولا مما رأته طوال عملها بالجريدة، كل الحوادث التي رأتها وتعاملت معها، الحوادث التي لو رأى رجل ذو قلب حديدي نصف تفاصيلها التي لا تُكتب دومًا في الجريدة، لذهب نصف عقله من هول البشاعة، إن البشر يرتكبون أبشع الجرائم التي لا يتخيلها عقل، كانت ندى تعلم الحقيقة من كثرة ما رأت في حياتها، حقيقة البشر، البشر قساة القلوب أكثر من أي كائن حي، إنهم مبدعون في التلذذ بالتعذيب حينما ينتابهم جنون الجريمة، رأت ندى الكثير منذ عملها بالجريدة، لكن لحسن حظها كان وجهها يعكس براءة صافية، براءة من لم ترَ في حياتها جثثًا مقطعة إلى أشلاء، أو العودة إلى منزلها بحذاء مطلي بدماء ضحايا حادث ما، براءة من لم ترَ حوادث لا يمكن تصديقها، حسنًا، حبذا لو تخيلت ندى مع الموسيقا التصويرية للمسلسل الشهير ملفات إكس سيلمع ذهنك كثيرًا وقتها.

انتهى وجدي الخيشي من المكالمة، وضع هاتفه جانبًا ونظر إلى ندى وهو يشعل سيجارته، قالت له إنها تريد أن تعرف آخر ما توصل له البحث عن الطفل المفقود، على، وهل هو مسلسل اختفاء أطفال سيحل بأهل المنطقة مثل ما حدث قبل هذا في أمأكن أخرى؟ هنا، قام وجدي وهو ينفث دخان سيجارته في الهواء بهدوء يتناسب مع شخصيته، كان شابًّا رياضيًّا، ليس وسيمًا، لكن ملامحه كانت رجولية خشنة، ربما أكثر من اللازم، لكن تلك الملامح أعطته هيبة وسط عمله بين المُدانين، كان يفكر بهذا قبلًا، لو أنه جميل معسول ذو وجه رجولي وسيم كأبطال المسلسلات التركية التي تتابعها أمه، لربما، على حد قوله، أكلوه، قام من مكانه ليستقيم ظهره قليلًا ويقوم بتعديل قمصيه الذي انتهى إكلينيكيًّا من العرق والعمل طوال اليوم، كان وجدي ينظر إلى ندى وقد حلّ عليه إرهاق اليوم كله، وبصبر قال لها، لو جدّت أي أخبار جديدة سيقوم مندوبين الجريدة من المخبرين بتوصيل المعلومات إليكم، أم لا تدفعون لهم جيدًا مقابل توصيل الأخبار، حاول أن يبتسم وهو يتحدث إليها لكن الابتسامة رحلت سريعًا من بين شفتيه، نظرت له ندى محترمة ذكاءه وقالت له: أنا أريد المعلومات من سيادتك، ربما لو تعاونا نستطيع التوصل إلى شيء، تبادل المعلومات مفيد لكلينا. أومأ لها وجدي برأسه موافقًا على كلامها وهو ينهي ما تبقى من عُمر سيجارته في المطفأة التي أمامه.

***

سليم.. ..

مضى اليوم بطيئًا، مُملًّا، مُرهقًا، ما إن دقت الساعة الخامسة حتى فر الجميع، كأننا في مُعتقل وفُتح لنا باب الحرية أو أننا في سفينة تغرق ونحن الفئران المذعورة نركض تاركي مقرَّ العمل خلفنا في راحة وأنفاس لها طعم آخر.

ما إن دنوت من المنزل حتى تذكرت الحُلم اللعين، كلا يا وغد، كلا، لا لن أدعهُ يحتل تلك الأمسية أيضًا، سأنام بعمق، أنا مُتعب، سأنام حتى لو ظهر لي الشيطان شخصيًّا، أنا أريد النوم الهادئ.

فتحت باب الشقة، وجدت أمي في يدها حقيبة سفر صغيرة وتستعد للرحيل؟ قبل أن أنطق وأسأل لأفهم، قالت لي:

سليم يا حبيبي أنا ذاهبة للمبيت عند خالتك هي وحدها ومريضة، اعتنِ بنفسك وبأخيك، اقتربت مني، نظرت في عينيَّ طويلًا جدًّا، ثم قبلتني وخرجت وأنا متعجب، ليست عادة أمي أن تذهب هكذا بلا إنذار مسبق، هممت بالرحيل معها لأوصلها لكنها قالت لي إن هناك سيارة تنتظرها بالأسفل، وهناك سائق سيوصلها، احتضنتني ولم تنظر خلفها، هكذا مضت إلى الباب وأغلقته خلفها بهدوء.

دخلتُ إلى الغرفة وجدت قطتي، لوجي، تنظر إليَّ بتحفز، تنتظر طعامها بالطبع، أطعمتها وغيرت ملابسي وانتظرت كارمًا أن يعود، أحتاج حقيقة إلى أحد كي أتحدث معه، لا أريد أن أكون وحيدًا تلك الليلة، أغلقت النور وجلست على سريري، جلست أتصفح في الحاسوب المحمول قليلًا، كله كما الأمس، أخبار، ثم أخبار ثم أخبار، جميع مواقع التواصل الاجتماعية، مليئة

بذات الشيء، لّعنات، مديح، دفاع، هجوم، خبرٌ يُولَد بسرعة البرق ثم يموت عندما يُولَد من هو أهم منه، ثم لا شيء، من إرهاق اليوم، نمت وأنا جالس على الكرسي الوثير، لا أدري كيف لكني فعلت، ثم وبلا سابق إنذار، ها هو الكابوس اللّعين ذاته، لكن هذه المرة كان قصيرًا، صحوت على صوت ارتطام، خرجت إلى الصالة، كانت مظلمة، كل شيء عادى فيما عدا أن غرفة أخي مُنيرة ومغلقة، كان النور يتسلل من تحت عقب الباب، متى عاد أخي؟ ولماذا لم يوقظني عندما عاد؟ اقتربت حتى سمعت صوت بُكاء؟ أخي يبكي بصوت غريب، اقتربت وطرقت الباب بهدوء، طرقت الباب عدة مرات مناديًا أخي، كارمًا: كارم افتح الباب. الصوت داخل الغرفة يتصاعد أكثر صوت حشرجة مخيفة، ثم نور الغرفة انطفأ فجأة، ثم صوت صرخة طويلة كأنها استغاثة من يُعذبّ في جهنم، طرقت الباب بعنف تلك المرة..افتح يا كارم، افتح الباب الآن..، ثم جعلت المفاجأة شيئًا يقف ما في عنقي، أنا لا أستطيع أن أبلع ريقي، كانت المفاجأة أن جاء صوت من داخل الغرفة، صوت أجش عميق كأنه لا يتحدث، إنما يذاع في المذياع بصوت عالٍ جدًّا، سمعت كلمة لا أستطيع تفسيرها، كان بها شيء على غرار (تسرو ضال)، لكن مما لا شك فيه كان الصوت الأخير ليس صوت أخي، ولا صوت التلفاز، لا يوجد أصلًا بغرفته واحد؟ دنوت من الباب أكثر فانطفأ نور الشقة كله وسمعت أصوات تحطُّم، ثم أحسست بغبار، تُراب كثيف ملأ المكان، حتى أن قدمي العاريتين لمستاه على الأرض، تُراب، تُراب كرياح ليلة عاصفة وكل النوافذ مغلقة؟ أنا لا أفهم شيئًا، لكني أريد أخي الآن، طرقت الباب بكل طاقتي بقبضة يدي، صارخًا: كارم افتح يا كارم، كان صوتي يعلو ويعلو ثم فجأة ظهر نور ساطع كالشمس

في غرفة أخي، رأيت إضاءته من أسفل الباب ثم صمت كل شيء ثواني، وأضاء وحده نور الشقة، ولا صوت لأخي أو في غرفته، كل ما حدث لم يستغرق دقيقتين أو ثلاثًا على الأكثر، حسنًا، لا يوجد غير هذا، جريت إلى آخر الصالة وخبطت الباب بكل طاقة وعنف، مرة واثنتين وثلاثًا في الخامسة انكسر الباب، ولكن ما رأيته جعلني أشعر بالبرودة في جسدي، تجمد الدم في عروقي بعدها بثوانٍ.

***

”اقتلوهم جميعًا، سيعرف الله أتباعه،

(2)

كانت عيناي لا تُصدقان ما تريان، وقفت لحظة أحاول استيعاب الموقف، أحاول أن أفهم؟ أفهم! أي شيء يمكن فهمه من هذه الصورة التي أمامي، أنا أحلم أكيد أنا ما زلت في غرفتي وهذا كابوس جديد سأصحو منه بعد قليل لأجد كل هذا..اختفى!!.. لقد اختفى فعلًا كل شيء، أنا أقف على عتبة باب غرفة أخي كارم، ولا شيء على الإطلاق؟ لا أقصد أن أخي اختفى فقط، كلا لم يكن هو وحده ما اختفى! الغرفة.. كل ما بالغرفة اختفى لا يوجد سرير لا توجد الأريكة التي كانت هنا لا توجد الستارة على النافذة..النافذة كلها مغطاة بشيء لا أفهمه كأنها هي والحائط كتلة واحدة، حاولت بلع ريقي أو حاولت الحراك لكني لا أستطيع، بعد ثوان أفقت وبدأت أتأمل في الغرفة مرة أخرى، أنها خالية تمامًا لكن على الأرض يوجد تُرابٌ كثيف، نفس التراب الذي تصاعد من أسفل عتبة الغرفة إلى قدميَّ، تراب غريب كأنه رماد مئات ألوف السجائر، حتى أن رائحته قريبة من رائحة السجائر قليلًا، بحذر وقلب وأمعاء متوعكان، دنوت من الغرفة وأدرت ظهري في مواجهة الحائط الأيسر ما شاهدته جعلني أتراجع إلى الخلف كثيرًا حتى اصطدمت بالحائط الأيمن وكأن

يديَّ تريدان مسك الحائط، تريدان التمسك بأي شيء مادي ملموس يحسسني بالأمان في هذا الوقت الغريب، عيناي تطرفان مرة بعد مرة لكن ما أراه هذا حقيقة لا يمكن حتى لخيالي ان يبتكر ما أراه في حلم.. كان الحائط كله عليه رموز غريبة أنا لا أعرف لغات العالم أجمع، لكن ما أراه ليس لغة يتكلمها العوام،.. يا رب، يا رب ما ذا الذي أراه، ما كُتب على الحائط ليس بحبر أو بدماء هذا.. .هذا حريق؟ كأن الحائط قد احترقت عليه الكلمات المكتوبة، اقتربت رويدًا رويدًا،شعرتُ أن مسافة المترين اللذين مشيتهما كأنهما فدان أمشيه، مددت يدي بحذر نحو الحائط ألمس النقوش المكتوبة لا يوجد لها بروز أو نقش خارجي، هو حفر بدقة بالغة في الحائط، إنها ثابتة في الحائط، كأنها كانت فيه منذ أن تم دهانه بالطلاء.

هذا حريق كحريق الحفر على الخشب ناعم، أنيق، أسود..

إن الحلول المنطقية لا تتبادر إلى الأذهان الآن، هذا وقت الحلول اللامنطقية، جريت إلى غرفتي شددت تليفوني بسرعة وحاولت الاتصال بأخي.. ثم وبالطبع جاءني الصوت من الطرف الآخر، إن الهاتف المطلوب مغلق أو غير متاح.. بعد دقيقتين أدركت أني أبله، من الذي أحاول الاتصال به عبر الهاتف؟

كارم؟ الذي تبخر في غرفته هو وكل محتوى الغرفة عن بكرة أبيها؟ إن ما يحدث يفوق الاستيعاب، حسنًا، دخلت الغرفة مرة أخرى أحاول البحث عن أي شيء، أي شيء كالغريق الذي يبحث عمَّا هو أقل حتى من القشة كي يتشبث بها ولكن لا شيء، لا شيء على الإطلاق، اقتربت من النافذة أحاول فتحها لم أجد لها مقبضًا؟ كأنها لصقت بالغراء في بعضها البعض، كل محاولاتي

فشلت في أن أفتحها حتى بالإزميل والمطرقة بعد أن أتيت بهم من شُرفة غرفتي؟ الشرفة التي في غرفتي؟ هي على ذات الشارع المطل على نافذة غرفة أخي، كيف لم أفكر بهذا، جريت نحوها مرة أخرى وحاولت رؤية النافذة في ظلام الشارع ونوره الواهن لايوجد شيء في الشارع، ظننت أن أخي بالأسفل أو وقع من النافذة، نظرت من أسفل إلى أعلى حتى وجدت النافذة، كاد ما رأيته يلقيني أنا من الشُّرفة، كان هناك عين تنظر لي، وجه مظلما كله عدا لمعة عين واحدة تظهر منه من النافذة جريت إلى غرفة أخي مرة أخرى لكني لم أرَ شيئًا؟ جريت إلى الشُّرفة مرة أخرى لم ارَ شيئًا هل كنت اتخيل؟ رجعت إلى الغرفة مرة أخرى وأنا مصمم على أن أفتح تلك النافذة اللعينة مهما تكبد الأمر، بعد عدة محاولات بائسة مزرية وخبط تيقظ الجيران واعتذرت لهم بآخر ما تبقى لديَّ من أخلاق حميدة في هذا اليوم، بعد عدة محاولات بدأت النافذة في.. الفتح؟ ما إن طرقت مرة أخرى حتى تفتت النافذة كأنها بسكوتة تم تهشيمها ببلدوزر؟ وقعت كأنها تراب على الأرض! ارتعش جسدي وسال منه عرق بارد وقشعريرة سرت فيه بالكامل، ألقيت ما في يدي من العدّة في الأرض أو أنها انزلقت من يدي لا أعرف كل ما ميزته صوتها وهي تضرب بصوت عالٍ على الأرض، نظرت لها ببطء كأنها وقت في بئر عميقة، ثم خرجت إلى الصالة جلست على الأريكة أحاول أن أستوعب أي شيء، أي شيء، أحاول ربط أي خيوط ببعضها البعض، ولكن أي خيوط؟ كل ما حدث كان واضحًا جليًّا وغامضًا إلى حد لا يصدق؟ إلى أين أذهب؟ هل أذهب إلى قسم الشرطة أبلغ باختفاء أخي من غرفته المغلقة من الداخل؟ سيتم اتهامي بالجنون؟ و..أمي.. ازدادت الحياة أمامي سوادًا، ماذا سأقول لأمي حين تعود؟ كيف سأشرح لها

ما رأيته بأم عيني ولا أصدقه، فكيف ستصدقه هي؟ جلست أبكي، أبكي بحرقة طويلة، ثم..لملمت ما تبقى من أعصابي وذهبت إلى المطبخ أعدّ كوبًا من القهوة، لا بد أن أفيق وأن أفكر،كلا، أنا لست مِن مَن يجنون ذعرًا ويبأسون، ثم إن الذعر والهلع لن يفيدني الآن، لا بد أن أبحث عن أخي..كان هذا ما قلته لنفسي لأهدئ من روعها وأقويها..سليم ركز وأفق ..صببت القهوة وتركتها كي تبرد أنا لا أشربها ساخنة وذهبت إلى غرفتي احضرت الهاتف وبدأت كالمحقق التقط صورًا، صورًا لكل شيء للأرض وللسقف وللحوائط وللنافذة التي لم تعد كذلك.

جلست أقلب في الصور لعل ما تدركه الكاميرا لا تدركه العين، وكان هذا الذي ينقص حتى يكتمل جحيم اليوم!

كل الصور..كلها..تكرار لصورة واحدة فقط..الأرض والسقف والحوائط كلها لنفس النقش الذي على الحائط..حاولت أن ألتقط أي صورة أخرى داخل الغرفة، ولكن كلها تظهر بنفس الصورة النقش الذي على الحائط ربما كانت الكاميرا معلّقة؟ ألتقط صورًا للصالة تظهر كما هي، في المطبخ الصورة التي التقطتها كما هي؟ إذن الأمر متعلق فقط بالغرفة!

أنا لست بالغباء الذي أظنه أنا أعلم جيدًا أن ما يحدث هو بفعل ليس آدميًّا فالآدميون لا يفعلون كل ما رأيت، ولكن السؤال: ما هذا؟ والأهم هو..لماذا؟

جلست أفكر بمن أستعين ولمن ألجأ.. يا رب.. يا رب ساعدني.. أنا ضائع.

جلست على الأريكة في مواجهة الغرفة مهما تبلغ قواي النفسية والعصبية لا أستطيع أن أعطيها ظهري أو أن أذهب إلى غرفتي.

لن أجلس في مكان مغلق منذ الآن هذا ما قررته، جلست على الأريكة وعيناي تنظران إلى غرفة أخي ولا تطرفان، لا أدري كم ساعة جلست ولا كيف نمتن كيف أنام أصلًا في هذا الوقت وبكل هذه الظروف؟ كان هذا ما أحدث به نفسي، لكنني نمت، فقدت الوعي على الأريكة، وفي الحلم لم يأتِ لي نفس الكابوس تلك المرة، لكن قبل أن تتسلل شمس الله إلى عيني عبر مكان النافذة المرحومة، سمعت شيئًا هل هو صوت العقل كما يقولون أم أنه صوت سمعته فعلًا، الصوت كان كلمة واحدة.. ميادة.. .

فتحت عينيَّ على ضوء سطوع الشمس وفكرت ثانية..ميادة كانت في كلية الآداب لغة.. لا أدري ما تلك اللغة التي كانت تدرسها، لكن ربما يمكنها أن تدلني على من يفك الرموز التي نُقشت على الحائط..

لكن ميادة تخرج في السابعة والآن هي السادسة إلا ربعًا، كدت أفتح الباب أنتظرها، لكني تذكرت أني بملابس النوم من الأمس، وكلي مليء بالغبار كأني كنت تحت أنقاض، ذهبت بسرعة في ثوان، اغتسلت وارتديت ملابسي وخرجت أنتظرها أمام المصعد في تمام السابعة إلا عشر دقائق، خرجت هي وأغلقت باب شقتهم وراءها، قالت لي ما إن رأتني: سليم، صباح الخير. كانت تنظر لي بابتسامة بدأت تتلاشى بعد أن نظرت في عينيَّ، ما بك يا سليم؟ هل حدث شيء ما؟ وجهك يقول إنك متعب، كأنك لم تنم بالأمس؟ قلت لها: ميادة، أنا أريد منكِ خدمة ضرورية، ولو سمحتِ لا أريد لأحد أن يعرف شيئًا مما سأقوله لكِ. قبل أن يتبادر إلى ذهنها أي توجس أو تظن أني أطلب شيئًا دنيئًا لا سمح الله، أخرجت لها هاتفي وفتحت الصورة وقلت لها: أتعرفين ما

هذه اللغة المنقوشة على الحائط؟ أمسكت هي هاتفي بحذر ونظرت وقالت لي: أنا لا أعرف، لكن أعتقد أني رأيتها من قبل، انتظرني هنا لحظة، ريثما آتي بأوراق من منزلي، أعتقد أني رأيت ما يشبه هذا في كتاب للغات عندي، دقيقة وسأعود.

أخرجت مفاتيحها ودخلت شقتهم، دقائق وخرجت ومعها أوراق، وأغلقت الباب خلفها، فقالت لي: أرسل لي الصورة وأنا أبحث لك عنها، وأنا في العمل بعد التاسعة، ولكن قلت لها، ميادة، أنا لن أستطيع الانتظار حتى التاسعة، أعلم أني سخيف، لكني أريد أن تفسري لي هذا الآن، وحالًا!

كان إصراري مُخيفًا، فقالت لي بعينين كلهما تساؤلات، حسنًا، ما زال على موعد العمل ساعتان، أخبرني ماذا حدث وجعلك مهتم بهذا لهذه الدرجة في السابعة صباحًا؟ كان في عينيها مزيج من الخوف، ولكنه ممزوج بالحنان والاهتمام الذي لاحظته، والذي أنا في أشد الحاجة إليه الآن، قلت لها وعيناي تكادان تدمعان وبصوت مخنوق: من الممكن أن نجلس في أي مكان وأروي لكِ ما حدث، ولم أكن أنوي أن أحكي لأحد ما حدث قبل أن أفسره، ولكني وجدتني أريد أن أبوح لأحد قبل أن ينفجر عقلي من التفكير أو أن انفجر أنا في بكاء حاد يقضي عليَّ حتى أموت، ربما حينها سأعرف ما جري!

***

تسردونت نيسمضال

ⵜⵙⵔⴷⵓⵏⵜ ⵏⵢⵙⵎⴹⴰⵍ

***

(3)

في أحد المقاهي التي بها كوب القهوة له فخامة وحدث جلل لأن له اسمًا بلغة تنطق ب " أل ءغ" جلسنا ميادة وأنا، ما إن استقرت في مقعدها حتى طلبت لنا قهوة وشيئًا يؤكل لها، لم يكن لديَّ وقت كي أنتظرها تفكر فيما ستطلب أو لديَّ شيهة كي آكل أي شيء، لاحظت هي انفعالي الذي ربما لم تره قبل اليوم، فعادة أنا هادئ لا أنفعل بسهولة، جلست تنظر لي بعينيها الجميلتين، جميلة هي حقًّا، جميلة أنيقة وهادئة ببعض من الجنون اللذيذ، شعرها القصير الذي يدور على وجهها المستدير يجعل لها رونقًا خاصًّا، كنت أعلم طوال تلك السنوات أنها تكنُّ لي مشاعر ما، لسنا بالغباء الذي تظنه الفتيات، نعلم ونأخذ بالنا جيدًا من كل شيء، لكننا على حد قولهن لديَّنا لامبالاة، وكنت حقًّا بعد أربعة أعواما في الكلية وبعد قصة الحب الفاشلة مع لوجي لم أكن مستعدًّا على الإطلاق أن أفتح قلبي لأي امرأة مهما تكن حلوة الشكل أو حلوة الطباع، فأنا لست من الشخصيات التي تحب كي تتسلى وتضيع وقتها، من الممكن أن أعجب بإحداهن ولكني أصرف تفكيري عنها فلا أريد أي خدوش جديدة في قلبي المكسور، نعم الشباب قلوبهم تُخدش كالفتيات،

ولكن للفتيات الحق في البكاء والصراخ ولعن الشاب السافل الذي جرحها، لكن الشاب لا بد أن يأخذ الطعنة ويخرس، فهو رجل والرجال لا تبكي، هذا هو القانون، لا أقول إننا ملائكة، أنا أعلم أن غالبيتنا يستحقون الضرب بالقباقيب لما نفعله في قلوب البنات، ولكن هناك فئة قليلة لا تعبث بقلوب الآخرين، ولكن يتم العبث بقلوبهم، أنا من تلك الفئة، ولذا قمت بالاكتفاء من العبث في قلبي للمرة الأخيرة على يد لوجي واكتفيت، أنا قلبي مغلق حتى إشعار آخر..

كانت ميادة تنتظر أن أبدأ الكلام لا أدري من أين ابدأ، لكني وجدت نفسي أبدأ من أول الكابوس..

بعد أن أنهيت كلامي وهي جالسة في هدوء تستمع لي في صمت وعيناها تنظران لي بتعجب، ولكنها كانت منصتة جيدًا، تركتني حتى قلت كل ما لديَّ وأكثر.

لم يرتشف أحدنا أيًّا من القهوة حتى بردت تمامًا، كدت بعد أن انتهيت وقبل أن أسمع رأيها أن أطلب لها قهوة غيرها، فقالت لي إنها تفضلها باردة.. .

كنت أريد أن أبتسم، ولكن الموقف لا يحتمل أي عواطف الآن، قالت لي بكل هدوء ما لم أكن أتوقعه، كنت أتوقع أنها ستنصرف بهدوء أو تطلب لي مستشفى المجانين ولكنها أخرجت ورقة وقلمًا وكانت بارقة أمل أن أحدًا ما صدقني على عكس أفلام الرعب التي شاهدتها طوال حياتي، في الأفلام لا أحد يصدق البطل إلا قبل أن يتم هلاك العالم بثلاث دقائق..

تفحصت الرموز التي وجدها على الصورة التي أريتها إياها في هاتفي، كتبت الرموز بدقة بالغة ونظرت لها قليلًا ثم قالت، قبل أن أفسر أي شيء أريدك أن تعرف شيئًا ربما أدركته بنفسك وربما لم تدركه بعد، سليم، ما حدث يشير إلى أن هناك احتمالًا كبيرًا أن يكون أخوك د.كارم على صلة بشيء تبع الجن أو التحضير أو خلافه، أنا قرأت الكثير عن هذه الموضوعات وأعلم جيدًا أن الأمر ليس بالهين، هناك شيء ما حدث ونحن سنحاول معرفته.. كان بالنسبة لي كلمة.. نحن.. التي قالتها، كافية حاليًا أن أطمئن قليلًا كطفل تائه وسط السوق ووجد وجهًا مألوفًا يعيده إلى المترل.

أعادت ميادة رسم النقوش أو الحروف مرة أخرى على ورقة أكبر، وتركت مسافة. ⵜⵙⵔⵅⵏⵜⵏⵛⵙⴹⵄⵍ

وأخذت تبحث بين أوراقها المنظمة حتى وجدت ضالتها التي لم ترح أي منا

تلك النقوش، إنها لغة الأمازيغ يا سليم!

لا أعلم عمًّا تتحدثين؟ الأمازيغ؟ هذه لغة أي بلد؟

قالت لي ميادة، ما أعرفه يا سليم أن الأمازيغ أعدادهم كبيرة جدًّا، يكفي أن أقول لك أنهم أكثر من 40 ألف نسمة ويعيشون في دول كثيرة، خاصة شمال أفريقيا في مصر وفي ليبيا وفي الجزائر وفي المغرب و.. قاطعتها لم أكن في حالة نفسية تسمح بالإصغاء للمحاضرة التاريخية الجميلة التي تلقيها بكل أريحية.. حسنًا يا ميادة، فهمت من هم، ولكن أنا لا أفهم ما علاقة الكلام المكتوب بأخي وأصلًا ما معنى الكلام المكتوب؟!

حاولنا أنا وهي من خلال الأوراق التي بحوزتها أن نترجم أي شيء، كنا نترجم حرفًا حرفًا كأننا نلعب أحجية، بعد ساعتين كنا قد توصلنا إلى ما تعنيه تلك الحروف.

كانت ترجمتها إلى العربية (تسردونت نيسمضال) واختلفنا أنا وميادة حول كونها (نيسمضال أو نيسمدال) وتبًّا لنا نحن الاثنين، فكانت بالدال أو بالضاد ما الذي تعنيه أصلًا تلك الكلمات غير المفهومة؟!

كأي اثنين عاقلين كتبنا تلك الكلمات على الإنترنت نبحث عنها وكنت واثقًا أن محرك البحث سيخرج لي لسانه قائلًا أنت أبله، وتعلم أنك لن تجد شيئًا يا أبله؟

ولكنه لم يفعل! وجدنا مقالات ليست بالكثيرة لكن أقل فهمنا ما تعنيه تلك الكلمة، أو بالمعنى الحرفي هذا الاسم! لقد أصبح هذا اسمًا وترجمته باللغة التي نفهما هو (بغلة القبور)؟ بغلة؟ قبور؟ تركت ميادة جالسة وذهبت دقيقة أتمشى لثوان معدودة، هل أطلق لنفسي العنان وأجنّ الآن أم أنتظر قليلًا؟ إن لم يكن هذا هو وقت الجنون فمتى إذًا؟ كنت أبحث عن سيجارة في أي مكان تذكرت أني أقلعت عن التدخين، ولن أجد مع ميادة، فهي لا تدخن، هنيئًا لها تحتفظ بقواها العقلية دون أن تنفخ غيظها في أي شيء يحترق ويحرق معه الرئتين، جلست إلى جوارها وقد كانت سريعة في البحث بحكم عملها، تو أن جلستُ قالت لي: المكتوب هنا أن تسردونت نيسمضال هذه أسطورة امرأة، كانت أرملة لم تنتظر أن تنتهي العدة على وفاة زوجها وخالفت أمر الله، كان وجه ميادة يملؤه خجل لاحظته لا وقت للخجل الآن يا ميادة أنا فهمت، أكملي ماذا فعلت الأخت تسردونت لعنها الله بعدما عملت الفاحشة الدنيئة..

ابتسمت وأكملت: إنها سُخطت إلى نصف امرأة ونصف بغلة، وتظهر ليلًا في القبور على هيئة بغلة تمشي بسلاسل، إنها جنية أسطورية، ولكن هذه حكاية شعبية في المغرب؟ لا في مصر، حتى أنا لا أفهم ما علاقة الحكاية بك وبأخيك؟

صمتت، لا أستطيع الآن أن أقدم لها تفسيرًا منطقيًّا، فأنا نفسي لا أملك واحدًا!

كان وجهي الحزين يثير الشفقة، فلا أقسى من أن تشعر بالعجز، ضممت كفي يدي إلى وجهي ثوان ثم تظاهرت بأني أفرك وجهي بيدي حتى أفيق، لا أريد أن يظهر عليَّ كل هذا البؤس مرة واحدة.

كانت ميادة هي الأخرى صامتة تفكر، كان لديها بريق في عينيها يشبه بريق الأطفال الأذكياء المشاكسين، صمتت دقائق ثم هبت مرة واحدة مطرقعة إصبعها الوسطى بالإبهام كأن جاءتها الفكرة أخيرا، سليم، كيف فات علينا أن نفكر في الحل التقليدي؟!

***

ابحث عن.. ..

***

(4)

أجرت ميادة بعض الاتصالات الهاتفية، أخبرت رئيستها في العمل أنها ستأخذ اليوم إجازة، ثم اتصلت بصديقتها، قالت لي إنها ستسألها عن شيء ربما يفيدنا، قالت لها إنها تريد رقم هاتف الشيخ معتز المرجاوي، صديق والدها، أخذت الرقم وقالت لي إن هذا الرجل هو شيخ ويعرف جيدًا في أمور الجان والتحضير، وربما نجد عنده ضالتنا، هاتفته وأخبرته أنها تريد لقاءه لشيء عاجل، وأنها من طرف فلانة ابنة فلان صديقه، وأن الأمر عاجل وكنت أفعل مثلها أنا أيضًا على بُعد مترين منها أُجري مكالمة هاتفية إلى العمل بطلب إجازة حتى لا يتم الاتصال بي وسؤالي يوميًّا: لماذا لم آتي؟ فطلبت إجازة أسبوعًا، ذهبنا بعدها ميادة وأنا إلى العمارة، قالت لي إنها ستستأذن أمها في أن تجلس في صالة شقتنا، كنا معتادين الجلوس معًا منذ صغرنا حتى بضع سنوات مضت، كنا معتادين أنا وهي أن نجلس معًا وأمها وأمنا جالستين في الغرفة المجاورة ريثما نستذكر دروسنا، كانت هي في الثانوية العامة، وكنت أكبرها، ولكن كانت تحب الجلوس إلى جواري ربما احتاجت إجابة لسؤال وكنت أنا أيضًا أشعر بالونس إلى جوارها، ربما لأن كارمًا كان أكبر مني بعامين كان في ثانية طب بيطري، ولا يجلس معي، كان دومًا خارج المترل، وغالبًا في بيتنا الذي في

البلدة، لا يبعد عن القاهرة سوى ساعة بالسيارة، كان يذهب هناك ليمارس تشريح الحيوانات، وكانت أمي فرحة أنه لا يفعل تلك "المقززات في المترل"، دخلت ميادة إلى مترلها دقائق ثم عادت ودخلت مترلنا، تركتُ باب الشقة مفتوحًا وأسندته بكرسي ودخلت، سألتها إن كانت تريد كوبًا من القهوة، فوافقت، ودخلت المطبخ أعد كوبين، كان هذا كوب القهوة رقم كم بالنسبة لي، لا أذكر، ولكني مادة خام للكافيين الذي شربته طوال الليل كان تأثيره على جهازي العصبي ليس محببًا، كنت أرتجف قليلًا، ولكني تمالكت نفسي، حاولت لمّ شتات أمري ريثما تغلي حبيبات القهوة على النار، أنا في موقف لا أحسد عليه، ولكن يجب أن أنتبه إلى كل شيء من الآن فصاعدًا لا أريد لأي مفاجأة قادمة أن تلغي عقلي مرة أخرى، أنهيت إعداد القهوة وأنا متعجب قليلًا، أليس من عادة البنات الدخول إلى المطبخ في تلك المواقف للمساعدة، كنت سأرفض، ولكنها لم تفعل، تفكيري ذكوري متعفن كما كانت تقول عني لوجي، تو أن خرجت من المطبخ علمت لما لم تأتِ ميادة، كانت تقف مشدوهة، مثبتة أمام غرفة أخي كارم، لم تجرؤ على الدخول وحدها لكنها لم تقو على الابتعاد كذلك، ظلت واقفة حتى أنها لم تنتبه لي، ناديتها: تفضلي القهوة وسندخل لتري ما حدث، ولكن دعينا ننتظر الشيخ، هل أنتِ واثقة به؟، قالت لي: لا أدري، كان لديَّ صديقة جربت أن تستعين به، بعد الله بالطبع، في مشكلة لها وقرأ لها قرآنًا وحُلت مشكلتها، سليم، أنا أعلم أننا مثقفان وفاهمان، وأنت لا تؤمن بالغيبيات، ولكني ومنذ أن دخلت الكلية وأنا مهتمة بأمور الغيبيات، وأحب أن أقرأ فيها وأعرفها، وما رويته أنت لي وما رأيته على حوائط الغرفة وما قرأناه وترجمناه، إن كل هذا أمور

غريبة، إن هذه ظواهر خارقة للعادة، فلن نكون غبيين وننكر أن هناك عوالم أخرى ومخلوقات أخرى نجهلها، ولا نعرف كعامة الناس كيفية التعامل معها إلا فئة قليلة، لن نكون منكرين ونقول سنحلها بالطرق العلمية فقط، هناك أشياء تفوق المنطق ولا بد أن ننصاع ونأتي بمن لديه حلول، كنت أستمع إليها وجزء مني مبهور بها، وجزء آخر يشعر بالخوف، بأن كل ما حدث نقطة في بحر ملوث ما زلت لم أكتشفه بعد، مرت دقائق أنهينا فيها القهوة ونظرنا إلى بعضنا البعض، كلانا يريد دخول الغرفة، ولكننا نتمالك فضولنا ريثما يأتي الإنقاذ الذي طلبناه و..سمعنا صوتًا أصابنا بالخرس أكثر مما كنا.. كان صوت قرع جرس حديدي كبير، صوتًا لم أسمعه إلا في الأفلام التاريخية القديمة، صوتًا جلل له طنين يطن في القلوب والأجساد قبل أن يطن في أُذنيك، وقفنا نجري خارج المنزل حسبناه زلزالًا، وجريت ميادة إلى شقتهم تطمئن على أمها، وعادت بعد دقيقة، قالت إن أمها لم تسمع أو تشعر بشيء؟ حتى أنا نظرت من نافذة غرفتي لم أر أي شيء غير عادي في الشارع، كل من الأناس في حالهم، لو أن أحدهم شعر بشيء للاحظناه، عادت ميادة وهي خائفة قليلًا ووجهها كان مضطربًا، كنت أشعر بما تريد فعله، فأنا أيضًا أود ذلك، لو أني أهرب من هذا المكان، كان دافع بقائها كرمًا منها، أما دافع بقائي أنا كان واجبًا حتميًّا.

مرت ساعة كاملة ونحن جالسان لا نقول سوى بضع كلمات ما إن تنتهي حتى يصمت كلانا، حقًّا ما الذي يمكن قوله؟

دق جرس هاتفها، كان الشيخ معتز قد أتى ويسأل عن المكان بدقة، صعد في المصعد إلى الدور ووجد باب الشقة مفتوحًا، ولكنه دق الجرس فقلت له: تفضل، وأنا أنهض من فوق الأريكة، هيئته صدمتني قليلًا، توقعته شيخًا كبيرًا

له لحية بيضاء، ويرتدي جلبابًا أزهريًّا وله وقار من سيخرج العفاريت من مترلي ويعيد أخي لي، لكني وجدته شابًّا في مثل عمري تقريبًا، يرتدي جيترًا وقميصًا وصديريًّا صوفيًّا ناعمًا خريفيًّا، كان أسمر وله عينان بنيتان، وجسد متوسط، صحيح أن مظهره يوحي بطيبة ما، ولكن هل يعرف هذا الشيخ الصغير الكاجوال كيف يحل لنا هذا اللغز؟ داريت استغرابي قليلًا ورحبت به، دخل إلى المترل أجلسته على الأريكة إلى جواري مقابلًا لميادة التي ذهبت تعدّ له شايًا كما اختار، وأخذت أروي له كل ما حدث بالتحديد ووصفت له كل ما حدث منذ أمس إلى اللحظة التي دق فيها جرس الباب، سمعني بإنصات وتركيز، أتت ميادة بكوب الشاي لم يعره انتباهًا هبَّ واقفًا، وطلب مني أن أريه الغرفة، أشرت له على الباب فتحه وقبل أن يخطو بالداخل، انحنى جسده على الأرض يلتقط بعضًا من التراب الذي كان على حافة الغرفة، تلمسه بيده قليلًا ثم ارتجف، إن لم أكن يخيل إليَّ، دخل إلى الغرفة نظر إلى النقش الذي على الحائط الذي ما إن رأيته أنا وميادة حتى ارتعب كلانا!

***

ما إن يدخل وجدي الخيشي إلى جراج العمارة التي يقطن بها هو وعائلته، يقول لنفسه شيئًا واحد، لا بد لي أن أفصل بين العمل والمترل، رباه لو عاد بكل ما يرى يوميًّا إلى المترل، سيحيل هذا حياته إلى جحيم، كان يقطن بشقة مع أمه، وأسفلهما بدورٍ كانت شقة أخته، سُمية، كان يجهز شفتيه على الابتسام، لأنه يعلم جيدًا من ينتظره على الدرج كل ليلة، فتح ذراعيه على آخرهما وهو يثني ركبتيه قليلًا، وضمه سريعًا الحضن الذي ينتظره كل ليلة، الحضن الدافئ الذي يحمل حبًّا غير مشروط، هكذا هم، يعشقون بقلوب لا

تعرف الضغينة، حمل وجدي ابن أخته، ناجيًا، أو جوجي كما يحب أن يُطلق عليه، كان طفلًا جميلًا، أبيض ذا ملامح دقيقة، أملس الشعر الكثيف، ولديه عينان سوداهما كالليل، ناجي، يشبه أمه كثيرًا. إن وجدي، أسمر خشن الملامح كأبيه، لكن أخته سمية تشبه والدتها كثيرًا، ناجي، لم يكن اسمه مصادفة على اسم جده وحسب، لكنه كان الناجي الوحيد من أجنة سقطوا واحدًا تلو الآخر قبله بسنوات من رحم أمه، لهذا يعشقه كل أهل المنزل، ربما لأن وجدي ليس لديه أسرة بعد، فكان متعلقًا بناجي كثيرًا، وناجي لأن والده يعمل بالخارج كان وجدي له هو الأب الذي ينتظر عودته بلهفة على الدرج كل مساء، كان وجدي يحتاج إلى هذا الحنان في حياته الصلبة، المليئة بكل خطايا البشر، صعد حاملًا ناجيًا إلى سمية، تحادث معها قليلًا وقبّلها هي وناجي ثم صعد إلى أمه، تناول العشاء سريعًا ثم اختلى بنفسه في غرفته، يراجع اليوم بكل أحداثه وتفاصيله، في ماذا أخطأ وماذا كان يجب أن يفعل إن لم يفعل كذا وكذا، لكن هذا اليوم أتت عليه حادثة جديدة، قصيرة، ممتلئة، تناقش كالرجال ولديها نظرة كالأطفال، تراقب كل شيء بلهفة، كانت حادثة تُدعى، ندى عز الدين.

***

(5)

دخلنا الغرفة، أنا وميادة ويتقدمنا الشيخ معتز، نظرنا إلى الحائط برجفة، لقد وجدنا الحائط مشتعلًا ثم انطفأ فجأة وكُتب عليه كلام، بتلك اللغة الغريبة، كانت نفس الكلمة ولكن معها نقوشًا أخرى!

قابلنا تلك النقوش بشهقة من ميادة، وضعت فيها يدها على فمها لتمنع نفسها من الصراخ أو أي رد فعل أنثوي، أما أنا كان هذا الحريق في قلبي لا في الحائط؟!، رباه ماذا حدث لأخي؟ أسرعت إلى الصالة وعدت إلى الغرفة محضرًا لميادة الأوراق التي تدون فيها النقوش لتترجمها، كل هذا والشيخ معتز يتفحص الغرفة بهدوء وفضول كأنه محقق في الـــ "إف بي أي"، وتفحص النافذة الذي لم يعد فيها أثر لنافذة وطلب مني أكياسًا صغيرة من المطبخ وملعقة؟ هل سيقوم بتقديم طبق اليوم الآن؟ ذهبت وناولته أكياسًا من الشفافة الخاصة بالشطائر وملعقة، أخذهما وكتب ورقة صغيرة على كل كيس وضعها داخله ثم أخذ بالملعقة حفنة من التراب الذي تحت النافذة وضعها بكيس وأخذ حفنة من التراب الذي بالغرفة وضعه بكيس آخر وأخذ أخرى من فوق باب الغرفة، هنا لاحظت الشيء الذي لاحظه هو! كيف أن كل التراب له لون

وسُمك مختلفة! بعضه يميل إلى البياض لؤلئي والآخر يميل إلى لون تدرج الأصفر كأنه من الصحراء، وما كان على باب الغرفة كان لونه يميل إلى الأسود قليلًا، ولكني لم ألحظ شيئًا من ذلك إلا عندما وضع الأكياس بعضها إلى جوار بعض، كانت ميادة ما زالت تضع كل حرف مقابل كل نقش نقلته من فوق الحائط بغرفة أخي، كل هذا بالطبع إذا كانت تلك تفسير النقوش صحيحًا، لا أننا نتخبط هنا وهناك، ولكن ما باليد أي حيلة نحن بانتظار ما يأتي آملين ألا ينتهي اليوم إلا وقد وجدنا لأخي كارم أي أثر!

بعد نصف ساعة انتهت ميادة وقالت لنا: لقد ترجمتها، ولكن؟! قلت لها: قولي يا ميادة من فضلك أكيد وجدتِ كلمات غريبة، لكن قوليها يمكن للشيخ معتز، ونظرت له، يمكن أن يقدر يفسرها لنا، بادلني النظر غائرًا بعينيه فيما معناه حسنًا يا أحمق تستخف بي، سترى الآن، ميادة الجملة تقول..

إذا وجدت تسردونت نيسمضال "بغلة القبور" تجد أخاك.

نظرت إلى الشيخ علّه يعرف أي شيء، فسكت وذهب يجلس إلى الأريكة، كان هدوؤه يدعو إلى الشك وإلى الطمأنينة في ذات الوقت، الشك في أنه لا يعلم شيئًا ويجلس بهدوء الحمقى، أو أنه يعلم كل شيء؛ ولهذا هو جالس في هدوء الأذكياء، وإلى هذا الحد لم أكن أدري حينها أي منهما هو.

طلب منا إعادة كل شيء مرة أخرى!

إعادة القصة بتفاصيلها كلها مرة أخرى؟ حقًّا؟ كنت أحسبك ستدخل إلى الغرفة تعرف ما حدث وتنتهي المشكلة، إن كان ما حل بنا هم عفاريت ولا يصرفهم سوى الدين؟

قرأ هو ما كان يدور في ذهني، ما إن انتهيت من إعادة القصة كاملة عليه وهو يدونها في مذكرة معه كأنه شرطي لا شيخ، بعد أن كتب ما حدث إلى اللحظة التي يجلس فيها هو معنا قال لي: أنا أعلم ما تفكر فيه، أنت تظن أن الموضوع بسيط، وأني أول ما سأقرأ آية الكرسي الموضوع سينتهي، انتبهت له، فلأول مرة يتحدث بما أريد سماعه منذ أن دخل إلى البيت، وأكمل كلامه، القرآن أو الدين عامة سواء كنت شيخًا أو قسيسًا أو أي عالم درس دين الله وعنده علم، لا بد أن يعرف أولًا، مع ماذا ومع من يتعامل، حتى يعرف كيف يتعامل معه، الجن ليسوا مجرد عفاريت تقرأ عليها بعض الأذكار فتختفي وانتهى الأمر، هذا لو اعتبرنا أن كل الأشياء التي تحدث ونحن لا نرى من الذي يفعلها أو غير قادرين على أن نفسرها، أن جنًّا دائمًا وراءها، وأن الجن هؤلاء ليسوا غير عفاريت نصف الليل التي ستظهر وتقول لك من خلف أذنيك بصوت هامس: "بِخ"، هنا ابتسمت نصف ابتسامة وأكمل، الموضوع أكبر من هذا، أكبر جدا يا سليم، أنا لا بد لي أن أعرف أولًا مع من أتعامل، مع أي مخلوق من مخلوقات الله حتى أعرف كيف أتعامل معه، نعم كل الذي يحدث هنا شيء غير طبيعي، هذا يعني ظاهرة مختلفة لا تحدث دائمًا حتى في الحالات التي تسمونها ما وراء الطبيعة، أستطيع أن أقول لك نعم إن هذا غالبًا من أفعال الجن، لأن كل الذي وصفته هذا بتفاصيله لا يحدث إلا في وجود وتدخل من عالم آخر، ولكن لا بد من عدم التسرع إلى أن نعرف هم أي نوع من الجن، هذه ليست أفعال الضعفاء أو خدم عاديين، السؤال أيضًا أخوك، كارم، لماذ هو بالتحديد؟ تلك الأحداث لا تحدث إلا عندما يكون هو تدخل في عالمهم تدخلًا خطرًا، إن هذا ليس اختيارًا عشوائيًّا، لا يمكن أن يكون فُزع

في دورة المياه أو سار في طريق مظلم ليلًا بجوار القمامة، إن هذا نوع من الانتقام، الانتقام غالبًا يكون من الفعل نفسه، هل أنت معى يا سليم؟

كنت أستمع إليه شارد الذهن قليلًا وبداخلي مشاعر مختلطة، أولها ألوم نفسي أني ظننت فيه الحماقة، كنت أحسبني عاقلًا، ولكن منطقه التحليلي كان أوضح مما ظننت، جزء مني حينها كان لديه أمل، لو أنه استمر بهذا المنطق لربما نتوصل إلى أخي.. يا رب.. كان كياني كله يدعو الله أن أرتاح من هذا الكابوس.

معي يا سليم؟

أجبته بنعم، تفضل أكمل، فقال : أخبرني عن حياة أخيك كارم، ماذا يفعل؟ وأين يذهب؟ وكيف يقضي يومه؟

***

(6)

كارم،

أخذت نفسا عميقا وبدأت أروي للشيخ معتز عن حياة أخي كارم، بدأتها كما طلب، منذ البداية، البداية تمامًا..

أخي كارم أكبر مني بعامين، كنا نعيش في بيت يبعد عن القاهرة حوالي ساعة أو ساعة ونصف، بيت يعتبر كبيرًا نسبيًّا، مكون من طابقين، كان على أطراف البلدة، مكثنا فيه إلى أن توفي والدي، قُتل، هكذا قيل لنا بعد اختفائه ووجدنا بعضًا من ملابسه على أطراف البلدة ملوثة بالدماء، تركنا بعدها البيت وانتقلنا إلى منزلنا هذا، هنا في القاهرة، لم تكن حياتنا غريبة سوى من تصرفات أمي، كانت أمي دائمًا غريبة جدًّا، أوقات تظل جالسة حزينة جدًّا، تنظر أمامها في صمت وخوف وهلع، وأوقات أخرى تظل سعيدة جدًّا، وعيناها ملؤهما فرحة، فرحة المنتصر الذي عاد لتوه من الحرب، المحارب المنتصر وجهه وجسده منهكان، مجهدان، لكن عينيه كُلهما رضا وفرحة، أيامنا مرت عادية لن أقول لك إن كان بها شيئًا غريبًا، إلى أن انتهى أخي كارم من الثانوية العامة، مجموعه أدخله كلية الطب البيطري، كان في البداية حانقًا،

مترعجًا أنه لم يؤهله مجموعه لدراسة الطب البشري، ولكن بعد فترة وجدناه يعشق كليته إلى حد كبير، كان يذاكر مع صديق له، لم نره من قبل، لم يشأ كارم أن يجعلني ألتقي به أبدًا، لكنه قال إنه يذهب معه إلى بيتنا القديم في البلدة ليستذكرا دروسهما، وكانت أمي فرحة أن ابنها اسمه الدكتور، الدكتور ذهب الدكتور أتى، لكن كانت طريقة تعاملها معه مختلفة قليلًا في الآونة الأخيرة، قلت في قرارة نفسي ربما لأن كونه ابنًا بكريًّا فلا بد أن يأخد اهتمامًا أكثر، ولكن الغريب أن هذا الاهتمام كان ممزوجًا بخوف، لا أعرف كيف أصفه لك، ولكن كنت أشعر دائمًا بنظرات أمي، كانت أمي أحيانًا تخاف من كارم، كنت أقرأ هذا في عينيها، وهي تكلمه بنظرة خوف غريبة، لم أحدد، أهذه نظرة خوف منه أم خوف عليه؟ هل لأن أبي مات تخشى عليه كثيرًا لأنه الابن الأكبر؟ ولو كان هذا خوفًا منه، فلماذا؟ عدا هذه اللحظات الغريبة حياتنا كانت عادية وكارم نفسه شخصية عادية، أحيانًا لطيف ودمه خفيف وساعات يجلس في صمت تام ولا يحب أن يقاطعه أحد أو يدخل عليه الغرفة بدون أن يطرق الباب أولًا، أخي يا شيخ معتز إنسان عادي جدًّا لماذا حدثت له كل هذه الأحداث الغريبة؟ ولماذا الانتقام؟ الانتقام الذي ذكرته أنت؟!

هنا صمت الشيخ معتز ونظر لي ثم نظر إلى أوراقه التي يدون فيها شيئًا، ثم قال ما كنت لتوي سأقوله وما كنت أفكر فيه حالًا، لا بد لنا أولًا أن نذهب إلى مترلنا القديم ونرى ما فعل أخي كي يستحق كل هذا العذاب الذي سمعته من خارج الغرفة، كان بيني وبين أخي وعذابه باب واحد، باب خشبي مغلق، ودقائق قليلة كانت كافية كي تجعلني عاجزًا وتجعله هو الآخر تحت رحمة ما رأى، ما رأى قبل أن يختفي بغرفته إلى حيث لا يعلم سوى الله عز وجل.

ندى،

عشرات الأوراق المبعثرة هنا وهناك، أقلام وجهاز كومبيوتر على يسار الطاولة، وعلى يمينها أكواب فارغة لقهوة وشاي وليمون ثم قهوة وقهوة وقهوة، كانت ندى تعمل ليلًا ونهارًا على تلك الحوادث، تتبعها تمامًا كالمحقق الشرطي، تجمع كل ورقة جنبًا إلى الأخرى، كان التحقيق الذي بين يديها يثير أعصابها، أن ترى كل ورقة بحادثة لاختفاء طفل ما، حسنًا، جميعهم ذكور، جميعهم في سن متقاربة، ملامحهم يجمع بينها الكثير، هناك شيء ما لا تفهمه، لماذا طفل أبيض ذو عينين سوداوين وشعر أسود أملس، كان هناك شيء علامة الأيدي التي تمشي في خط مستقيم بالكف، لكن هذا أغرب من أن يصدقه عقل، سبعة من الأطفال اختفوا حتى الآن، إن ال..جاءتها مكالمة فجأة، فانقطع حبل أفكارها، إنها تعرف النغمة جيدًا، فقد وضعتها خصيصى له، هل تعرف نغمة فيلم "الفك المفترس" حسنًا، إن لم تعرفه فابحث عنه، إنه يستحق أن يذكره التاريخ، كان هذا المتصل هو رئيس تحرير الجريدة، أخبرها أن تترك التحقيق الصحفي الخطير الذي تعمل عليه في منزلها وقال كلمة الخطير بسخرية ما، أخبرها من قبل ان هذا يحدث كثيرًا، هناك من يخطفون الأطفال ليتسولوا بهم، اذهبي سريعًا إلى مصر الجديدة في العنوان الذي سأرسله إليك في رسالة، هناك جريمة قتل وأريدك أن تحصلي على معلومات تستحق النشر، أغلق الهاتف في وجهها سريعًا وأرسل لها الرسالة بالعنوان، اتصلت بالمصور وأسرعت تهرول إلى مكان الحادث، لكن هناك رسالة وصلتها، قرأتها وهي في الطريق، فتحت عينيها وابتسمت، كانت تحمل عبارة "مساء الخير.. وجدي الخيشي".

(7)

كانت الساعة الخامسة قُبيل المغرب، كُنا قد أنهكنا من التعب، رأتني ميادة في حالة اللاوعي تلك، سمعتها لكني لم أنتبه إلا المرة الثانية أو الثالثة لا أذكر.. يا سليم، نظرت لها مستجيبًا للنداء، برئتين يفر منهما الهواء، كنت ألتقط الهواء وأتنفس بعمق كأني سُجنت وحُرمت تلك النسمات التي أحاول التقاطها وتعبئتها في رئتي، شيء ما يقف كغصة في حلقى كأني أريد بكاء لكني في ثوبي الرجولي أمام الجميع لا بد أن أتماسك، تذكرت توي شيئًا، لماذا رحلت أمي عن المنزل خصيصى في تلك الليلة؟ ولم تسأل عنا إلى الآن؟ لكني لم أجرؤ حتى أن أفكر في أن أطلبها، قلت في نفسي لعلها رحمة الله أنها لم تكن هنا ولم ترَ شيئًا، لعلها نسيتنا قليلًا ريثما يعود كل شيء كما كان، كانت جلستنا أنا وميادة أشبه باثنين محققين في الشرطة ينتظران تحليل المعمل الجنائي، وكان في المعمل عالم وحيد الشيخ معتز، رباه، كنت أمس في هذا الوقت أستمع إلى عبد الحليم في آخر النهار وأنا أفرٌ من عملي الذي أصبحت في تلك اللحظة أعشقه، كلا، لقد كنت مخطئًا حينما مللت حياتي الرتيبة، رباه كم أتمنى لو يعود كل شيء كما كان، أنا أريد سئم الحياة العادية مجددًا، لا أريد أي مغامرات في حياتي، كان جميلة حياتي الهادئة المملة؟ اللهم إني أسألك لطفًا فيما

هو آتٍ، أخيرا جاءتنا مكالمة الشيخ معتز، يخبر ميادة أنه سيمر علينا غدا صباحًا كي نذهب إلى البلدة في مترلنا لأن لديه أمورًا مهمة اليوم لا يستطيع تأجيلها إلى الغد، حسنًا، انتهى أمر اليوم إلى هذا الحد.

ذهبت ميادة إلى شقتهم، ومكثت أنا وحدي في شقتنا، شقتنا اللعينة التي فُتح عليها باب من جهنم لا نعلم لماذا؟ وضعت هاتفي على الطاولة الصغيرة بجوار باب الشقة تلك الطاولة التي يعلوها مرآة كبيرة ويحيطها من الجانبين كرسيان مذهبان صغيران غير مريحين على الإطلاق، لكن لا بد من وجود تلك المنظومة كاملة ركنة باب الشقة التي لا يجلس عليها أحد إلا فيما ندر، مشيت إلى غرفتي مارًّا بغرفة أخي، كما هي لا جديد، فكرت أن أتصل بعامل يصلح النافذة بالغرفة أو بمعنى أوضح يشتري نافذة للغرفة بعد أن أصبحت رمادًا كسيجارة احترقت مكانها في المطفأة، ثم قلت في نفسي: ممَّ سأخاف؟ هل هناك خوف أكثر مما أنا فيه وممّن؟ من اللصوص؟ مرحبًا بهم، ربما يُعفرهم التراب بالغرفة ليذهبوا حيث أخي ربما يعيدونه معهم، كان تفكيري يندرج تحت مسمى الكوميديا السوداء، دخلت غرفتي وارتميت على السرير مجهدًا منهكًا كأني كنت أسير حرب عاد سيرًا على قدميه في الصحراء، لم يكن هذا نومًا كان أشبه بالغيبوبة، لكني فجأة أحسست بشيء غريب، شعرت أني أحترق، كأني نمت في فرن وأنا الفرخة التي تدور في الشواية، عرق يتصبب من جسدي لحظة هذا ليس عرقًا! شيء ما يدغدغ كل جسدي، وقف شعر جسدي كله قشعريرة أصابتني، فتحت ببطء شديد جدًّا وحذر يناسب خطورة ما مررت به من أحداث لم أدرِ حينها هل أحمد الله أني تركت نور الغرفة مضاء أم أحمد الله أنه انطفأ فجأة كي لا أرى بعدها ما حدث في ضوء كامل!

ما رأيته قبل انطفاء نور الغرفة كان هو ما لمسته على جسدي فعليًّا، خنافس! مئات ومئات من الخنافس الحمراء الصغيرة تمشي على أعضاء جسدي مسببة دغدغة في أطرافي ورعبًا لا يوصف في مقلتي عيني قبل أن ينطفأ علينا نور الحياة، هل أحاول أن ألقيها من فوقي؟ بالطبع حاولت لكنها كانت وكأنها ملتصقة بغراء في شعر جسدي كله، قمت من فوق السرير محاولًا البحث عن زر النور لا يوجد له أثر على الحائط، وكأن الحائط أملس تمامًا، حتى الصور التي عليه والساعة المعلقة؟ لا شيء! أحاول البحث عن هاتفي لا وجود له، ثم شعرت بشيء بارد على ظهري، ما إن وقفت لحظة حتى سحبت يديّ إلى الخلف أتلمس ظهري بهدوء، فلم أجد ملمس جلدي، لكني وجدت ملمسًا مشابهًا لفراء القطة، قطة دافئة كبيرة جدًّا ملتصقة بظهري، كلا، لا يوجد شيء كهذا، حسنًا، في ثوان ركضت كالمجنون في الصالة، في المطبخ أحاول البحث عن أي نور أو سلاح أدافع به عن نفسي لم أجد؟ حاولت فتح باب الشقة، لم يكن هناك باب أصلًا! كأني في مكان دائري أدور حول نفسي إلى أن رأيت نورًا صغيرًا في المرآة أمامي، بجوار باب الشقة اقتربت أكثر فأكثر، وجدت الخنافس التي على هي التي تضيء!

اقتربت أكثر ثم تحركت ببطء أدير جسدي قليلًا لأرى في المرآة ماذا خلفي، ماذا على ظهري، فوجدت فراء، كأن ظهري تحول إلى ظهر قطة من أسفل قدميَّ إلى شعر رأسي، لكن ما إن رأيت ما رأيت حتى وجدت شيئًا في المرآة ينسلخ مني، كان ذلك الفراء ينسلخ من ظهري وكأني أُعذب في سجن في العصور الوسطى، كان ذاك الفراء يدمي جلدي وهو ينسلخ منه وكأني خروف سلخوه قبل ذبحه، حاولت كمجنون بائس أن أجعل الفراء يظل في

ظهري بدلًا من أن ينسلخ بتلك الوحشية، لكني وجدته أصبح مسننًا كأنه فراء قنفذ لا قط، وكان ساخنًا إلى حد لا يحتمل، ومليئًا بالخنافس، كان الصوت وحده وجلدي يتقطع كافيًا كي يجعل كل ما بداخلي يشمئز لم تتحمل معدتي أكثر وجدتني أُفرغ ما فيها جوار حائط المرآة، ولا يزال الفراء ينسلخ حتى وقع على الأرض بجواري وأنا انظر إليه في رعب وهو يلتف حول نفسه متجسدًا في شكل قطة، قطة كبيرة الحجم جدًّا سوداء بعينين خضراوين، شبيهة جدًّا بقطتي، لوجي،! هنا تذكرتها.

مياووو، مياووو،

فتحت عيني لأجد قطتي لوجي عينيها في عينيَّ، رميتها بعيدًا، ووقفت على السرير في رعب منها وهي على الأرض تدور حول نفسها وتموء كثيرًا.

أنا اسف يا لوجي حقًّا أنا سافل، وجهت لها عيني، أنقذتني من كابوس ألعن من أي كابوس رأيته في حياتي، وأنا نسيتك اليوم تمامًا، كانت تقف تنظر إلى ذهبت إلى المطبخ قدمت لها طعامًا وشرابًا، انهالت بنهم عليهم، نظرت لها وهي تلتهم طعامها، لا أدري هل أكون مبالغًا إذا خفت منها؟ أقنعت نفسي أن لوجي قطة محترمة لا علاقة لها بتلك التي في الكابوس، كانت الساعة العاشرة مساء، اغتسلت حتى أبدو إنسانًا في نظر نفسي، وارتديت قميصًا وجاكيت بدلة على بنطال أنيق، كنت أريد الاستعداد لما هو آت، سواء أفادني الشيخ معتز أم لا، أنا لن أعود اليوم بدون أخي حتى لو اضطررت إلى إحضار محضري الأرواح وطاردي العفاريت أو سأقدم بلاغًا إلى النيابة إذا كنت مجنونًا ليحبسوني، لكن أخي مفقود وسيبحثون عنه سواء كنت مريضًا أهذي بكلام أبله بالنسبة لهم أو كنت عاقلًا النتيجة واحدة، بلاغ عن شخص مفقود، كيف فُقد، حسنًا، تلك حكاية أخرى!

في مول تجاري شهير، على طاولة في مقهى أنيق، جلس وجدي ينتظر ندى، كان هذا لقاءهما الخامس، تأخرت عليه قليلًا، كان عجولًا في كل شيء، صبره ينفد سريعًا، لكنه مع النساء كان صبورًا، صبورًا إلى حد كبير، ربما كانت تلك الميزة التي أحبتها فيه ندى، بحياتها التي دائمًا تجري على قدم وساق مثل حياته تمامًا، لكنه كان يجعلها تشعر بالهدوء والسكينة إلى جواره، كان مديرًا رائعًا لبداية علاقتهما، إن العلاقة لا بد من يديرها، تبادل الإدارة فيها مباح، لكن أن يوجد من يدير مفاتيح العقل والقلب والروح والجسد والعمل والوقت الذي لا يرحم أحدًا، لا بد لهؤلاء جميعًا أن تحاول السيطرة عليهم، ستفشل قليلًا هذا طبيعي، ولكن إن تعدت نسبة النجاح حدًّا معقولًا، سيصير كل شيء على ما يرام، كان هذا ما يفكر به وجدي وهو جالس يتأمل كل شيء حوله بدقة بالغة، يقرأ عيون الآخرين، ودّ لو يقرأ نياتهم، لكن هذا يفوق قدرة البشر، أضاء هاتفه المحمول واتصل برقم ندى، فإذا به يسمع الرنين على أذنه الأخرى، كانت تقف خلفه مباشرة، أمسك يدها وهو يبتسم، جلست أمامه ولكن الاضطراب كان باديًا عليها قليلًا، بعد أن طلب لها عصيرًا من الليمون وفنجانًا من القهوة التي تحب أن تشربهما معًا رشفة من هنا ورشفة من الآخر، سألها عما يزعجها، ابتسمت له وقالت: دقائق وسأكون بخير، سأحاول أن أنسى منظر الجثة التي قُطعت وأُخرجت أحشاؤها إلى الخارج وأكلت منها القطط التي كانت بالمنزل الذي وقعت فيه الجريمة، الجريمة التي يعشقها رئيس التحرير بتفاصيلها الكاملة وتقززها المكتمل، وإلا فلن يكون له السبق في ريادة الحوادث، ابتسم لها وجدي قائلًا، بإمكانك دائمًا الانتقال إلى قسم آخر، نظر لها وهي تنظر له غائرة عينيها، مبتسمة، فضحك، كان يعلم

جيدًا شغفها بعملها، كان هذا سببًا آخر كي يعشقها، إنها تبدو لمن لا يعرفها جادة، حادة، لكن هو كان خبيرًا بالبشر، كان يعلم مثلها، ن تحت كل طبقة صلبة، أخرى هشة، ناعمة، حانية، لكن هناك من يفضل ألا يغدقها على القاصي والداني، هناك من يحتفظون بتلك الطبقات المليئة بالمشاعر لمن يشعرون فقط أنه يستحقها، كان وجدي هكذا، وندى أيضًا، أتى لكل منهما مكالمة من العمل، منهية هذا اللقاء الجميل، اتفقا أن يتحدثا ريثما ينهيان مهماتهما، وعلى وجه كل منهما ابتسامة، يحتاجها القلب من آن لآخر.

***

(8)

1209م

على أعتاب مدينة بيزييه الفرنسية، وقف جنود الملك يهللون، كان قائدهم يصرخ فيهم بصوت جهوري من فوق حصانه، قائلًا لهم: هؤلاء الذين بالداخل خلف تلك الحصون، هؤلاء المهرطقون، هؤلاء الساحرات نساؤهن والزنادقة رجالهم، خلف تلك الحصون يقبع لنا الغفران، هكذا قال البابا انسونت الثالث وهكذا أمرنا مليكنا فيليب الثاني أن نُطهر المدينة من كل هؤلاء المهرطقين، لنا فيها غنائم وأرض وغفران من الذنوب لعامين قادمين، هكذا قال لنا البابا، إن من يمت فيكم فهو مغفور له، هيا تقدموا، هيا، ألهبت كلماته الجنود الذين شرعوا بكل حماسة أن يدقوا الحصون كي يتسنى لهم دخول المدينة.

كان خلف القلاع جنود المدينة يحاولون صد الهجوم من المعتدين بالخارج، صمدوا كثيرًا، تعبوا كثيرًا، إنها مدينة، وهم جنودها، لكن خلف أسوار المدينة، خلف تلك القلاع، جنود دولة بأسرها، إلى أين المفر، كان الناس

فزعى، مرتعبين، لا يدرون إلى أين يفرون، إلى أين، إن مصيرهم الهلاك مهما حاولوا، لقد أمر الملك بهذا، وأمر البابا بهذا، إنهم هالكون، يرتشف كل منهم الرشفات الأخيرة من الماء الرشفات الأخيرة في حياته التي صدر قرار بإنهائها، كان الناس فزعى يعلمون أن لن ينجدهم أحد سوى كنيسة البلدة، لعلهم في دار العبادة يستحقون هم أيضًا الغُفران، كان الجنود على أبواب المدينة يلتقطون أنفاسهم الأخيرة، انهارت القلاع، ودخل جنود الملك إلى بيزييه، يقتلون كل جندي، كل امرأة، كل طفل، كل من تقع عليه أعينهم، الوحوش الضارية وحدها تفعل هذا، كانوا قطيعًا كاملًا من الوحوش، يمزقون بأسلحتهم أجساد أهل المدينة، عزلًا كانوا أم مسلحين، قال لهم القائد: لا فرق بينهم، كلهم مهرطقون، ساحرات ومهرطقون، سويعات مرت والخوف يحيط بكل حي لا يزال لديه لعنة الحياة في مدينة بيزييه الفرنسية، كان اختلاف مذاهب الدين بين الدولة وأهل المدينة خطرًا، لكنه ليس خطرًا كبيرًا، لم يكن هناك حشود ترتضي أن تأتى لتقتل أهل المدينة الفرنسية، كان الوعد بالغفران ليس كافيًا كي يتقدم الفرسان والنبلاء لشن الحملة التي يريد الملك فيليب القضاء بها على حكام مدن الجنوب بفرنسا، لكن البابا انسونت الثالث استطاع أن يقنع الجميع، النبلاء والفرسان وعدهم بالأرض والذهب، أما الأقل شأنًا الذين سيشاركونهم وعدهم بالغفران، إن الفقراء دائمًا في حاجة إلى الغفران المجاني، ليس بإمكانهم شراء صكوك الغفران من الكنيسة كالأثرياء، إنها الصفقة الرابحة، احتمى من تبقى من سكان المدينة بالكاتدرائية، لكن الأمر صدر، قال القائد للملك فيليب: لا بد أنهم عادوا إلى صوابهم الآن، لقد احتموا بالكنسية، لا بد أن المهرطقين والساحرات تابوا، لكن الملك فيليب قال لهم،

أخرجوهم، واقتلوهم جميعًا، سيعرف الرب من هم معه ويغفر لهم بعدها، الرب سيعرف أتباعه، اقتلوهم جميعًا.

أبادت الحملة عشرين ألف امرأة ورجل وطفل، لكن كان لا بد من رواية تُكمل ما بدؤوا وإلا فلن يصدق العامة، لماذا أُبيدت مدينة بيزييه دون غيرها؟ كان القرار بعدها باستئناف محاكم التفتيش، إن المدن التي تحوي مهرطقين وساحرات، كثيرة وسنقوم بتفتيشها جميعًا، يقول الرب في العهد القديم،

سفر الخروج 18 :22 "لا تدع ساحرة تعِش"

رسميًّا وبعد اثنين وعشرين عامًا، بأمر من البابا جرينوار التاسع، بدأت محاكم التفتيش تجتاح العالم.

***

(9)

1985م

وقفت عايدة تفكر كثيرًا، كان قلبها لم يعد يساع سوى ولديها، كارم وسليم، لا بد أن تعيش من أجلهما، لا بد أن تتمالك أعصابها تمامًا، لا أن تُجن كشأن النساء الضعيفات، المتخاذلات، التي كانت هي واحدة منهن لسنوات طوال، النساء اللاتي يعشن مع أزواجهن حفاظًا على المظهر العائلي، يرتضين بالذل والعنف والإهانة، النساء اللاتي تمضي أيامهن بقلة الحيلة والصمت والبكاء ليلًا في المطبخ بعد أن ينام الجميع وتنتهي من غسل الصحون ودموعها تُغرق وجنتيها كأنها قطرات من بركان ثائر، غاضب، من مقلتي عينين جميلتين، كانت عايدة أجمل نساء قريتها، بعينيها السوداوين الواسعتين، وشعرها الطويل الأسود اللامع كأنه ليلة مليئة بنجوم، ينساب على جسد لحورية جميلة، كانت هي نفسها كحُلم جميل، شهرزاد البلدة كما كانوا يُطلقون عليها، قبل أن تتحول إلى بائسة شريدة، قبل أن ينطفئ النور في وجهها، قبل أن تتزوج بدياب، كيف انتهى بها الأمر إلى أن تتحول إلى زوجة

مقهورة صامتة، يخونها زوجها مع الخادمات وسيداتهن، لقد فُني جمالها من الحزن والضرب والإهانة، من يصدق أن عايدة التي كان جمالها يتحاكى به أهل البلدة، تبكي ليلًا في مطبخ الدار وتنام من قهر قلبها بعد أن تشعر بوخز يمزق جسدها الذي أصبح هزيلًا لا يقتات سوى على الحزن، تمالكت نفسها ودبت في عينيها فجأة قوة لا تعلم من أين واتتها، لكنها الآن ليست باكية على شيء، لكنها الآن ليست فتاة رقيقة بسيطة، لكنها الآن لم تعد بريئة، الآن قد تغير كل شيء..

***

(10)

2013م

"أحبك، أحببتكِ منذ اللحظة الأولى، منذ أن التقت عيناي بعينيكِ، منذ أن احتلت رائحة عطركِ قطرات دمي، أحبك، سأُفنى من أجلك أن أردتِ، سأكون من أجلك رجلاً فريدًا، لا يهاب شيء، لا ضمير له، لا ماضي له، ليس خشية الموت وحدها هي التي جعلتني أفعل كل هذا، أنا لا أود الخلود من أجلي وحدي، بل أيضًا من أجل سنوات بلا نهاية أمضيها في عينيكِ الأخاذتين، أنت لا تعرفين العشق كما أعرفه، إن أناملكِ أحفظ عدد ثنايا الجلد فيهما، عندما تَمُرين بجواري أتشبث بذراعيَّ وأثنيهما عن جذبك إلى أحضاني، أنتِ نار تحرق فؤادي وجلدي وضميري وحياتي، نار أتت إليَّ، ولم أشأ أن أطفئها، أنت الحنين لي يكل شيء، وأنتِ، لا تعلمين شيئًا".

طوى كارم تلك الورقة التي جلس يكتبها، طواها سريعًا في جيب الجاكيت الذي يرتديه، عندما قالت له ليديا إن الوقت قد حان الآن ولا وقت لما يفعله، أغلق الشقة خلفه، وهو يتحسس الورقة بجوار قلبه، لعلها تطفئ الحريق الذي أشعلته، أو لربما يزيد، لكنه كان عازمًا على أن يطفئه، وإلى الأبد.

(11)

سليم،

هممت بالخروج من المنزل لكني تو أن فتحت باب الشقة وجدت الشيخ معتز وميادة كانا واقفين أمام الباب، دعوتهما إلى الدخول، جلست ميادة لكن الشيخ معتز ظل واقفًا، وقال لي: أين المطبخ؟ تعجبت لكن أشرت إليه من هنا! دخل ودخلت معه ماذا سيفعل في مطبخ داري سيحضر عفريتين أم أنه يحتاج إلى فنجان قهوة؟ وجدته يطلب ماء وأي آنية من الفخار، سألته بلغة السخرية، ألا يجوز الزجاج فيما تريد فعله؟ فقال لي وقد أحس بالسخرية داخلي، لا، لا يجوز يا سليم، وأرجوك تعامل مع الموقف بالجدية المطلوبة حتى لو لم تفهم الآن ستفهم لاحقًا.

خرج من المطبخ الشيخ معتز وأنا خلفه، كان يحمل صينية عليها طبق فخار وملعقة خشبية وزجاجة لا أدري ما بها، وضعهما على الطاولة وأخرج من جيبه أكياسًا، أكياس التُراب التي أخذها من غرفة أخي، وضعها أمامه وبالملعقة الخشب أخذ من كل كيس ملئ حفنة ووضع الخليط في الطبق الفخار وأنا أتابعه بانبهار، ها هي، وصفة الشيخ معتز السحرية لإحضار العفريت ابن

الجنية، تمالكت أعصابي وهو يضع كل شيء بمنتهى البطيء وكأنه في فيلم الطريق إلى إيلات، وإذا أخطأ سينفجر إصبع العسلية في وجهنا جميعًا، خلط التراب ببعضه بهدوء شديد وفك غطاء الزجاجة كان نوعًا من الزيوت أشبه بزيت اللوز، وضع قطرات بسيطة ومزج الخليط، ثم قطرات ومزج الخليط، وقبل أن أثني على تعليم أمه له في تقليب خليط الكيكة بحرفية شديدة ناولني الطبق وقال لي: تذكر اتفاقنا؟ قلت له وأنا أنظر بدقة إلى الطبق الفخار، أي اتفاق؟ قال معتز: اتفقنا على أنك حتى لو لم تفهم ستفعل ما أقول وستظل معي لآخر الطري: أنا أطلب منك الآن أن تأكل من هذا الخليط ثلاث ملاعق، قلت له: إني لو أكلت منه ثلاث ملاعق سيكون فعلًا آخر الطريق، واتهمته بأنه يريد تسميمي، قال لي: لا تخف أبدًا وببساطة لو أني لا أخشى عليك فسأخشى على نفسي لن أجلب على نفسي مصيبة وأسمك وأدخل السجن، قلت له: حسنًا لماذا لا تأكل أنت أولًا منه؟ قال لي: أنا لا أحتاج له، أنت من تحتاجه الآن، لا أستطيع أخبارك ما هو إلا بعد أن تطيع، الطاعة أولًا كي يقدموا لنا مثلها، نظرت إلى ميادة، فقال لي: ولا ميادة محتاجة إليه، نظرت لي ميادة وقالت لي: سليم اسمع كلام الشيخ معتز، دقائق جلست أفكر، لا أدري لكني فعلًا وجدتني أوافق، أخذت الطبق وبدأت في أكل أول ملعقة فعلت مثل ما كنت أفعل، وأنا صغير عندما أبلع الدواء المر، أخذت بسرعة مرة واحدة الثلاث ملاعق متتالية، حتى لا أشعر بمذاقهم، بدأت أبحث عن مياه، منعني الشيخ معتز وقال لي: كلا، لن تشرب أي ماء الآن، أريدك أن تجلس في رُكن مُظلم في أي مكان بالشقة لمدة ساعة، ثم ستعرف ماذا أكلت ولماذا، ادخل في غرفة أخرى وأنا وميادة سننتظرك هنا، وقفت وأنا أشعر أني أموت حرفيًّا،

جسدي كله أصبح كتلة أجرُّها على الأرض، لا أستطيع السير، وصلت لغرفة السفرة وأغلقت بابها، أطفأت النور و أسندت على الحائط، نزلت بظهري إلى أن وصلت للأرض، جلست وبدأت أستغفر الله لينجدني مما أنا فيه، كان لساني في البداية ثقيلًا، بعدها بدأ يكون أثقل وأثقل، ملت بجسدي على الأرض، وبدأت أنام، في هذه اللحظة وجدت يدًا فوق وجهي تتملس خدي بهدوء وتمسح على شعر رأسي، كانت أنفاسا حارة وقريبة، فتحت عيني بهدوء وأخرجت الموبايل من جيبي فتحت الكشاف بسرعة، لم أجد شيئًا، قمت من مكاني فتحت نور الغرفة وأنا ألهث، لم أجد أمامي شيئًا، لكني ما إن استدرت حتى وجدته أمامي، حاولت الصراخ لكن صوتي لم يستطع الخروج من حنجرتي الآن، حتى أن فكرة الهروب جاءتني متأخرة قليلًا، لقد انطفأ النور مرة أخرى.

***

(12)

1985م

عادت عايدة إلى ابنيها، كارم وسليم، كانا يقفان عند باب المنزل في انتظارها، طفلين صغيرين مذعورين، قاما من نومهما لم يجدا أحدًا إلى جوارهم، فتشوا المنزل بطابقيه الاثنين ولم يجدا لا أمًّا ولا أبًا، لا أحد، كل ما خطر لهما فعله هو الوقوف على عتبة المنزل، في انتظار أن يأتي أحدهما أو كلاهما، تسلل لهما الشعور بالضياع وافتقاد الطمأنينة، لم يأتِ لهما أحدًا، مرت ساعات كان القمر نوره خافت تلك الليلة بسبب السُّحب، كانت السُّحب تنقشع قليلًا فيظهر نور جميل يُطلان عليه في السماء، وتارة أخرى تغطيه السحب فيظهر قمرًا مرعبًا، مظلمًا، لم يدريا كم مر من الوقت وهم في انتظار، جلسا قليلًا بعد ما تعبا من الوقوف، ثم فجأة قاما من مكانيهما عندما لمحا عايدة آتية، كانت متسخة المنظر، ثيابها تحمل طينًا ويداها حمراوان وأظفارها متسخة، كانت كأنها غاصت في بحر من الطين وعادت إليهم، لم تفتح فمها بالكلام، لكنها احتضنتهم، كل منهما في ذراع ثم التفتت وهي تمسك كل طفل في يد، حوطتهم بذراعيها وهي تنظر إلى السماء، باضطراب، في تلك اللحظة كان

القمر مظلمًا، لكنه بدأ شيئًا فشيئًا تنقشع السحب من حوله وتختفي وظهر قمرًا منيرًا، كانت تنظر له طويلًا، طويلًا جدًّا، كأنها تحادثه محادثة سرية بلغة العيون، ظلت عيناها معلقتين بالسماء وبالقمر إلى أن انسابت منها دموع، لم تكفف دموعها، جفت الدموع على وجنتيها بفعل الهواء البارد محدثةً آثارًا مخيفة على هذا الوجه الملوث بالطين والعينان الحمراوان فيهما نظرات متناقضة، تارة نظرة غضب، ثم نظرة رضا، ثم نظرة.. نظرة راحة الانتصار.. كأنها محارب توه عاد من المعركة، مجهد، متعب، لكنه منتصر، قلبه بين نار الحرب وبين ثلج الانتصار، بين هول ما رأى لأجل النصر وبين تنهيدة الراحة، دخلت عايدة إلى المترل ومعها ولديها، قامت بالاغتسال بعد أن نظفتهم من آثار الطين بفعل احتضانهم لها، غسلت ثيابهم جميعًا، واغتسلت هي جيدًا، نيمتهم، ثم نامت جوارهم في هدوء.

***

(13)

2013م

سليم،

كنت أخشى القيام بأي حركة مفاجأة، فأنا لا أعلم ردة فعل الكائن الذي أمامي، لكنها معجزة دعوتها لله سرًّا أن تكون وكانت، فتح الباب علينا الشيخ معتز وقال له: أرجوك تمهل هو أول مرة يرى ما نرى، هنا نظرت للشيخ معتز وقلت له، ماذا؟ ما هذا بالضبط؟ هل هذا عفريت؟ أنا الآن أرى عفريتًا، قال لي الكائن الغريب بصوت رزين: أنا لست عفريتًا يا هذا، لكني لست إنسيًّا إذا كان هذا ما تعنيه!

حسنًا أنا لست خبيرًا بأمور اللاماورائيات لكن أن أرى هذا الشيء أمامي هو شيء غير طبيعي، أنا أكيد في كابوس، ستوقظني لوجي بعد قليل نعم، ارتجفت وأنا أبتعد، نظرت له مرة أخرى بعد أن لم اهدأ قليلًا ولا كثيرًا، أنا ما زالت كما أنا مرتعب قلبي ومجهد جسدي، ولكن نظرت له نظرة المضطر أن يرى، هو أكبر من حجمي، طوله مترين تقريبًا عريض قليلًا له شعر كثيف

قصير كأنه إنسان مُشعر، وله وجه طويل لا شيء يفصله عن عالمنا سوى عينيه، كانتا زرقاوين، كلها زرقاء عدا حدقة عينه كان بها وميض يظهر ثواني ويختفي، وميض أحمر كأنه جهاز ليزر،شيء أشبه بوحوش أفلام الخيال العلمي، ما تعجبته ليس فقط وجود هذا الكائن ولا هدوء الشيخ معتز لكن ما أثار فزعي هو هدوء ميادة؟!

أليست فتاة؟ تفزع أو تصرخ أو تلقي نفسها من الطابق السابع حينما ترى هذا؟ لكنها دخلت هادئة تنظر إليه كأنها تسلم عليه بعينيها وهز رأسه في هدوء وأناقة تحية لها وللشيخ معتز وجلس على كرسي من كراسي السفرة كأنه من أفراد المترل بلا أي تكليف، تراجعت إلى الوراء حتى التصق ظهري بالحائط وسألتهم أجمعين، ما الذي يريدونه مني؟ وإذا كانوا في استطاعتهم أن يروا هذا الكائن، لماذا جعلوني أنا أيضًا أراه؟ أليس بكافٍ أن يسأله أحدنا عن أي شيء نريد هل لا بد ان نكون جمعاء في هذه المقابلة مع الكائن الذي لا أعلم ماذا أسميه إذا كان يرفض بهيئته أن يسمى عفريتًا!

وكأننا في اجتماع عمومي في الشركة سحب الشيخ معتز كرسيًّا وجلس وفعلت ميادة مثله وأشاروا لي بالجلوس على المائدة المستطيلة مع سيادة الكائن الذي للحظة كنت أحسبه سيوزع أقلامًا جافة وأوراقًا ليحدد ماذا سنفعل في جدول الأسبوع القادم؟ جلست، بعيدًا عنهم كانوا يجلسون جوار بعضهم وعلى رأس المائدة سيادة الكائن وعلى طرف رأس المائدة من الجهة المقابلة جلست أنا، قال لي الشيخ معتز وهو ينظر نحوي، بعد أن نظر مومئًا برأسه إلى الكائن الذي رد الإيماءة، أي سمح له، سليم أنا أريدك أن تلغي أي منطق حاليًا ما تراه الآن ليس عفريتًا، نعم هو من الجن، لكن لن يؤذيك، لو كان يريد أن

يؤذيك لكان فعلها منذ زمن لأنه تقريبًا يعيش معك في البيت منذ اختفاء كارم، لكنك لم تكن تراه!! أنا رأيته من أول مرة دخلت فيها إلى المنزل لكنك لم تكن لتصدقني أو تصدق ما سمعته منه إلا إذا رأيته بنفسك، كان من الممكن أن تعتقد أني نصاب أو دجال، ولكن ليس هذا كل شيء، أن المادة التي أكلتها كي تراه هي من روح جن احترق بغرفة أخيك، نادرة أن تجدها، ولكن هذه الخلطة إحدى طرق رفع الحجاب الفاصل في عين الإنسان، الحجاب الفاصل بين رؤية الأنس والجن ولكنها ليست بقوة خلطات أخرى، هذه تتيح لك أن ترى من هم منوطون بك فقط، لقد فعلتها قبلك بسنوات وفعلتها ميادة بالأمس، استمع جيدًا لما سيقوله ما تسميه الكائن وعلى فكرة يا سليم هو اسمه "ظيام"، سيروى لك ما حدث لأخيك، ولكن لا بد أن نذهب إلى بيتكم القديم أولًا والآن.

***

(14)

1986م

كانت اللافتة الموضوعة على بُعد أمتار واضحة جلية حتى لا يتوه الغريب الباحث عنهم، لافتة مكتوب عليها "منزل عائلة دياب غنيم كارم "، على الرغم من أنها في الأصل أرض مملوكة لعايدة، ورثتها عن أبيها، أرض كبيرة جدًّا لكن الاسم الذي وضع عليها كان اسم زوجها ولقب عائلته، عائلة غنيم كارم، ليسوا بميني القدر، لكنها أتت بأمهر محامي القاهرة كي يتولى كل شيء، بلاغ في النيابة عن اختفاء زوجها دياب غنيم، لن ترث عائلته شيئًا إلا بعد سنوات إذا لم يعد ووضع ضمن المفقودين وحتى حينها ربما تم أبناؤها سنًّا قانونيًّا لن يكون أحدهم وصيًّا عليهم، أخبرها المحامي أن تلك الأمور تأخذ سنوات وسنوات، لكنها لم تكترث بأمر المال، لم يكن يعنيها في شيء، كان لديها أكثر بكثير مما كان لدى زوجها، كان استحواذه على المال صوريًّا، لكن الأصول كانت باسمها، لم تكن متهاونة إلى الحد الذي تطيعه فيه في أمر المال مهما بلغ به حد العذاب والتنكيل بها، كانت دائمًا تعلم أنه لو أخذ كل شيء، سيتركها وحيدة فقيرة، فكرت أنه قد يقتلها يومًا، لكنها لم تكترث، تموت

بجوار أبنائها معززة، خيرًا من أن تموت مُلقاة جوار رصيف بارد، جلست في المنزل ثلاثة أشهر، ثم حزمت حقائبها، باعت جزءاً من أرض لها في البلدة المجاورة، ثم أخذت طفليها، بعد أن طلبت من المحامي شراء شقتين متقابلتين في مكان مناسب بالقاهرة، في الطريق، بعد أن ناموا، كارم وبعده سليم، جلست تتابع الدنيا من نافذة السيارة، تنظر إلى المارّة والزرع الأخضر الذي لم يعد لونه يبهج قلبها كما كانت صغيرة، كانت تلقي نظرة طويلة، لأنها عزمت ألا تعود إلى هذه البلدة، إلى الأبد.

***

(15)

2013م

لم تكن لديَّ أي أعصاب لقيادة السيارة، خاصة في وجود ظيام العضو الجديد بالعائلة، أليس أسهل لو انتقل عبر الأثير كما في الحكايات الخيالية؟ ما الذي يجعله يجلس بالخلف إلى جوار ميادة التي ليست خائفة منه إلى الحد الذي جعلني أنا شخصيًّا أخاف منها هي، تولى الشيخ معتز القيادة، سنوات لم أذهب إلى هذا المترل، ربما أمي نفس الشيء، وحده كارم كان شبه مقيم هناك، لم يكن الطريق طويلًا، وما جعله أقصر هو اختلاسي بين الحين والآخر نظرات إلى ظيام الذي لا ولن أعتاد وجوده في عالمى المادي الطبيعي العادي، كان يتجاهل نظراتي الطفولية المتعجبة، كأنه يقول في قرارة نفسه كفى يا بني يا حبيبي انظر أمامك، كان الليل يحتضن المشهد بظلام ونور خافت لقمر استحى أن يظهر كي ينير لنا تلك الأجواء المرعبة، لكنه شيئًا فشيئًا بدأ في الظهور، رائحة المكان ذكرتني بطفولتي، ظللنا نقترب ونقترب حتى دخلت السيارة إلى الفناء أمام الدار، كما هو، مترل ذو طابقين، وسلم معدني صغير على عتبة بابه،

وأرض شاسعة لا يوجد بها أي مخلوقات، أقله مخلوقات يمكنني رؤيتها، هذا ما يجب قوله بعد أن رأيت ظيام، ترجلنا من السيارة ووقفنا خارج المنزل، التفت لي معتز قائلًا سليم أنا خائف من الذي ستراه بالداخل، نظرت له وقبل أن أقول له كيف عرفت ما بالداخل، نظر لي سريعًا ثم قال أنا عرفت لأن ظيام حكي لي، لكن أنا أريدك أنت أن تكون ثابتًا وواعيًا لكل شيء، قبل أن نخطو أريدك ألا تكره أخاك، لا تنصدم في كارم يا سليم، مهما بلغ الأمر، اسمع من ظيام الحكاية من أولها حتى تقدر أن تساعدنا وتساعد كارم، استعذتُ بالله ودعيت ربنا أن ينجينا وينجى كارمًا من أي شيء يصيبه أو فعله، وأدرت المفتاح في ثقب الباب..دخلنا، كانت الدنيا ظلامًا وحاولت أن أتذكر أين زر النور، أنرت المكان ثم صرخت.. ثم صرخت ميادة تبعتها شهقات منها ومني متبوعة بلا حول ولا قوة إلا بالله، من الشيخ معتز.

***

(16)

كان البحث عن أي مكان افرغ فيه كل ما في جوفي منذ أن ولدتني أمي دربًا من المستحيل، كنت أريد تقيؤ معدتي نفسها إن أمكن، وقعت مني سلسلة مفاتيح المترل على الأرض من هول الصدمة، تراجعت خطوة إلى الوراء كي أرى المشهد كله، جثة لطفل صغير، مشنوق، مقطوع الأيدي، وتم إفراغ رأسه من العيون، جثة عارية صغيرة مخيطة الجلد كأنه تعرض لجراحة بالغة في سائر جسده الذي شبه محنط، ثم وعلى مقربة منه، أكثر من خمسين قطًّا معلقين ومنسدلين من السقف بحبال، مربوطة أرجلهم بأربطة صغيرة قوية من الجلد، المصيبة ليست في هذا المصيبة أن أكثرهم أحياء؟! كنت أرى أنهم يحاولون التحرك بحركة نفض الجسد لأعلى وأسفل، اقتربت من أحدهم وجدته منزوع العينين ومكانهما مخيط بدقة، وفمه أيضًا مخيط بدقة، كان هناك على طاولة مستطيلة معقمة، أدوات جراحة، مشارط، خيط، كل ما يلزم لفتح عيادة كاملة، ولكن أي عيادة يتم فيها نزع أحشاء الحيوانات، ثم خياطة الحيوان مرة أخرى؟ وجدت على الطاولة بعض القطط تم نزع أحشائها، وهناك من تم شنقه بأحشائه، وآخر بجواره، قط معلق، تحته طبق يتم فيه جمع ما ينسال منه

من دماء، كان يصفي من دمائه قطرة قطرة، أنا أريد نزع قلبي الآن كي لا أشعر بتلك النبضات الأليمة من أهوال ما أرى، صرخت، أي كافر يمكنه فعل ذلك؟ كارم.. قالها معتز وهو ينظر لي نظرة بها إشفاق، كارم هو من فعل كل هذا يا سليم، حاولت أن أفك قيد أحد القطط فأخبرني ظيام ألا أفعل، فليس هذا الحل الآن لأني لا أعلم بعد ما تحوي تلك القطط ولا الطريقة التي يجب أن أتعامل معها بها، أسرعت إلى كل الغرف أفتش فيها، علِّي أجد أخي كي أوسعه ضربًا وركلًا إلى أن يغمى على كلينا، لكني لم أجده في أي غرفة، لكني وجدت في الغرفة الأخيرة ما لم أتوقع أن أراه كانت الغرفة خالية تمامًا من أي شيء سوى، يد، كف صغيرة، ملقاة على الأرض كأنها لطفل في السابعة، كفا أصابها تعفن، نُزعت من جسد طفل بعناية ومهارة، نزلت إلى أسفل أخبرهم قالوا لي: اصبر، ستعرف كل شيء، اترك ظيام يروي لك الحكاية من أولها ثم سأريك ما قال لي عنه ظيام، سأريك ما يؤكد لك كل حرف سيقوله لك، ولكن تذكر جيدًا، أنت الآن تسمع حكاية لشخص فعل ما سيروَى لك، هذا الشخص الآن ليس أخاك، تخيل أنك تسمع عن غريب وأفعاله كي تتخذ موقفًا صحيحًا في النهاية، ثم نظر إلى ظيام وقال له يمكنك البدء الآن، كانت عيناي على اتساعهما، حقًّا، ما الذي ستخبرني إياه يمكن أن يكون أبشع أو أقذر مما رأيت اليوم؟ تريدون مني موقفًا حياديًّا تجاه أخي! نعم سيكون موقفا حياديًّا للغاية هذا إذا استطعت أن أستوعب كل شيء في النهاية، بعد كل تلك الأحداث التي ظننت أنها ستكون الأبشع، إلى أن فتح ظيام فمه وتكلم!

***

هذه المرة، وصلت ندى قبل وجدي، أسرعت لحجز تذكرتا السينما خوفًا من ألا يجدا مكانا جيدًا، لحسن حظها وجدت آخر كرسين، التفت وراءها وجدته، وجدي، أسرعا يلملمان الفشار والمشروبات سريعًا قبل أن يبدأ الفيلم، كانا يجلسان يتابعان بشغف، ندى تتابع الفيلم الذي كان يتحدث عن ساحرات العصور الوسطى ومحاكم التفتيش ووجدي كان يتابع بشغف ندى وهي تتابع الفيلم، لم يكن من عاشقي أفلام الرعب مثلها لكنه كان يعشق أن يراها مستمتعة كالأطفال بكل شيء، أنهيا الفيلم وخرجا يقفان بالخارج يتشاوران أي مقهى سيجلسان فيه قليلًا، لكن الصرخة التي أتت من خلفهما نزعت كل لحظة رومانسية، كانت امرأة تصرخ كثيرًا، مناديًا على اسم أحدهم، لقد اختفى طفلها في أثناء الزحام، ظلت تصرخ وتناديه، حاول وجدي أن يهدئ من روعها، وبدأ الجميع في البحث لكن هناك من وصف الخاطف، فتاة شابة، خرجت بطفل منذ قليل، مشابها لما وصفته أمه، أبيض له شعر أسود فاحم، وعيناه سوداوان كبيرتان ولا يزيد عن السادسة من عمره، لكنه كان مترنحًا بعض الشيء، قبل أن يذهب وجدي إلى الخارج أتى الضابط من القسم المسؤول عن هذه المنطقة السكنية وبدأ في التحقيق.

***

(17)

حسنًا، دعني أقدم نفسي لك أولًا، هل فتشت يومًا عن الجان أو كما تقولون عنهم الجن والعفاريت أو أحيانًا تطلقون عليهم كلمات ك العوو وتبسملون بعدها، نعم يا سليم؟ أنا من هؤلاء، ان من يفتش عنا جيدًا يجدنا، فما تبحث عنه يبحث عنك، دائمًا تذكر تلك القاعدة يا سليم، ولكن ليس الأمر واضحًا جليًّا لأمثالك الذين لا يعرفون عن العالم الخاص بنا، حجب الله رؤيتكم لنا لأسباب عديدة، لكن بالطبع أغلب الناس تؤمن بوجودنا، بدون أن أطيل فيما ليس لك به شأن سأخبرك فقط بما لك به شأن، أنا لست عفريتًا يا سليم هكذا نحن الجان يوجد منا العفريت، ويوجد منا الجن الطائر والمائي، يوجد منا من يعيش في الكهوف والجبال، ويوجد منا من يعيش في البيوت والمنازل ونسمي عُمّار البيت، نعيش معكم لكنكم لا ترونا، نتشكل أحيانًا في هيئة حيوانات وأحيانًا في هيئة بشر، ولكن ليس لعبًا أو لهوًا، كل منا موكل بخدمة، نحن موظفون لدى بعضنا البعض، جنود وخدم، كل منا لديه قائد وسيد فوقه وخادم تحته، لا يوجد في عالمنا شيئًا عشوائيًّا، ولا نظهر لأحد كي نفزعه أو نقول له بِخ، هذا ما يفعله صغار الجان، تمامًا كما يحب أطفالكم

اللهو، لكن نحن الكبار لدينا شأن الكبار لديكم، لدى كل منا ما يفعله، أما عني يا سليم، فأنا جندي وكلني من أنا بإمرته كي أراقب أخاك من أول وهلة خطاها إلى محاولة الدخول في عالمنا، كان هذا امرًا من أحد القادة من الجن، ما وكلت به فقط هو تتبع ما يصنع أخوك، ومن كانوا معه، هنا قلت لظيام، من الذين كانوا معه؟ أتقصد جان مثلك؟، رد وقال: كلا يا سليم، ولا تقاطعني مرة أخرى، قالها ظيام بجدية جعلتني ابتلع ما في جوفي من كلام وأخرس إلى أن يُكمل ما بدأ من حديثه، تابع ظيام قائلًا، كان هذا عندما دخل أخوك كارم كلية طب بيطري، وقابل الاثنين اللذين سيغيران حياته، ليديا وجمال، كانت ليديا فتاة لها ملامح أجنبية ولا يعلم أحد من أين أتت، ربما ستتعجب من التركيبة لهؤلاء الثلاثة، لكنك ستفهم كل شيء بعد قليل، فالأمر ليس عشوائيًّا كما سبق وقلت لك، أما جمال فكان مصريًّا، شابًّا عاديًّا من واحة سيوة، كانت ليديا جميلة، جميلة جدًّا، تخطف الأبصار أينما ذهبت لكنها كانت مختلفة تمامًا عن الفتيات التي يمكنك أن تراهن، كانت جدية تمامًا، لا تبتسم إلا قليلًا وفي عينيها غموض، يوحي لك أنها توًّا خرجت من مجزرة وهي الناجية الوحيدة، كحيلة، دائمًا كحيلة العينين، ربما كان هذا سبب انجذاب أخيك لها، منذ أن رآها كارم في أول سنة له بالجامعة، أما جمال فكانت له أسباب أخرى لانجذابه هو الآخر إلى ليديا، جذبه إليها حوار دار بينهما حول شيء لا يتم تداوله كثيرًا، ليست مواد مخدرة إن كان هذا ما رحل له ذهنك، لكنه حوار حولنا، حول الجان وتحضيرهم، كيف فتح معها موضوع كهذا وكيف تقبلت هي فكرة الكلام معه؟ أسئلة لا معنى لها إلا حينما تعلم ما حدث بعدها.

(18)

1986م

عايدة،

تبدّل الليل لدى عايدة، فبدلًا من النوم الهادئ أصبح مفزعًا، مروعًا، تخشاه خشية الموت، شهورًا طويلة كانت تحلم نفس الحلم، أنها واقفة على عتبة منزلها القديم، تحتضن ولديها بكلتا ذراعيها، وتنظر إلى السماء فترى القمر، رأته في حلمها مرارًا، تارة ترى أنه نزل إليها ودخلت فيه فأصبح ليس قمرًا وإنما نار، نار كنار حريق كبير تلف جسدها كله فتصحو مذعورة على صراخ حاد يفتت كل عظمة في جسدها من شدته وشهقته، يعقبه صرخات مكتومة وعرق غزير، كأنها كانت تنام في بركة ماء كبيرة، وكانت تارة أخرى ترى القمر أسود ذا غيوم وتبدأ في الانقشاع من حوله شيئًا فشيئًا، حتى ينير الدنيا فترى يديها، وثيابها، في ضوء القمر، متسخة، كلها متسخة، طينٌ كلما أزالته يعود إلى يديها وثيابها مرة أخرى، كانت تكره الليل في تلك الفترة، كانت تذهب إلى المطبخ تعد طعام الإفطار لولديها في الثانية صباحًا، تضعه على صينية ثم تغطيه كله حتى يجدوه في الصباح على طاولة المطبخ، لم تكن من الأمهات التي

يستيقظن مبكرًا لإعداد الفطور، كانت لسنوات طويلة يغلبها النوم قبل أن يستيقظا، ما إن تشرق الشمس حتى ينسدل جفونها وحدها وتنام في أي مكان بالمنزل، كالأطفال، ربما بعد أن دخل ولداها الجامعة وأصبح لديها رفقاء في المنزل، يسهرون طوال الليل كما يشاؤون، شعرت أنها ليست وحدها، لن ينفرد بها دياب ليلًا، شعرت بالأمان ونامت ليلًا وذاقت شمس الصباح الذهبية بعد أن حُرمت بهجتها لسنوات عديدة.

***

(19)

2013م

سليم،

كانت عيناي منهكتين، تنسدلان رُغمًا عني، لكنهما كانتا تتابعان ظيام وهو يكمل لي.. برع كارم في الكلية حتى ذاع صيته بين الطلبة، كان ماهرًا في تشريح الحيوانات، كان جراحًا ماهرًا، في مكتبة الكلية تعرف إلى جمال الذي عرفه إلى ليديا، كان وقتها كارم لديه شغف جديد وهو البحث عن الحياة والخلود، صداقته بجمال وليديا اللذين كانا من المهتمين بعالم الجان والسحر والحياة قربت بينهم كثيرًا، جمال وليديا كانا يبحثان عن شخص مثل أخيك، لم يكن الأمر مصادفة قط، فكانوا يحتاجون إلى إيدٍ ماهرة، تذبح وتقطع بتقنية عالية ودون أن تثير جلبة أو تستغرب مما ينوون فعله، فأرادوا أولًا أن يعرفوا مدى اهتمامه بعالم الجان وهل سيخاف أن يخطو معهم، داخل المجهول، أم أنه سيكون صديقًا مطيعًا؟ واتفقوا معًا أن يتقابلا، بالطبع فاتنة ك ليديا، أثارت اهتمام كارم من أول وهلة، لم يكن بذيئًا أو جريئًا مع الفتيات، لكنها كانت لا تقاوم إذا كان من ينظر لها مهتما بالجمال الغامض، المريب، الحزين، لا

بالفساتين الملونة أو الغمازات التي تظهر من ضحكات الفتيات، كان كارم وجمال من هذا النوع؛ ولهذا وقع الاثنان في حبها على الفور لكن كل منهما كتم ما في قلبه، فما سيعرفونه عن بعضهم، لن يدع الكثير لمجال العاطفة أو الأحاديث الجانبية الهادئة، كانت حواراتهم ساذجة في بدء الأمر، تطورت شيئًا فشيئًا، كأن كل منهم لا يريد أن يفصح للآخر عن مدي ما يعرف أو ما يريد خوفًا من تقبل الآخرين له أو اشمئزازهم من أفكاره حقًّا، كم كانت أفكارهم مشمئزة قذرة! لم يكن ينقصهم سوى من لديه الخبرة ليصبحوا مثالين جدًّا كونهم سحرة صغار سيفعلون أي شيء يُطلب منهم، سيبيعون أنفسهم، إذا وجدوا المشتري.

(20)

1621م

كانت الدنيا مليئة بالضباب، ذاك النوع من الضباب المبهم الحزين، لم يكن شتاء عاديًّا على أهالي بلدة "فاردو" في أقصى شرق النرويج، كان موقع البلدة أقرب إلى القطب الشمالي وأهلها معتادون الطقس البارد حدّ الصقيع، لكن لم يكن هذا الصقيع وحده كافيًا كي يجعلهم داخل ديارهم جالسين في هدوء أمام مدفأة نار أو ينعمون بدفء كوب لمشروب ساخن أو حساء طازج ليسري في عروقهم دماء دافئة، كانت دماؤهم ساخنة بالفعل، ولكن بسبب الغضب والغل الذي علا على قلوبهم وشلّ فيهم أي قدرة على التفكير المنطقي، كان المشهد من بعيد حلقة دائرية كبيرة، تنيرها مشاعل لا أدري هل قدّت بفعل النار أم قدّت بفعل الغضب، لكنها كانت كفيلة أن تشعل القرية كلها، تجمعوا حول بحيرة صغيرة شبه متجمدة، كانت أبخرة الثلج تتصاعد منها حينًا بعد آخر، وبالقرب من الدائرة كان هناك رجل يقف يهتف بهتاف عالٍ يضج الأرجاء من قوة حنجرته، وحوله رجال آخرون، كأنهم فرقة جاؤوا لتنفيذ مهمة، كانت لكنتهم غريبة، واضح أنهم ليسوا من أهالي القرية، بعثة أتت إلى القرية كي تنقذهم مما هم فيه، هكذا قالوا لأهالي القرية، بعثة أقنعتهم تمام الإقناع أنهم عرفوا جيدًا سبب غرق البحارة أبنائهم قبل أعوام في ظلام المياه،

كان كل بيت في البلدة لديه فقيد مع البحارة، كان كل بيت في البلدة لديه ابن أو قريب أو صديق قد غرق مع البحارة الذين غرقوا في ليلة كانت السماء والبحر فيها في عناق دامٍ، مظلم، مخيف. كانت السماء والبحر حينها جزءًا واحدًا، ليلة مشؤومة على أهالي البلدة، ليلة ابتلع فيها البحر أبناءهم بلا سابق إنذار، ليلة لم ينسَها أهل البلدة وظلوا متحفظين، دفنوا حزنهم في قلوبهم، ولكن القلوب لا تنسى، هؤلاء الرجال المبعوثون إلى البلدة استغلوا جيدًا غضب الناس وفجعتهم، واستغلوا جيدًا ما كان شائعًا ويقال هنا وهناك حولهن، هؤلاء النسوة، لا بد أن يكن هن المسؤولات عن كل كوارث البلدة، لا بد أنهن من السحرة، سحرة السبت، لم يكن الرجل الذي يهتف والرجال حوله سوى بعثة محاكم التفتيش، هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم كي يحاكموا كل من يشكون في أمره أو كل من هو ليس على هواهم، كل من له خلافًا مع الدولة أو الكنيسة، وكل من له أحوال مريبة، كان يحاكم في محاكم التفتيش بتهمة السحر، وكانت النسوة أكثر الضحايا، سواء كانوا ساحرات، أم لم يكن كذلك، هن مذنبات، خاطئات، سيدفعن الثمن، والآن.

ما إن تقترب من الرجل أكثر حتى ترى عينيه وهو يقول ما يقول، فتشعر للتو أنه كاذب، لكنه بارع أيضًا، كل العيون التي لها بريق ذو لهيب كالنار حوله كانت تقول إنه بارع، كل صرخة يهتفونها خلفه أهالي البلدة مصدقين على كلامه تقول إنه بارع، كان وسط كل صراخهم المقزز العالي الملتهب بالغضب، صراخ آخر، صراخ مفزع، صراخ صوت يخنقه الدموع، صوت تعرفه لينورا جيدًا، كان هذا صوت أختها الكبيرة، كريستن، كانت لينورا تقف بعيدًا، بعيدًا جدًّا، توارت عن الأنظار كي لا يجدونها، ولكنها كانت تسمع نحيب أختها واستغاثتها، حتى دوت صرخة كبرى، صرخة، أفزعت كل الكائنات الحية على مدى البلدة كلها.

(21)

1991م

في هدوء كانت تجلس عايدة وإلى جوارها المحامي، تستمع إلى شتائم أخي زوجها لها، ناعتًا إياها أنها سبب في اختفائه، وأنها حتمًا لها يد في الأمر، لا أحد يختفي فجأة ويترك كل شيء بلا رجعه، لم تعره كثيرًا من الاهتمام، كانت تفعل ما أخبرها المحامي أن تفعله تمامًا، وضعت أعصابها في ثلاجة وصمتت، إلى أن ينتهي المحامي من توزيع أنصبة التركة على الورثة، تركة الغائب الذي لا يعلم أحد سوى الله أين ذهب أو رحل، لربما فقد عقله وتاه كالمجاذيب، ولربما غرق في ترعة القرية ولم يجدوا له أثرًا، لربما أكلته الذئاب، ولربما خطفه جن الأرض، لربما ندهته النداهة، رباه، ليس كل من يختفي يكون لأحد سبب في اختفائه، ألا تعلم أن كل حي يجد من الدنيا نصيبه، قالت تلك الكلمات عايدة وهي وتنظر إلى أخي دياب زوجها الفقيد، أخيه الذي بعد كلامها هذا فقد أي رغبة في النطق بعدها، وظل في ذهول من كلامها، ظن أن كلامه سيخيفها فتعطيه مزيدًا من الأموال كي يخرس، وهذا ما فعلته فعلًا، ليس خوفًا ولكن كي تطفئ نار قلبه على المال، خوفًا من أن تحرقها ناره، أو يطالب بأبناء أخيه،

ولأن المال لم يكن غاية لها، لا أحد يعلم، لكنها أعطته زيادة عن حقه كي يبتعد، يبتعد إلى الأبد، كان جل غايتها هو السكينة والهدوء، ما إن أغلقت باب الشقة خلفهم، ولملمت بقايا آثار الضيوف المتناثرة هنا وهناك، أعقاب سجائر وأكواب شاي وقهوة ورائحتهم، لم تكن تريد أن تشم أي رائحة غريبة بعد الآن، رائحة الرجل، عطره، أنفاسه، سجائره، طهرت الشقة جيدًا وأشعلت بخورًا ذا رائحة نفاذة، فتحت الشبابيك وأسدلت الستائر، وأمام كوب عصير بارد جلست في هدوء واستسلام، لا تريد أن تفكر، لا تريد أن تفكر لمدة طويلة، ما يسعى خلفه الإنسان قد أتاها منذ زمن بعيد، وضعت أموالها، وأموال أبنائها في بنكا ما، يدر عليها ما يكفيهما، حان الوقت كي ترتاح قليلًا، حان الوقت كي تنام قليلًا، حان الوقت إلى موعدها اليومي، مع الكابوس، الكابوس الذي لا يتغير أبدًا، حان الوقت كي تغرق في الطين.

***

(22)

1621م

لم تكن تلك الصرخة المدوية سوى صرخة كرستين التي بدؤوا بها، كان الرجل بارعًا بحق، ذاك الذي كان يهتف، بارعًا، ليس فقط أن يجعل أهل البلدة غير متعاطفين مع تعذبيه للفتيات، بل إنهم أيضًا يشجعونه ويهللون له أنه سينقذهم من بلاء الساحرات، وضع قدميها على جمر من نار،حتى أنها تستطيع شم رائحة حفلة الشواء المُقامة على قدميها اليافعتين، صرخت من كل أعماقها ولكن، ولكنه كان بارعًا، لم يتعاطف معها أحد، حتى تلك النسوة اللائي يعرفنها جيدًا لم يتعاطفن معها، فكرت بعضهن، إذا فعلت إحداهن ودافعت عنها، سيقال عنها ساحرة أيضًا، ولربما تلقي نفس المصير، وأخريات كن يغرن منها، كانت كريستن من جميلات القرية هي وأختها الصغيرة لينورا، ولكن كرستين كانت شابة يافعة، كان حسنها يجعلها محط أنظار الجميع، حاول الكثير من رجال القرية أن يجعلوها لهم، عشيقة أو زوجة أو حبيبة، لكنها ومع جمالها الزائد عن اللازم، كانت جادة، حادة كالسيف، كانت ترعى شؤونها وشؤون أختها الصغيرة لينورا، التي لا يوجد لها عائل في الحياة غيرها، لم تفكر

قط في غيرها، كانت أمهما قد توفيت من زمن بعيد، وكان أبوهما غرق مع الصيادين في الحادثة قبل سنوات، وحتى هذا لم يشفع لدى لجنة محاكم التفتيش، وهل من الممكن أن ساحرة تقتل أباها، نعم، الساحرة تفعل أي شيء، من أجل خدمة الشيطان، وهأنت الآن تعذبين، ونحرق قدميك كي لا تسيري إلى الشيطان مرة أخرى، كانت تلك الأسطورة شائعة للغاية، الفتيات اللاتي يذهبن كل سبت إلى أعماق الغابة، يجلس الشيطان في منتصف الدائرة، وهن يحلقن حوله، بلا ملابس وبلا خشية من أحد، ما إن تبيع نفسها إلى الشيطان، فهي قادرة على التحليق عاليًا، وقادرة أيضًا على أن ترتكب الخطيئة الكبرى، القتل، هرع الرجل يهلل بصوته، هي، وصديقاتها، من قمن بإلقاء التعويذة على مركب الصيد، فغرق الصيادون، هن من قمن بالحرائق، هن من فعلن كل مكروه حدث بين كل زوجين، هن المسؤولات عن موتى البلدة، هن، ساحرات السبت.

***

(23)

2003م

تعددت لقاءات ليديا وجمال وكارم، شيئًا فشيئًا أدرك كل منهم أن الآخر لديه ما يكفي كي يكون مستعدًّا للبدء، البدء في أي شيء يفتح لهم بوابة للعالم الذي لا يرونه، كان هذا انطباع كارم عن جمال وليديا، لم يكن يدري أن كل من جمال وليديا بالفعل، فتحوا البوابة.

كان ما يملكه كارم يريدونه بشدة، شاب لديه خبرة في التشريح، ولديه سيارة جيدة، ومكان منعزل..بيت العائلة القديم..ولديه أيضًا أموال خاصة.. وفوق كل هذا لديه شغف كبير بالعالم الآخر، أنه الرجل المناسب للأصدقاء المناسبين، كل ما عليهم فعله هو أن يضعوه في اختبار حقيقي، هل هو ذو قلب ميت أم أنه مرهف الحس غبي وسيفشل في التجربة؟ لا أحد يعلم، لكنهم يستبشرون به خيرًا، في منزل العائلة القديم كان هو الموعد المحدد لأول تجربة لكارم، طلبوا منه أن يجهز قبل أن يأتي بهم إلى هناك، أدوات تشريح، وبعض الأدوات الطبية، وثلاجة جديدة صغيرة، وحبال، كثيرًا من الحبال والخُطافات، كانت حماسة كارم كبيرة، جعله يفعل كل شيء وزيادة، كان يعلم أنهم

سيجلسون مُدة، فأتى بما يؤكل ويُشرب، وعاد إلى القاهرة كي يحضرهم إلى المكان، لم يخبر أحدًا، حتى أمه وأخوه، كما طلبوا منه ليديا وجمال، دخل بهم إلى البيت الذي أتوا إليه مرارًا، لكنها أول مرة سيفعلون شيئًا، شيئًا لطالما أراد أن يعرف كيف يتم، ظن أنهم سيحضرون عفريتًا كي يسليهم قليلًا، لكنهم بدلًا من هذا أخرجوا من حقيبة كانت مع ليديا، كان بالحقيبة قطة، قطة كبيرة بعض الشيء، لم يسمع لها كارم صوتًا طوال الطريق، ولا عجب في ذلك، كانت القطة مخدرة، نائمة، لا تدري أنها لن تستيقظ أبدًا.

***

(24)

1621م

تعذيب، تعذيب لم يتخيله سوى عقل مريض، تعذيب ذو أدوات صُنعت خصيصى لأجل هذا العذاب، أداة خاصة لاقتلاع الثديين من مكانيهما، جعلت آخر ما تبقى من أنفاس الفتيات ينقطع في صرخة لا تسمعها إلا في الجحيم ذاته، كل هذا لم يثبت بعد أن كانوا ساحرات أم لا، كان هناك شيء واحد فقط لا بد أن يجربوه، لربما تعترف إحداهن على الأخريات، كان هذا التعذيب ملائمًا، يليق بمنطقة باردة إلى حد الجنون مثل بلدة فاردو، كان هذا التعذيب هو الماء.

جردهن الرجال من ملابسهن وألقوا بهن في حفرة ماء كبيرة، حفرة صنعوها لأن الماء الذي فوق البحيرة قد تجمد كله من الصقيع، صنعوا لهن حفرة خاصة، أزاحوا الثلج عنها وأمسكوا بهن بحبال وضعت على معصمهن، ألقوا بواحدة تلو الأخرى، لم تجرب الإلقاء في ماء بارد من قبل، حسنًا، تأتيك أولًا صدمة الماء البارد وهي دقيقة واحدة يحوطها صوت من اللهاث، اللهاث

العالي الذي يخرج من أنفاس من ظن أنه سيغرق، سيغرق لا محالة، لهاث أشبه بتعبئة كل الهواء الذي في الدنيا، لعله ينفع كخزين في الرئتين تحت الماء، لهاث لتبريد الجسد سريعًا، الجسد الذي اعتاد أن تسري فيه دماء حارة، هو الآن في الصقيع ذاته، منهن من أغمي عليهن في التو واللحظة من الذعر ومنهن من لم تكن محظوظة فظلت مستيقظة، يحاول القلب أن يضخ الدماء إلى الأعضاء بسرعة عالية جدًّا، ينبض القلب بسرعة تفوق الجري بلا توقف لينقذ أعضاء الجسد اليافع العاري المشوه من كثرة التعذيب، الأعضاء التي بدأت في حالة الشلل التام بدأ من الأطراف الأولى الكفين والقدمين مرورا بالساقين والذراعين، إلى أن يصل إلى مستقره الأخير، الصقيع الذي يودي بالحياة، ويودي بالقلب إلى السكتة القلبية، لعلها الراحة الأبدية، التي لم تنلها كرستين بعد، ظلت تقاوم وتقاوم ظلت أكثر من ربع ساعة تقاوم، وهنا هلل الرجل البارع على أنها ساحرة وأنه بارع، لو أنها فتاة عادية مسكينة لغرقت سريعًا، مثلما غرقت الباقيات! لكنها لم تغرق بعد، الوضيعة، لا بد أن الشيطان سينقذها الآن لأنها حليفته، اقتربوا منها كي ينتشلوها ليكملوا تعذيبها خارج المياه، فحدث لها ما يحدث دائمًا، ظنت أنها ستخرج من المياه أخيرا، فلم تعد تقاوم الغرق، ألقت يديها تحت الماء في استسلام، فأصابها الشلل السريع ثم السكتة القلبية في ثوان، غرقت كي تثبت لهم أنها ليست ساحرة شريرة، غرقت أمام عيني لينورا، كل تلك الصرخات، كل تلك اللعنات وأوجاع القلب، كل ما كان يمكن فعله، لم يعد يعني أي شيء بعد الآن، كل الدموع التي لا بد أن تذرفها، تحجرت في مقلتيها، تحجرت وإلى الأبد، هاتان العينان الجميلتان، اللتان رأتا كل شيء، قبل أن تهرول سريعًا، سريعًا جدًّا إلى خارج

البلدة، لم تدرِ كم من الوقت ظلت تركض في الظلام، لا تدري إلى أين تذهب، لم يعد لها من تذهب إليه، لم يعد لها مكان يأويها، أو شخص يُطعمها، ذات العشرة أعوام ظلت تجري إلى أن أغمي عليها في ظلام لا تدري إلى أين المفر منه.

***

(25)

وقف كارم أمام القطة التي وضعتها ليديا على منضدة التشريح، وقالت له حرفيًّا: لا تقتلها، وإنما أخرج منها أحشائها بينما هي حية، هي مُخدرة لن تشعر بشيء، لا أريد لقلبها أن يتوقف قبل أن تُخرج تلك الأحشاء إلى الصندوق الذي أمامك، ظن كارم ان الامر مقتصر على تشريح شيء، شيء كعضو ما، أو حتى جثة حيوان، لا أنه سيفعل هذا، ويشرح جسدًا ما زال حيًّا، لكنه بالفعل نفذ المطلوب منه، سرى المشرط في أحشاء القطة يمزق ما حولها حتى وصل بالفعل وقام بقطع الأمعاء من الجانبين، لحسن حظها، ماتت القطة بعد دقيقتين، كأنها دعت ربها ان تموت سريعًا قبل أن يكملوا حفلة تعذيبها، أخرج كارم الأحشاء ووضعها في صندوق أبيض أشبه بالطبق المربع، نظرت له ليديا في استحسان، وقالت له إنه نجح في ما تريد، الأحشاء سليمة، أغلقت عليها الصندوق جيدًا بعد أن وضعت ثلجًا كثيرًا عليها ثم وضعتها في الثلاجة الجديدة التي اشتراها كارم، الآن فهم لماذا كانوا يريدون ثلاجة جديدة، ثم سمع ليديا تقول لجمال شيئًا لم يعرف وقتها ما تقول لكنها قالته بعد أن كان جمال معترضًا على أن ينضم إليهم كارم، لم يكن يدري أنهما هما الاثنان يتحدثان اللغة التي لا يعرفها إلا أهلها، كانا يتحدثان لغة الأمازيغ،

ليديا كانت تعيش مع أهلها في مقربة من أمازيغ المغرب، هكذا قالت له، أما جمال فكانت أمازيغيته قادمة من مكان أقرب، اقرب كثيرًا، كان من سيوة، واحة سيوة، ما زال يرن في أذنه صوت الذهب.

***

(26)

1621م

بدأت لينورا في فتح عينيها، ثم أغمضتهما من الاعياء، لم يكن في داخلها أي قوى كي تستخدمها لتفتح عينيها لترى أين هي، لكنها بعد ساعات بدأت تشعر بمن يزيد عليها أغطية كلما ارتجفت، تارة ترتجف من البرد والصقيع، وتارة ترتجف من الكابوس الذي تتمنى لو أنه لم يكن، وتارة ترتجف من الخوف متسائلة في عقلها الباطن في جزء ضئيل ما زال يكترث، أين هي، وما يحدث حولها.

بعد يوم كامل أفاقت على صوت لم تميزه في البداية لكنها عندما رأته وجدته مألوفًا، في البداية ارتعبت، فكل الوجوه المألوفة هي من قامت بالتهليل والموافقة بتعذيب وقتل أختها، فلا يوجد بعد الآن ما يُدعى وجهًا مألوفًا، أو شخصًا تعرفه فلا تخشاه، لكنه هدوءها وجلس على مسافة معتدلة منها وقال لها: لا تخافي يا ابنتي، أنا فيليب صديق والدك، كنت صيادًا معه، لحظي لم أذهب في رحلة الصيد التي رحل فيها شجعان البلدة، بُترت يدي اليسرى من المرض قبلها بأيام، فلزمت كوخي من وقتها، لم أقترب من البلدة إلا بعد أن

سمعت الصراخ، شيئًا فشيئًا داخل الغابة رأيتك تهرولين ثم أغمي عليك مكانك، لكني رأيت من بعيد ما يكفي، العيون التي أشعلها الغضب لقادرة على أن تحرق البلدة كلها، لا تخافي من شيء بعد الآن، فلا يعرف أحد مكان هذا الكوخ.

كانت الصدمة جعلتها ترى كل شيء بعينين جاحظتين حتى راحة القلب وهدوء الملامح لم يبدُ عليها بعد أن قال لها فيليب ما قال، لكنها أقله الآن لديها فرصة للنجاة.

لم تترد لحظة واحدة في الموافقة على ما عرضه عليها فيليب، هو مسافر على مركبا للتجارة، الحياة على المراكب قاسية، والظروف المناخية قاسية، لكنها أقله ستجد من يرعاها، يُطعمها، وستبتعد عن هذا المكان الموحش، هذا المكان الظالم، هذا العدل الذي لم تذقه، ستجد مكانًا آخر تطلق فيه صيحاتها، ربما ستبكي قليلًا، لو كانت مقلاتها حنونتين بما يكفي كي تفيض عليها بالدموع التي تريح القلب وتهدئ الجسد، لكن هذا لم يحدث قط، لقد تغيرت، تغيرت كثيرًا، لقد تركت في قاع البحيرة مع جسد أختها، تركت قلبها وكل ما تبقى في عينيها من دموع إلى الأبد.

***

(27)

2000م

كان الذهب يتلألأ في صحن من الفخار، كانت النسوة يجتمعن في دار من لديها صغير ذي سبعة أيام، إنه يوم السبوع، يوم فرحة بميلاد عضو جديد في العائلة، تجتمع فيه نسوة العائلة والقريبات والمهنئات، تخلع كل امرأة حُليها الذهبية، كل ما ترتدي من ذهب، ويضعونه كله في الإناء الفخاري ويرفعنه عاليًا جدًّا، ثم يهوين به إلى الأرض كي ينكسر، محدثًا صوتًا رنّانًا، قالوا إن هذا يُبعد الأرواح الشريرة عن المولود، كان جمال يرى هذا منذ صغره، وكانت تلك من عادات أهل الواحة، يتوارثنها جيلًا عن جيل، لم تكن اللغة الأمازيغية وبعض العادات فقط هي ما رأى جمال، كان منذ صغره شغوفًا أيضًا بالآثار، تقوده قدماه إلى حيث ما خلّف القدماء من أثر، كان بداخله شيئًا دائمًا يخبره أن وراء الأثر شيئًا ما، كان يؤمن بالجن إلى حد كبير، وكان يؤمن أيضًا بما يقال: "ما تبحث عنه يبحث عنك"، لم يكف البحث يومًا، كان يريد العلم، العلم الذي يسعي خلفه، لكنه لم ينسَ قط المكان الذي خطاه، ولا ما رآه فيه قط، المكان الذي حذره الكبار من الدخول إليه، الكبار، يحذرون، ويتحدثون

كثيرًا عن شيء ما أو مكان، لا تذهبوا إلى هناك أبدًا يا صغار، لكن هؤلاء الصغار لا شيء يدفعهم إلى الذهاب إلا هذا التحذير، فالقواعد لا بد أن يكسرها أحد كي يكون عبرة لمن لا يعتبر، قالوا عن هذا المكان كثيرًا في أحاديثهم الليلة وهم يسمرون أمام النيران متلذذين بأحاديث تخيف، قالوا إنه مكان يُسمع فيه أصوات العالم الآخر، قالوا إنه مسكون، وقالوا من يذهب هناك لا يعود، لكن جمال كان له رأي آخر، لقد ذهب وعاد، لكنه لم يدرِ أنه لم يعد وحده.

***

(28)

2013م

لم أدرِ كم من الوقت فات وأنا أستمع إلى ظيام وهو يروي لي كل هذا، لكني كلما قال شيئًا وزاد في سرده، أحسست بوخز في قلبي، ذلك الشعور بالغصة في الحلق، وقبضة القلب، أم أنها قبضة المعدة، لا أدري، كانت ميادة والشيخ معتز جالسين يستمعان معي لكلام ظيام، لا أحتاج إلى ذكاء كبير كي أدرك أنهما لم يسمعا بكل التفاصيل من قبل، كان إنصاتهم عميقًا، نظرت للشيخ معتز ثم إلى ظيام، نظر لي معتز وهز راسه فيما معناه لا تسأل ولا تفتح فمك الآن بأي كلام لن يفيد في شيء إلا بعد أن نعرف التفاصيل، التفاصيل التي لا تنتهي، من كان يصدق إني أجلس في حضرة من هو ليس من أبناء آدم، في حضرة جن يروي لي عن أخي، ما دمت ما أزال حيًّا، لم تقتلني السكتة القلبية من الخوف، ولم يذهب عقلي إلى حيث لا عودة كما يحدث مع المجاذيب الذين نراهم فيقال عنهم إنهم رأوا ما أراه الآن، ما دمت ما أزال أسمع، فلا بد أن لله في ذلك حكمة، أومأت برأسي إلى الشيخ معتز الذي قال ل ظيام، أكمل أرجوك، فاستأنف ظيام كلامه في هدوئه المعتاد.

في مكتب وجدي الخيشي كان الخبر كالصاعقة، إن قلبه يكاد ينخلع من صدره من كثرة الغضب، كانت تلك الصاعقة أخته وهي تخبره بأن ناجي قد خُطف من أمام المترل، هناك طفل كان يلعب معه ثم رأى شابين أخذاه من يده إلى أول الشارع ثم اختفى أثره، كانت سمية والدة ناجي تصرخ، ظلت تصرخ إلى أن انهارت أرضًا وأمها جوارها تبكي ولا تعرف ماذا تفعل سوى أن تحتضن ابنتها في عويل طويل، أسرع وجدي إلى المترل يتفقد كل شيء، أرسل طبيبًا إلى أخته، كي تأخذ مهدئًا أو شيئًا ما لتكف عن الصراخ المستمر كلما أفاقت من إغماءتها، أرسل كل القوة التي كانت معه، أفراد أمن وضباطًا زملاءه، كلٍ بحث في اتجاه ولكنهم لم يجدوا شيئًا، لكن أحدهم فطن إلى وجود كاميرا مراقبة أمام متجر بالشارع، أفرغوها سريعًا لم يتعرف أحد إلى الشابين، أخذوا معهم شريط التسجيل ورحلوا إلى القسم، ظل ضابط ومعه بعض العساكر كي يفتشوا المنطقة جيدًا، كي يسألوا كل متجر وكل سكان المكان، إن وجوههم تظهر بالتسجيل جيدًا، لكن لا أثر لهم في سجلات المجرمين، لا أحد يعرفهم من ساكني المنطقة، رن جرس الهاتف لوجدي، في لحظة تذكر ندى، ملف خطف الأطفال الذي بحوزة ندى، ربما، لم لا، أجابها وأخبرها بكل شيء وطلب منها أن تحضر إلى القسم ومعها الملف، كانت ندى تسمعه وهي تلملم الأوراق سريعًا كي تحضر إليه، مطمئنة إياه، رباه، كانت تشفق عليه حزنًا ولا تعلم هل توجد كلمات مواساة في مثل هذا الموقف، كان الطريق حانيًا هذا اليوم، كأنه يشعر بألمهم، وصلت ندى سريعًا، في عشر دقائق كانت أمامه، رأت عينيه، لأول مرة فقدتا بريقهما القوي، كانت عيناه مترغرغتين بدموع لن يذرفها الآن، كانت تريد احتضانه، أن تضمه بين ذراعيها ليعرف أن كل شيء

سيكون على ما يرام، إن الخير والحب والأمان يكمُن في هذا الحضن، لكنه في مكان عمل وتحت وطأة الظروف والناس حوله من كل جانب، حضنته بعينيها فقط وبادلها، نفس الحضن بعينين ملؤهما الغضب والحزن والحب معًا، ناولته الملف الذي بحوزتها، وأمسكت هي صورة ناجي وبياناته، لقد ربط الاثنان معًا كل شيء في لحظة، إنها نفس العصابة التي تخطف الأطفال منذ سنوات، إن ناجي لديه نفس مواصفات الأطفال المفقودة، أخبرها أن معه تسجيلًا لوجوه الخاطفين، قالت له إنها ستتواصل مع أهالي الأطفال الآخرين لعل أحدًا من الشهود الآخرين يتعرف إليهم، أدخل شريط تسجيل الكاميرا وضغط وجدي على زر التشغيل، الكاميرا تظهر الوجوه بوضوح، كانوا متعجلين، لكن الكاميرا حديثة أظهرت وجوههم بدقة.. ما إن رأتهم حتى سقطت الأوراق من يد ندى، نظرت إلى وجدي وقالت له، من هو يسارًا هي لا تعرفه، أما الشاب الذي يقف يمينه فهو، كلا لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا، هذا الشاب هو، كارم، جارنا في البناية التي أمامنا. قالتها ثانية في ذهول وهي تنظر إلى وجهه، مستحيل، كارم؟

***

(29)

1625م

في كنف فيليب ورعايته لسنوات، أمضت لينورا معه أوقاتًا على مركب للتجارة، المياه الزرقاء كانت تُذيب هموم روحها في الصباح، وتبكي لونه الأسود ليلًا، فيليب عوضها قليلًا عن الفقد الذي ملأ روحها، وكانت تعاونه، كانت تعمل معه على المركب، أي شيء وكل شيء، تعلمت الطبخ للبحارة وتعلمت الإسعافات الأولية، عرفت الكثير عن البحر الذي لم تحسب أنه سيغدر بها، كانت السفينة سائرة، مُبحرة من النرويج إلى المغرب العربي، لم تدرِ إلا والمركب محاطة بالقراصنة، في عهد الدولة السعدية بالمغرب، حيث يتم القبض على المراكب التجارية الأجنبية وأخذ من بها أسرى، لم يتحمل فيليب العجوز أيًّا من هذا، كان بالفعل مريضًا، مرهقًا، لم يلبث سوى أيام في الأسر حتى رحل إلى عالم آخر، عالم لا ظلم فيه، تاركًا لينورا وحدها، في قبضة القراصنة، جلست شهورًا في الأسر تعلمت فيها لغة أهل البلدة، إلى أن حان موعد بيع الأسرى، لقد أجلّوا بيع الفتيات، كانت تلك آخر أيام شهر رمضان، على ساحل مدينة سَلا أو كما كانوا يطلقون عليها وقتها مدينة شالة،

في ثاني أيام العيد عُرض كل أسرى الفرنجة الذين كانوا على المركب للبيع، لكن امرأة، في عقدها الخامس، رأت لينورا واقفة، نظرت لها طويلًا، ثم اتخذت قرارًا بشرائها، ما إن فكوا قيود لينورا حتى أسرعت تجري، تجري، لكنها رأت ما لم تتوقعه في تلك البلاد التي لا تعرف فيها أحدًا، رأت الفزع متجولًا في ملابس الخِراف، لا تدري أهؤلاء بشرٌ أم لا، لكنها رأت من يسيرون على قدمين، مرتدين فوقهم صوفًا للغنم، وأقنعة منها على وجوههم، كان منظرًا بشعًا لها، تلفتت يمينًا ويسارًا، وكلما تلفتت رأت نفس المشهد وسمعت دويًّا كبيرًا بالطبول وأناس يهللون بشيء غريب شيئًا على غرار "أهرمة ليست أهرمة بوحلايس" في رعب تجمدت لثوان ثم رأت أن الأسلم هو أن تتوارى بعيدًا عن العيون، هرولت ناحية الجدار، أول جدار رأته، رباه لو أن ظهرك للجدار أقله أنت تأمن أنه لا يوجد خلفك ما يرعبك، يكفيك الرعب الذي أمامك، تلفت يمينًا ويسارًا ثم يمينًا مرة أخرى لتجد المرأة التي ابتاعتها تقف أمامها، ناظرة إليها، ثم حدثتها قائلة لها: لا تخافي من احتفالات "امشعار، بوجلود،" فهؤلاء هم "بوحلايس" الذين يرتودن هذه الثياب، إنهم لا ينوون شرًّا، إنه فقط من طقوس العيد، يا لينورا؟!!!

لا تنظري في ذهول هكذا إليَّ، فهو قال له كل شيء منذ أن رأيتك، قبل أن تنطق لينورا قالت لها السيدة، إنه القرين يا عزيزتي، قال قرينك إلى قريني قصتك كاملة، وقصة أختك كرستين، وقصة الشر الذي بداخلك، الشر الخالص، الشر الذي يريد الانتقام، الشر الذي لا ينقصه سوى معلمة بارعة، مثلي.

(30)

2003م

هل جربت يومًا مذاق الدماء؟ لا، ماذا عن تلك الدماء التي تسيل على شفتيك من أنفك؟ ماذا عن الدماء من جرح اللثة أو خلع الأسنان أو أنك فقط قررت لعق جرح في أصبعك؟ أليست هذه كلها دماء وكلها لها مذاق جربته؟

كانت تلك كلمات ليديا إلى كارم عندما رفض أكل أحشاء القطة السوداء، نيئة، مُدممة، باردة، أخبرته أن عليه أولًا أن يأكل الأحشاء الطازجة ثم تتبعها بخلطة الأحشاء المجففة، أحشاء لقط وثعبان وتراب من مقبرة، جففا معًا، لكن عليه أولًا أن يأكل الدماء، عليه أن يتخطى حاجز الخوف، عليه أن يحمي نفسه، أن يفعل مثلما تقول الأسطورة، إن أكل أحشاء القطة السوداء يحمي من بطش السحرة بهم إن عرف أحدهم ما يفعلون، كارم لا بد أن يحمي نفسه وعليه أن يأكل الخلطة المجففة لكي يرفع عنه الحجاب الفاصل بين الإنس والجن، عليه أن يطيع، عليه أن يرى.

لم يكن هناك مجال للتراجع، إما أن يأكل هذا وذاك، وإما فلن ينجح أبدًا فيما يريد فعله، القرار له، والقرار سريعًا قبل أن تعطب الأحشاء، وقفت ليديا وجمال أمامه، ناظرين إليه، إما أن يفعل وإما أن يرحلوا.

لا يدري من أين واتته الشجاعة الكافية أن يمسك بالصندوق الأبيض، ناظرًا إلى الدماء فيه، ممسكًا بأحشاء القطة، واضعًا أول قضمة منها في فمه، انسابت الدماء إلى ما تحت لسانه حتى شعر بالتقزز المفزع، سري طعم الدماء واللحم النيء إلى كامل فمه، سائرًا إلى أحشائه هو، التقزز الذي كان سائلًا من عينيه على هيئة دموع، مانعة إياه من أن يتقيَّأ هذا الشيء، قضمة تلو أخرى، كان يموت في كل قضمة، يريد لو أن يقتلع فمه وحلقه وأمعاءه من مكانها كي لا يشعر بما يشعر به الآن، ربما هناك أناس يتذوقون الكبد النيء بشهية، لكن كارمًا لم يكن من هولاء الناس، لم يكن شابًّا مدللًا، كان ذا جَلَد، لكنه كان لديه ذوقه الخاص في الطعام، ذوق خاص جدًّا، كان يأكل طعامًا مطهوًّا.

أنهى، وانتهى، لكن طعم الدماء في لعابه لا ينتهي، لا ينتهي أبدًا، قالت له ليديا عليه ألا يأكل أو يشرب أي شيء إلا بعد أربع ساعات، ربما لو أنها أجهزت عليه بسكين المطبخ لكان هذا أرحم من أن يجلس غارقًا ومذاق الدماء في لعابه لساعات، ساعات طويلة تئن فيها أمعاؤه، معلنة تمردها على ما تم غصبها عليه من شيء تميع منه النفس، ما إن انتهت المدة المحددة، ناولته ليديا الطبق الثاني، الثاني والأخير.

***

(31)

1625م

في منزل السيدة تمازيغيت، عرفت لينورا أن هذا اسمها "تمازيغيت " ولها خادم يدعى " ناتير"، كان المنزل عجيبًا لها، كله رفوف عالية جدًّا، رفوف خشبية عليها مئات ومئات من الآنية الزجاجية، لو أن هذا متجر كبير لما صار به كل هذا الكم من البضائع، لو قامت حرب ما، فلديها كل شيء في هذا المنزل يكيفها لسنوات، لكن ليست كل البضائع قابلة للأكل، أي إنسان سيأكل عقارب سوداء بالعسل؟ كانت موضوعة في برطمان زجاجي كبير، حسنًا، ربما هذا ما يأكلونه في تلك البلاد، كانت تحادث نفسها لا تدري ماذا تفعل، لا هي قادرة على العودة إلى أي مكان ولا هي تعرف ماذا سيحدث لها في هذا المنزل، ومع هذه السيدة، اقتربت منها تمازيغيت وقالت لها لينورا: قلت لك لا تفكري كثيرًا، أنت الآن، والآن فقط في منزل آمن، خذي مني تلك النصيحة، لن تأمني الشر بكونك طيبة، لكن يمكنك محاربته إذا كنت، مثله، أنا أعلم أن النار التي بداخلك منذ سنوات، بدلًا من أن تحترقي بها وحدك، احرقي بها الجميع، لكن عليك بأول درس لك، الطاعة التامة، وتقديم الولاء،

كي تصبحي حرة، حرة تمامًا، كما أنا، كما أنا الآن، هنا نظرت لينورا لها وأمسكت بيديها حافة الكرسي الذي كانت تجلس عليه، كانت تمازيغيت طائرة في الهواء، أنها ساحرة، لا بد أنها كذلك، قالت لها تمازيغيت، معي، لن تُحرَقي وتُعَذبي موتًا مثل أختك، معي الحياة آمنة، أنا لديَّ خادم، ناتير، لكني أريد مُساعِدة، فتاة شابة لديها ما يكفي من الغلّ في قلبها، كي تُقيد مقلتيها نارا، اليوم، مساء، سنذهب إليها، نقدم الطاعة وتصبحين واحدة منّا، قالت لها لينورا، نذهب لمن؟ جاوبتها تمازيغيت، إلى السيدة سيدة قبور البلدة، إلى تسرودنت نيسمضال.

***

(32)

2003م

بيديها البيضاوين الناعمتين، أمسكت ليديا صحنا وضعت فيه أشياء كان بحوزتها مسحوق ما، على زيت له رائحة، مزجتهما قليلًا، ثم ناولت الصحن إلى كارم، لم يكن ليفكر هذه المرة، أي شيء يمكن أن يقززه بعد ما أكل، تناول الصحن، وأكل ما فيه بملعقة خشبية كانت بحوزة ليديا أيضًا، سألها من باب الفضول، أخبرته أن تلك أحشاء لقط وثعبان مجففة مع الزئبق الأحمر، نظرت إلى جمال، ففهم أن جمالًا من قام بإحضار الزئبق الأحمر، الذي سمع عنه كارم من قبل ولكن في القصص فقط، أكل كارم ما أمامه، لم يكن مذاقه كما سبقه من طعام مُدمم وأقله هذه أشياء جافة، لكن، ريقه، إن حلقه أصبح حطبًا، تسارعت دقات قلبه كثيرًا، جشعه للهواء كان قاسيًا، كأنه يستدعي الأكسجين إلى رئتيه، ولكنه يأبى أن يدخل فيهما، أحس بيد تقبض قلبه وتعصره بقسوة، كانت ليديا وجمال ينظران له بكل برود، كأن هذا الأمر معتادًا لهم، ارتمى على الأرض، دقائق ثم عاد تنفسه طبيعيًّا، لكن شيئًا لم يكن

طبيعيًّا قط، كانت عيناه تريان، تريان الذي لا يمكن رؤيته، كان يرى مخلوقات أخرى صغيرة وكثيرة في المنزل، أراد التقيؤ لكنه تماسك، وقف حائرًا لثوان وعيناه تبرقان من الصدمة، كان يعرف أن هذا سيحدث أخبرته ليديا بالأمر، لكن أن تتخيل شيئًا ليس كما تراه، كانت تلك المخلوقات صامتة، غامضة، عيناها تقولان إنهم مستاؤون، لا يعجبهم الأمر أبدًا، لكنهم صامتون، نظر إلى أحدهم، كان طوله مترًا تقريبًا، كان رغمًا عن النور الذي في الغرفة تحيط به هالة سوداء، كأنه لا يسمح لأحد برؤيته رؤي العين التامة، لكن هذا يكفي، يكفي كي يعرف كارم أنه الآن خطا أول خطوة في طريق كان يريد رؤيته، اقترب منه ذلك الكائن ذو الهالة السوداء ونظر له طويلًا، ونظر بالمقابل له كارم، حتى رأى عينيه، كأنهما نور خافت في عتمة ليل طويل، كان نورهما أحمر جدًّا، يمتص الطاقة من عينيك إلى الحد الذي يصيب العينين بالإرهاق إذا أطالا النظر إليهما، اقترب منه الكائن ثم قال له بصوت منمق، رخيم، كأنه آتٍ من جهاز مكبر مضخم للصوت لكن كارم أحس الصوت آتيًا من خلف أذنه كان هناك من يتحدث داخل أذنه، قال له: "أنا أُدعى "ثُلي" سيد حراس المقبرة المقدسة، مرحبًا بك يا ابن آدم، أطِعْ تُطَاع، واخشَ تُخشَ،سيكون لك خدم وستكون أنت خادمًا، إن عصيت نادمًا، وإن ظفرت بمن أريد، أهديتك ما تريد".

هكذا دقيقة، قال ما قاله، ثم اختفى، كان أشبه بنشرة الأخبار أو أهم الأنباء، ما الذي قاله؟ ما اسمه؟ قال ل ليديا وهو ينظر لها، فجاوبته، كارم، ليس هذا وقتًا للمزاح الذي يعقب الصدمة، ما قاله ثُلي لا بد أن تفهمه جيدًا، سأخبرك بالأمر، كي تفهم وتستوعب ما قاله لك سيدنا "ثُلي" وأشرح

لك أيضًا مهمتك التي بدأت منذ الآن، إن الجان يتشكلون في صور مرئية، غالبًا في هيئة قطط أو كلاب، أو ما شابه، يتجولون بحرية بعيدًا عن من يعرفهم من الجان إذا أرادوا أو كان لهم أمر في عالم البشر، فهكذا يتشكلون، لكن يكونون وقتها في حالة ضعف، غير قادرين على دفع الإيذاء عن أنفسهم، يكونون وقتها خاضعين إلى قوانين الفيزياء الخاصة بنا وقتها من السهل اصطيادهم، وتصفية الحسابات معهم، أو مقايضتهم بشيء آخر، الأمر أشبه باختطاف شخص، لكن في عالم آخر بقوانين أخرى.

قليلون فقط يستطيعون رؤية الهالة إلى تحيط بجن تشكل بهيئة ما بقط أو كلب، مهمتي أنا وجمال هي اصطيادهم، ومهتمك أنت الأولى أن تعذيبهم كما يريد ثُلي، فله أعداء، وهناك من وكله بتصفية حساباته مع أعدائه، إن ثُلي في عالمهم مثل الذي يصفي حسابات الناس لأناس آخرين في عالمنا، هذا ما يريد هو، أنا أرى وجمال يرى ما يريد ثُلي، كان ينقصنا خبير في التشريح مثلك، فكل عضو من أعضاء الجان المتشكلين على هيئة قطط، هو غالٍ، لأن فيه خواصَّ له، نحن في حاجة لتلك الأعضاء في عالمنا، لكننا لايمكن أن نذبح أو نأخذ شيئًا من جن دون أن ينتقموا منا، نحتاج إلى حماية، وثُلي في حاجة إلى تصفية حساباته، إنها الصفقة العادلة التي فعلناها معه كي يتركنا نحصل على ما نريد، كي يكون لدينا ما يكفي لنذهب به خلف ما أسعى أنا وجمال إليه وما أنت أيضًا انضممت معنا من أجله، الحلم، لكل منا حلم، لكنك كي تحصل على حلم ما، لا بد أولًا، أن تبدأ ب،.. .. الكابوس.

***

(33)

1625م

دق باب الدار، فخرج صبي يافع ليرى من بالباب، لم ير أحدًا، تعجب قليلًا لكنه عاد إلى الداخل عندما نادته أمه، عبد الله: ادخل يا بني وأغلق الباب جيدًا. ففعل عبد الله ولكنه ما إن التفت حتى وجد صديقه حسين، فُزع قليلًا ثم قال له: كيف خدعتني ودخلت وأنا لم أرك عند الباب، فقال له حسين: هيا نعد أدراجنا إلى حيث كُنا نلعب قبل غروب الشمس، قال له عبد الله، كلا، ليس من المفترض بنا أن نذهب إلى هناك ليلًا، فقال له حسين وهو يقترب منه فظهرت قدماه، كأقدام الماعز، همس له: ولا عند غروب الشمس يا عبد الله، نظر له جيدًا عبد الله وقبل أن يصرخ طالبًا نجدة أحد من الدار، خرج به حسين إلى الخارج، رابطًا إياه من معصميه وربطهما في أرجل الماعز خاصته، وجرى به تجلجل الأجراس من ملابسه، وتحت نور القمر وكلما اقترب من المقابر، تحول حسين إلى امرأة في وجهها ونصفها العلوي، وجسد بغلة في نصفها السفلي، كان عبد الله أغمى عليه لحظة خروجه من المترل،

لكنه أفاق في الطريق، صرخ كثيرًا، لكن، لم ينجده أحد، ولن ينجده أحد، ألم يخبرك الكبار، لا تذهب إلى المقابر وتعبث؟ لا تذهب ما لم يكن لك شأن، لا تعبث فوق قبر السيدة، إن تسردونت نيسمضال، لن ترحم أحدًا، ولن يوقفها أحد، ولن ينجدك مني اليوم، أنت كنت صبيًّا غبيًّا، وأنا لا أرحم الأغبياء، حاول عبد الله الكلام أو مواصلة الصراخ، لكن صرخته انتهت عندما رفسته تسردونت بقدميها في حفرة كبيرة في أرض القبور، وأهالت عليه التراب، لقد انتهى أمرك،وسينتهي،كل من اقترب، فلن ينتهي انتقامي، ولن ينتهي غباؤكم.

التفت تسردونت عندما أحست بمن يقف خلفها، فابتسمت، كانت تعلم من الوحيدة التي يمكنها ان تقف خلفها، بلا خوف أو هلع، كان خلفها، أختها، تمازيغيت، لكنها تلك المرة لم تكن هي وناتير فحسب، كان معهما خادمة جديدة، نظرت لها تسردونت وقالت لها، مرحبًا، فأشارت تمازيغيت إلى لينورا كي تنحني احترامًا، ففعلت، ليس فقط للاحترام وولكنه تعبير عن الهلع الذي رأته قبل قليل، صبي دُفن حيًّا في القبور، ومخلوق نصفه امرأة ونصفه بغلة، أحنت رأسها كي لا تراها، لكن تسردونت قالت لها: قفي، أنت الآن في حضرتي، وأنت خادمة لنا الآن فلا تخافي آذانًا، فلن تؤذي، إلا أن تخوني، أنت الآن من خدم المقبرة،تحت إمرة تمازيغيت وإمرتي أنا، تسردونت نيسمضال، بغلة القبور.

أشارات تمازيغيت إلى لينورا كي تمشي خلفها، تركوا تسردونت ومضوا في طريقهم إلى المدينة إلى أن وقفت تمازيغت في مكان، رائحته مليئة بملح البحار.

وقف كل من لينورا وتمازيغيت وخادمها ناتير تحت بوابة من بوابات مدينة سلا، إن للمدينة سبعة أبواب، أحدها باب المريسي، الباب العالي تم بناؤه على

شكل حدوة حصان كبيرة جدًّا، في ظلام وسكون الليل، بدت المراكب والسفن خلفهم كأشباح تدب في القلب الرعب، أصوات الليل وحدها كافية لزيادة ضربات القلب، ليل؟ فكرت لينورا ما الليل الذي سيرعبها؟ لقد رأت بغلة تتحول إلى امرأة أمام عينيها في مقابر، حقًّا ما الذي ينون فعله الآن؟ تحت الباب خطت تمازيغيت ثم ركعت أرضًا وحسست بيديها حتى وجدت ما أزاحت عنه التراب، وجدت مقبضًا معدنيًّا دائريًّا، سحبته إلى الأمام ولفته يمينًا ثم يسارًا ثم سحبته ولفته مرة أخرى يمينًا ويسارًا، نظرت حولها بتأنٍّ حتى تتأكد أنه لا أحد هاهنا غيرنا، سجدت إلى الأرض وقالت: "لظى، لظى لهيب لهيب نور نور يا ساكني القبور، لظى لظى لهيب لهيب نور نور يا ساكني القبور، بحق المقبرة المقدسة بحق تسردونت نيسمضال بحق باستت وحق السر وحق الأرض وحق الهر بالعهد الذي كُتب، والدم الذي سُكب والخنيس البنيس، ونور النار الدنيس احجبوا عنا أعين الناس من كان منهم يرانا ومن كان منهم، يسمعنا ومن كان منهم يتبعنا نسالكم، الستر، الحجب، السر، لظى لظى لهيب لهيب نور نور يا ساكني القبور"، بعد أن أتمت قولها نزلت إلى الأرض مرة أخرى ثم أدارت المقبض مرة أخرى ففتح في الأرض بابًا، كأن الأرض ذاتها انشقت ونزلت، تمازيغيت وخلفها لينورا وخلفهم ناتير، نزلنا إلى سلالم ثم أغلق الباب مرة أخرى، لثوان كنا في ظلام إلى أن ظهر النور آخر السلم، أصوات هامسة، ودخان، وفتيات؟!، فتيات في عمر لينورا كن جالسات حول تمثال ضخم لقط، هر، ليس أي هر، كان هرًّا أسود اللون لم تر لينورا تمثالًا بهذا الحجم لهر، وأمام التمثال حفرة مياة عميقة جدًّا، مليئة كلها بنقود معدنية، وحوله مئات من الشموع كي تضيء المكان، كان ما تحت الأرض سراديب،

سراديب لا انتهاء لها، سراديب بها بعض الحجرات الجانبية، المكان مؤثث جيدًا، كأنه منزل، كانت الشموع في الأرض على جانبي السرداب كأنها تخبرنا أنه بعد تلك الشموع ليس مسموحًا لنا أن نكمل أبعد من ذلك، كان الظلام يأكل العين إذا نظرت إليه، أخذتني تمازيغيت إلى حجرة من حجرات المكان، أجلستني جوارها ثم قالت، نحن هنا لتقديم الولاء والطاعة، هذه المقبرة المقدسة والسراديب داخلها تم حفرها من قبل الجان، نهاية ذلك السرداب ليس في مدينة سلا ولا حتى المغرب كله، نهاية ذلك السرداب لا يعلمها سوى الجان، هذا السرداب يصل بين المشرق والمغرب كله، بين كل سرداب وآخر عهود، لكنهم أجمعون تحت إمرة الملك، مليكهم، هم يفتحون لنا السرداب كي نقدم الولاء، ليس لهم وحدهم، وإنما هو ولاؤنا لمن يحمينا من الناس، الناس لا أمان لهم حتى لو لم تؤذيهم، لا تظني أن الأمر يختلف عن بلدك كثيرًا، أو أنهم هنا لا يعاقبون الساحرات أيضًا، حتى المشكوك في أمرهم كأختك، لكننا هنا علمنا أصول اللعبة جيدًا، وأنا أقول لك شيئًا لا جدال فيه، ستخرجين الآن وتجلسين جانب الفتيات، واتركي نفسك تمامًا لما سيحدث من حولك، أنتِ وافقتِ على الانتقام لأختك، والآن حان وقت بدء الولاء، خرجت بعدها لينورا وجلست جوار الفتيات بعد أن خلعت تمازيغيت ما كان عليها من عباءة تغطي ما تحتها من ثياب، فظهر الثوب الذهبي الذي ترتديه والذي كان مشقوقًا من جانبيه مبرزًا فخذيها، دقائق ودخل من هذا السرادب رجالًا، اقترب أحدهم من فتاة كانت تجلس جوار لينورا، اقترب الرجل جوارها وألقى على فخذها عملة معدنية، فأخذتها الفتاة ثم قبلتها، ومن ثم ألقت بها إلى الحفرة المليئة بالنقود المعدنية التي أمام تمثال القط، ثم ذهبت الفتاة معه إلى السرداب واختفى

أثرهم، هكذا ظل الحال على فتيات ورجال يدخلن إلى السرداب المظلم ويختفون، إلى أن جاء دور لينورا اقترب منها أحدهم، رجل طويل يرتدي قلنسوة سوداء اللون، اقترب من لينورا ووضع على فخذيها العملة المعدنية، وفهمت ما يجب أن تفعله مثلهم، أخذتها قبلتها، وألقت بها في الحفرة تحت تمثال القط، اقتربت منها وأعطتها تمازيغيت مشروبًا وقالت لها: اشربيه قبل أن تدخلي الغرفة، أمسكته لينورا لكنها لم تتحمل طعمه المر، فسكبته قبل أن تلحظها تمازيغيت، جزعت لينورا قليلًا لكن أمسك بها الرجل، وذهبت معه إلى السرداب، في حجرة مظلمة، دخلت معه، أغلقها عليهما وأخذ منها غرضه ورحل، لم تقاوم كثيرًا، كانت تعرف أنها بيعت في السوق كجارية، إن الأمر لا يختلف عن كونها بيعت إلى رجل في السوق كجارية له، لكنها لم تظن أن المرأة التي ابتاعتها كان غرضها بيعها أيضًا ليست كجارية فقط، وإنما كعاهرة، دخلت عليها بعدها تمازيغيت وخلفها ناتير، الذين تيقنت أنهم لا يحملون من صفات اسمهم شيئًا، فلا تمازيغيت هي امرأة حرة، ولا ناتير هو ورد بريء، نظرت إليهما بقرف بادٍ عليها، لكن تمازيغيت قالت لها بلهجة من فهمت ما يدور بُخلدها، أنا لستُ أتاجر في الفتيات، ولن تفعلي هذا مرة أخرى، لكنك ستفهمين لاحقًا لماذا أنت هنا في خدمة البغاء المقدس، العهود والحماية بيننا وبين الجان تسري هاهنا، أما فوق الأرض نحتاج إلى عهود خاصة، كان هذا أحدها، ستعرفين لاحقًا كل شيء في وقته، ثم أشارات تمازيغيت إلى ناتير وقالت له، ضع عليها العباءة يا ناتير لا بد أن نرحل الآن، فقد انتهى الوقت المسموح به هنا، وإلا فستشرق الشمس علينا، ولن نعود إلى المنزل اليوم.

***

(34)

2000م

كان الليل لم يأتِ بعد، قُبيل المغرب بساعة تقريبًا، انسحب جمال من أنظار الجميع، ماضيًا إلى حيث قد لا يعود مرة أخرى، أنه الآن على أعتاب قلعة شالي، أمام البوابة الرئيسية "بوابة انشال"، خطا إلى الداخل خطوات قصيرة في البداية، ثم أسرع خطواته قليلًا، أن يسمع صوت خطواته ودبيبها على الأرض، خير من أن يسمع أي صوت آخر قد يرعبه، ربما لو مر عصفور فوقه لمات من الهلع، لكنه مصمم، هو يعرف جيدًا إلى أين هو ذاهب وأنها النبوءة التي لم يصدقها أحد وعاد بعد رحيله، فمن يصدقها ويرحل لا يعود، إنها قصة جدته، أنه البيت الذي تحته الكنز، البيت الوحيد الذي ظل سليمًا لم يتصدع فيه جدار واحد في الزلزال، إنه بيت المرأة الملعونة، البيت، من يدخله لا يخرج سليمًا أبدًا، ولا يخبر الباقيين بما حدث له، البيت الذي يعرف جميع أبناء القلعة أن بداخله كنزًا لا يُقدر بمال، فقط من يدخل إليه يحظى بما فيه، ولكن، من يدخل، ويرى ما لم يروِه أحد، ويخرج سليمًا، وبكنز أيضًا؟

إن أهل القلعة جميعهم ومن نجا منهم، تركوا القلعة بعد التصدّع، سكنوا في الواحة منذ زمن بعيد، لكن أهل هذا البيت اختفوا، اختفوا تمامًا، لم يخرجوا معهم إلى الواحة، ولم يموتوا أيضًا، لقد اختفوا، اختفوا في ظروف غامضة، وكل من حاول دخول المنزل لم يخرج سليمًا، لكن جمال قد قرر البحث حوله، هو ليس أبله كي يدخل بلا تأنٍّ، لكنه قرر دراسة الموقف من الخارج أولًا، من يدري؟ ربما جدته هي العاقلة الوحيدة في العائلة لا العكس

إن الأمر سهل جدًّا كي يجد هذا البيت، لا يحتاج إلى خريطة أبدًا، إنه البيت الوحيد السليم، ليس هذا بعسير في بيوت متصدعة، جدرانها مهترئة، ليس الأمر، ليس الأمر سهلًا! لقد وجد نفسه فجأة في وسط القلعة تائهًا ولا يعلم أين هو، لا يعرف أين باب الخروج، ولا يعرف أحد أنه هنا، الذعر حل مناسب جدًّا، لكنه هدأ قليلًا كي يفكر لثوان، ربما لو فعل مثل تلك القصة التي مشي فيها الصبي من حيث أتى خلف فُتات الخُبز، ربما يمشي بالعكس خلف آثار قدميه التي لم يرها على الأرض!

كانت دقائق بعد موعد آذان المغرب، كانت دقائق حتى وجد حوله ظلامًا، كأن هناك من سحب الشمس في ثانية واحدة فلم يعد لها أثر، لم يكن هناك فرصة للغروب، أو للهروب، في أثناء ذعره من ألا يجد الطريق في الظلام، كان هناك ذعر من نوع آخر قابع خلفه، نعم ما يشعر به حقيقة، هناك من يلمس ظهره من الخلف! تلفت وكما توقع لم يجد أحدًا، أقنع نفسه أنها مجرد خيالات لأنه مذعور، إلى أن وجد نفسه حبيسًا، حبيسًا في الهواء، هو ليس مشلولًا، لكن هناك جدارًا أسطوانيًّا يحوطه، جدارًا غير مرئي، كأنه قفص من زجاج، لكن ليس هناك زجاج، وكلما حاول النقر عليه ازاد ضيقًا، حتى أصبح متصلبًا كلوحة في برواز زجاجي، نعم هذا هو، حان الآن وقت الانهيار العصبي والذعر الكاملين.

(35)

1625م

في منزل تمازيغيت، حوالي التاسعة ليلًا، كان أول الدروس العملية ل لينورا، جلست إلى جوارها ومعهما امرأة، بدا عليها أنها سيدة ذات نفوذ ومال كثير، كان الأجدر ب تمازيغيت الذهاب إليها في بيتها الذي لا بد أنه فخم وكبير، لكنها لم تذهب لأحد قط، إنها في بيتها في أمان، يمكنها أن تفعل ما لا يخطر على قلب، من يريد العبث معها داخل جدرانها فليحاول، جلست السيدة قبالتهم لتخبرها أنها تريدها أن تفعل شيئًا ما حيال ضُرتها، المرأة التي أتى بها زوجها قبل سنة غصبًا لتعيش معها في منزلها، فقط كي يقهرها، ويذلها، زوجها مات إلى حيث أرادته من أعماقها، لم تحزن إلا بعد نبأ المصيبة الكبرى، تلك المرأة حامل من زوجها، ورحلت إلى أهلها لأنها تعرف أني سأفتك بها إذا كانت في بيتي، لا يمكنني الوصول إليها الآن، لو فعلت وبعثت لها من ينهي وجودها، لاشتد القتال بين رجال أسرتي وأهلها وربما أخذوا رجالي أسرى وأخبروهم بالحقيقة، لن أسمح لمثلها أن تأخذ الأخضر واليابس، لن أموت أنا مقهورة على مال كان لي قبل أن يستولي عليه زوجي الأحمق، أنا سمعت عنك

كثيرًا، تمازيغيت، أريد مساعدتك، ولك ما تطلبي، نظرت لها تمازيغيت وهي تضيق عينيها قليلًا، وقال لها سؤالًا، هل أنت مستعدة لفعل أي شيء، مهما يكن، لا تراجع ريثما نبدأ، وافقت المرأة فورًا، فذهبت تمازيغيت، ثم نادت إلى أنا لينورا، فذهبت إليها، أساعدها مع ناتير الذي كان يقف بعيدا يرقب كل شيء ويتيقن من خلو الشارع بالمارة، طلبت تمازيغيت من المرأة أن تأتي إلى الداخل، ونامت على طاولة خشبية، ربطت يديها إلى الخلف، ثم باعدت بين رجليها وربطتهما جيدًا، أتت من فوق رف ما على الحائط بشيء من تلك الأحشاء المجففة لقط ما، خلطتها بزيتا وقطرات من دماء قط كانت تربطه إلى طاولة جانبية فتحت في جسده فتحة صغيرة انسالت منها دماؤه في الطبق الفخاري الذي بحوزتها، ثم أتت بشيء خاص كانت تحفظه جيدًا، رفاة لجنين مات في بطن أمه، وضعت منه في الصحن، وأتت ببخور أشعله وتركت رماده يسقط في الصحن حتى امتلأ نصفه تقريبًا، بملعقة خشبية مزجت الخليط كله وأفرغته في فم المرأة التي لم تعترض على شيء، رباه، أيصل الحقد إلى هذا الحد المفزع! كانت لينورا تحدث نفسها، عندما أفاقت على تمازيغيت وهي تربط فم المرأة جيدًا كي لا يسمع أحد صراخها!

***

(36)

1997م

عايدة،

كلا، لم يعد الأمر مقتصرًا على الأحلام المزعجة أو الكوابيس المجسّدة، ولم يعد يأتي لها تجسيد لطيف دياب زوجها، لم يعد يطاردها في كل مكان ليلًا، لم تعد لا ترى النوم، ليلًا فقط، لقد صار الأمر ليلًا ونهارًا.

هي تراه أمامها، تراه واقفًا في جلبابه الأنيق، ينظر لها طويلًا، ثم يجري عليها فجأة كجري العدائيين يحاول خنقها بكلتا يديه وعيناه تشعان غضبًا ونارًا، فتصرخ صرخة مدوية توقظ كارمًا وسليمًا ليأتيا إليها فلا يجدا شيئًا مما تقول، ما إن ينهكها الإعياء بعد ساعات من الصحو، فيغلبها النعاس حتى ترى الكابوس، الذي لم يتغير منذ اثني عشر عامًا، هي واقفة على باب المنزل القديم تحتضن طفليها في الظلام، ملطخة بطين، طين لا يذهب مهما غسلت يديها أو ثيابها، لكن الكابوس تحول، أخذ مسارًا آخر، كانت تختنق، تموت شيئًا فشيئًا لتصحو فجأة، وتفتح عينيها، لترى ديابًا فوقها، مجهزًا على رقبتها بكلتا يديه،

وعيناه كأنهما لهيب، يحترقان في غضب، ثوان ليعود لها صوتها كي تصرخ، تصرخ بكل ما أوتيت من قوة، أو بكل ما تبقى لها من قوة، ما إن تخطو داخل المنزل فتشعر، وكأن هناك ظِلًّا خلفها، شيء يحوطها من كل الاتجاهات من الخلف، كأن خلفها عباءة سوداء تحتضنها دومًا وأنفاسًا حارة تنفخ في وجهها، فتجري إلى أي مرآة في الشقة، وتقف أمامها، أو تذهب إلى مرآة باب الشقة التي بحجم الباب وطوله، فتجلس على الأرض أمامها، كي لا ترى ما ترى ولا تشعر بما تشعر وهي تتجول في أرجاء المنزل لا ترى ما خلفها، ساعات طويلة تجلس على الأرض أمام الباب، حتى أدرك كل من كارم وسليم أنه لا مفر ولا مهرب، لن يكونا غبيين أكثر من هذا، اتفقا على كل شيء، ثم جلسا بهدوء، وقبل أن ينطقا بشيء، عرفت عايدة ما يريدانه تمامًا، فقالت لهم، أنا موافقة.

متى الموعد؟

***

(37)

2000م

ظل جمال يدق على الزجاج الذي تم حبسه داخله، الزجاج الذي لا يراه!

لم يكن مصابًا ب الكلستروفوبيا، الخوف من الأماكن المغلقة، لكنه حتمًا سيصاب الآن.

كان يحسب أن الليل مخيف، لكنه كان في الخوف ذاته، فكر ربما لو هدأ قليلًا؟ ربما هو حبيس أفكاره؟ ربما هذا الشلل في جسده هو شلل نفسي، لكن كل هذا باء بالفشل، فأدرك أنه وقع أسيرًا لدى سكان القلعة، إنه الآن في أرضهم، ولا بد أن يتفاهم معهم بطريقتهم، كان كل ما فيه مشلولًا عدا فيه، فبدأ بالكلام، كان ما قرأه من الكتب عن اللاماورائيات يتبادر إلى ذهنه الآن فقال بصوت مرتعش لكنه عالٍ، أنا اسمي جمال وأريد الذهاب إلى بيت المقبرة المقدسة، إلى بيت الساحرة، هذا أو دعوني أمضي إلى حيث جئت، هل هناك من يسمعني؟

دقائق مرت، ثم تلاشت القبضة حوله، فأصبح حرًّا مرة أخرى، لكنه وفي ثوان قبل أن يطلق ساقيه ويهرب، هناك من أطاح به أرضًا، انقلب على وجهه، ثم قبضت على قدميه يد كبيرة غليظة، ثم بدأ السحل، كان يُجر على الأرض على بطنه متشبثًا بأصابعه في الأرض التي يسحل عليها إلى أن سالت الدماء من أظفاره، مخلفًا وراءه آثار أصابع كف يديه، ثم لاحظ في أثناء صراخه بآثار أقدام تمشي على آثار أصابع يديه، هناك من يسحبه إلى الخلف وهناك من يمشي خلفهما أيضًا، ظل الأمر هكذا إلى أن توقفوا، انسحبت اليد التي تقبض على قدميه وتركته، فنظر خلفه، فإذا هو أمام بيت، بيت كبير لم يتصدع أو يصبه خدش، بيت مغلق كل ما فيه، الأبواب والنوافذ و.. هناك من فتح الباب لثوان بعد أن تم الطرق عليه من العدم، هو لا يرى أحدًا، لكن هناك صوتًا خلفه قال له في غلظة، قِف، أنت في حضرة سيد حراس المقبرة، أنت في حضرة سيدي ثُلي.

***

(38)

1625م

كيف تتحمل امرأة كل هذا الألم؟ نعم، إنها الغيرة يا عزيزتي لينورا، قالها ناتير عندما اقشعر جسد لينورا بما تفعله تمازيغيت بالمرأة المثبتة على السرير الخشبي، أتت تمازيغيت بشيء يشبه إبرة الخيط، رفيع، طويل، حاد، قرأت عليه تمازيغيت شيئًا ما في سرها، ثم أبعدته عن فمها وقالت بصوت عالٍ: "الآن يا خادم سيدي، الآن، المدد المدد، العدد العدد، الطاعة الطاعة، طُليسمت طُليسمت،غشيم الليل عُذبت ثم اُحكمت، نهار الأفعى يدور حول الروح وتنسلخ أُظلمت، أقسمت عليك بحق السيد وحق النذور، أقسمت عليك بحروف النور، أقسمت عليك بالعهد الذي بيني وبين سيدك أن تلبي ما أقول." ثم قالت شيئًا آخر في سرها، أدركت من ناتير أن ما تقول في سرها هو الاستدعاء الخاص بعد هذا، لكنها لا تخبره بصوت عال كي لا يذاع سر عزائمها ولا تعرف المرأة ما قالت، قبل أن أقترب لأسمع ما تقول كانت قد انتهت لكني سمعت كلمة، قبل أن تبدأ المرأة بالصراخ، جُزعت إلى الخلف عندما غرست تمازيغيت الأداة الحادة في قدم المرأة، لم تطعنها وتسحب تلك

الإبرة، لقد ظلت الإبرة مكانها في جسدها وبدأت تمشي تمازيغيت بالإبرة في جسدها، كانت ترسم بها عليها شيئًا، كتابة غريبة وحروفًا ورموزًا وصعدت حتى فخذها اليسرى مخلفة وراءها سيلًا من الدماء، ثم صنعت بالإبرة دوائر على بطن المرأة وما تحتها، ظلت الدوائر تترف قليلًا ثم كثيرًا، ثم أمسكت بالإبرة ووضعتها في منطقة الرحم، غرستها بكل قواها مرة واثنتين وثالثة ورابعة وخامسة كنت على أتم استعداد للفرار، لا بد أنها ستموت الآن وسيتم القبض على تمازيغيت، لا بد أن هذا ما سيحدث، لكني وجدتها بعد دقائق، تمازيغيت تمسك الإبرة مرة أخرى، تقرأ عليها شيئًا، ثم مشت في نفس الاتجاهات إلى رسمت بها على جسد المرأة، كل شيء كان يختفي مرة أخرى كأنها تمسح آثار بقع من طين على أرضية مطبخ، عادت ورسمت الدوائر على بطنها مرة أخرى باتجاه عكسي، فإذا الدماء تختفي، ووخزت رحمها مرة أخرى فإذا نزيفه يقف، ثم قامت المرأة بعد ان انتهى صراخها وعذابها وقالت لتمازيغيت عندما تأتي البشري، ستجدين ما يسرك، وأسرعت إلى باب المترل ورحلت، مخلفة وراءها عصارة أمعائي كلها على الأرض لم أستطع منع نفسي أكثر من هذا.

***

(39)

2008م

خمس سنوات مضت، على منوال واحد لا يتغير، ليديا وجمال يأتيان بقط ما أو كلب ما أو ثعبان ما، يضعانه على طاولة التشريح الخاصة بكارم، ليبدأ هو في التشريح البسيط، عينٌ ما تقتلع من مكانها، أو أسنان تقتلع هي الأخرى، كان لا بد من التعذيب حتى يتم تُلي انتقامه، ثم يبدأ كارم في تصفية الضحية، تجفيف أعضائها وطحنها ثم تخزينها في قدور عميقة من الفخار وأحيانًا أخرى كان يأخذ منها ما تريده ليديا ويترك الضحية تتغذى على محلول ما معلقة في هواء سقف الغرفة مربوطة كأنها ثمار يتم تجفيفها، إنهم يفعلون هذا في الفواكه وبعض الأطعمة المراد تجفيفها، ما الغريب في الأمر؟ لم يعد كارم يهتم بتلك الأسئلة التي يطرحها على نفسه، كان قد تعود بعد كل تلك المدة، لكن الأمر الذي لم يفهمه هو ليديا، إنها دؤوبة بشكل لا يصدق، لا تمارس أي أنشطة غير هذا، لا تفعل مثل الفتيات أبدًا، لم يرها مرة واحدة في أي مكان للترفيه، كل محاولته للفت نظرها كانت تفشل، تمامًا كما فشلت كل محاولات جمال أيضًا، إن الحب يضفي على كل شيء بريقًا ما، حتى تلك

الطقوس التي يمارسونها، بكل ما تحمل من قبضة في المعدة أو توجس، ربما بعض العاطفة تكون جيدة، لكنها كانت كمن يحمل أثقالًا على قلبه، هي تعمل نهارًا كجمال لتأتي بقوت يومها وتأتي ليلًا معهم كي يعملوا على ضحية جديدة، ربما كان كارم له حظ في أموال ورثها عن أبيه لا يقلق كثيرًا على لقمة العيش مثلهم، لكنه كان يعمل نهارًا كي يبعد عنه أي شبهة مريبة، إذا تم سؤاله أين تعمل؟ كان جمال هو الوحيد المعروف ما يريد من كل هذا العمل، هو يريد الثراء، ولكن ليديا وكارم، نياتهم لم تكن واضحة في بادئ الأمر، حقًّا ما الذي يفعله كارم لسنوات مع هؤلاء؟ هم أنفسهم لا يعلمون شيئًا، لكن هناك واحدا فقط غيره يعرف جيدًا لكنه طلب منه ألا يقول شيئًا، وكان ثُلي حافظًا لكلمته لم يقل شيئًا.. بعد.

(40)

1625م

كان الخبر قد أُذيع في البلدة على نطاق واسع، الفزع والذعر كان أقوى من الاحتمال، لكن ما حدث كان أقوى من أن يصدق وأقبح من أن يُحكى أو يروى، سمعت لينورا الحديث بين امرأتين في السوق الكبيرة، لكن ما سمعت أثار اندهاشها لثوان ثم أدركت جيدًا مع من تعيش، الخبر تناقلته النسوة في السوق الكبيرة، ألا تدرون ما حدث لأرملة الصابر بن قاسم بالأمس؟ لقد كانت حاملًا في شهرها الرابع تجلس على السرير وإلى جوارها أمها ثم بدأت تصرخ من الألم، كان هناك نزيف بدأ من قدميها ثم ظل يتصاعد إلى الأعلى إلى بطنها، ألا تصدقون؟ لقد أقسمت أمها على أنها رأت دوائر تُرسَم على بطن ابنتها ثم نزيفًا من أعلى الرحم، كأن هناك من يغرس إبرة في رحم ابنتها؟! ما هي إلا دقائق وبدأ نزيف من الرحم ثم سقط الجنين التي كانت تحمله، ربما كانت ممسوسة من الجن أو ربما أمها مجنونة، لا أحد يعلم، ألا تعلم ما حدث لأرملة الصابر بن قاسم بالأمس؟

هرعت لينورا إلى البيت لتسأل ناتير، كان قريبًا منها مشفقًا عليها، فأخبرها بكل ما يعرف، لقد أكلت المرأة بالأمس ما يحميها من الجان قبل أن تبدأ تمازيغيت بالطقوس، نعم يا لينورا، تمازيغيت تقدر أن الأمر أكبر مما تظنين، تمازيغيت أقوى مما تظنين، حتى تسردونت نسيمضال ليست مجرد من جان المقابر، لقد كانت في مهنة تمازيغيت، لكنها فعلت الشيء الذي جعلها هكذا، لقد كانت أرملة حديثة العهد بالترمل، لم يفت على وفاة زوجها شهر، حتى بدأت تعرف رجلًا غيره، كانت صديقة له أما الناس فقالوا إنها كعشيقة له، ما إن عرف الناس هنا حتى رجموها، قتلوها، لا أحد يدري إن كان قتلها ظلمًا أم كانت تخون ذكري زوجها في أثناء العدّة، هي إلى الآن لم تخبر أحدًا بالحقيقة، لكنها ولأنها كانت ذات نفوذ في العالم السفلي أيضًا، أصبحت سيدة المقبرة، وسيدة المقبرة المقدسة في المغرب، هناك سيد في مكان آخر، للمقبرة بوابات وتلك هي البوابة الغربية، لكن ليس هذا وقته، ما أردت قوله لك هو، أن تمازيغيت هي أخت تسردونت نيسمضال، بعد أن قُتلت تسردونت بدأت في الظهور وتعذيب المدينة كلها ليلًا، لن يجرؤ أحد على الاقتراب من تمازيغيت مهما تفعل، وأنها أيضًا لديها حماية أخرى، حماية مستمرة لأنها قدمت الولاء لسادة المدينة من الرجال ذوي النفوذ لقد قدمت قبلك كثيرات قبل أن تقدمك أنتِ.

كانت تمازيغيت قد عادت من الخارج، ناظرة إليهم كمن تعرف ما يقولون لكنها لا تبالي بشيء، دقائق ثم سمعوا لغطًا وسخطًا كبيرًا يتزيد، ليس على مقربة لكنه صوت مسموع ثم طرقات ثابتة على الباب.

(41)

2000م

وقف جمال بعد أن بلع ريقه بصعوبة، ناظرا أمامه كما طُلب منه، ثم رأى أفاعي حوله، ثلاثة أفاعٍ زحفت حتى وصلت إليه أمام باب الدار، ورابعتهم كانت أفعى كبيرة كالتي يراها في أفلام الرعب الأجنبية، اهتزوا في الأرض بسرعة كبيرة جدًّا ثم شيئًا فشيئًا تشكلوا على هيئة، مخلوقات ذات طول كطوله أو أقصر قليلًا نحيفون البنيَة لكنهم كانوا ذوي عضلات، رؤوسهم مُشعِرة، وعيونهم تضيء، كإضاءة عيون القطط ليلًا، تنحوا جانبًا إلى الذي كان أقصرهم قامة، لكنه كان باديًا عليه أنه سيدهم، تقدم إلى الأمام خطوة ثم قال، أنا ثُلي، سيد حراس المقبرة المقدسة، ما الذي تريده هنا يا هذا، حسنًا، كان جمال كما يطلقون عليه إنسانًا عمليًّا للغاية، مشاعر الهلع أخذت وقتها كما ينبغي، لديَّ الآن مهمة ولا بد من تنفيذها، لقد تخطيت مراحل الصدمة الأولى، فتح فمه وقال لثُلي، أريد الدخول إلى المقبرة لأحصل على الشيئين، على الكَترين، لقد ظننتها مزحة من قبل عجائز القرية، لكن ما إن رأيتكم حتى أدركت أنها حقيقة تامة، أنا أريد الكترين، قال ثُلي، العابر من هنا يحصل على

كتر واحد فقط يا هذا، هذا إن سمحنا له أولا بالعبور، فقال له جمال، حسنًا أريد المال فقط، فقال له ثُلي، لك ما أردت إن أطعت، وإن أطعت فلا هروب، لا بد أن تكمل المشوار إلى النهاية، هز جمال رأسه بالموافقة، فأكمل ثُلي حسنًا، أنت ذاهب إلى القاهرة للدراسة في الجامعة، ستذهب وستكمل وستدخل ذات الكلية التي كنت تريد، لا تذهل يا جمال، أنا قرأت ما يدور في خلدك من على أبواب القلعة، ستنفعك كثيرًا مستقبلًا لتعرف الآثار جيدًا، وسترى هناك فتاة هي الأخرى تسعى إلى شيء لدينا هنا، الفتاة تدعى ليديا وهي على عهد معنا، عندما تصل إليها ستخبرك ليديا بكل شيء، وسأعرف كيف أوصلها إليك، الآن اذهب إلى خارج القلعة، ولا تعد إلى أن تكمل ما سوف نطلبه منك لاحقًا، ارحل.

قالها ثُلي ليجد جمال بعدها نفسه مُلقًى خارج القلعة أو آثار القلعة إن صح التعبير، وجد نفسه بالخارج على أول الطريق متنعمًا بالنور الذي افتقده بالداخل في الظلام المخيف الذي كان فيه، يمكنه العودة إلى منزله الآن، لينتظر أول الغيث.. القطرة.

***

القطرة..

(42)

1625م

فتحت تمازيغيت الباب فرأت رجلًا، ملابسه تدل على وظيفته، لقد كان من رجال السِّلطة في المدينة وقد اشتكى له الأهالي عن واقعة الأرملة، هم لا يستطيعون أن يفعلوا بتمازيغيت ما فعلوه بأختها تسردونت نيسمضال، هم لا يقدرون على إيذائها، لكنهم يقدرون على أن يشتكوها، تجمهر الأهالي على مقربة من المنزل لكن ليس بالحد الذي يؤذيهم، فقط ليسمعوا ما سيقوله الرجل لها، قال لها، سيدة تمازيغيت هل أتت لك امرأة منذ يومين وقمتِ بعمل سحر يضر أرملة زوجها الأخرى، نفت تمازيغيت كل شيء، تعجبت لينورا مما تسمع، هل هذا سؤال استجواب أم أنه؟ أم أنه؟ اقتربت قليلًا من الباب فرأت الرجل، كان هو ذاك الرجل، هو الرجل الذي وضع على فخذها قطعة المعدن، الرجل الذي أخذها في المقبرة المقدسة، الرجل الذي، قدمت له تمازيغيت الطاعة، الرجل الذي قُدِمت له لينورا كهدية كي..، ثم أدار الرجل رأسه إلى أهل البلدة قائلًا لقد أقسمت ونفت المرأة أرملة الصابر بن قاسم الأولى، ونفت وأقسمت السيدة تمازيغيت، فلا شهود ولا أدلة عليهن، على كل المتجمعين أمام المنزل بالانصراف، الآن.

ابتسم الرجل إلى تمازيغيت ورحل هو ومن كانوا معه من جنود وحاشية يحرسونه ثم رحل كل من كان واقفًا، ربما نظر البعض نظرات ذات مغزى، إن في الأمر شيئًا، لكنهم لا يمكنهم فتح أفواههم، لقد قال كبيرهم هذا السيد إن كل شيء على ما يرام ولا قضية، إذًا، فلا قضية.

لكني لن أنسى نظرة الرجل إلى تمازيغيت، وعندما بادلته ذات النظرة، كلاهما يعرف، وكلاهما راضٍ، لقد كان جسدي ثمنًا لأمان تمازيغيت فوق الأرض للطبقة ذات السلطة، وكانت أختها ثمنًا لأمانها تحت الأرض وفوقها لطبقة العامة من الناس الذين يخافون، ألم تسمع ما جرى لأرملة الصابر بن قاسم؟

(43)

1999م

في حديقة مصحة نفسية، أنيقة المظهر، كئيبة الأجواء، باهظة التكاليف، كانت تجلس عايدة في الحديقة صامتة، هادئة، تنظر إلى اللاشيء بذهول..

كان كارم وسليم في انتظار الطبيب المعالج، لربما يخبرهما أنها تحسنت، أو أنه قد حان وقت عودتها إلى المنزل، ربما.

صباح الخير يا كارم أنت وسليم كيف حالكما، قالها د.منعم وجلس خلف مكتبه ضامًّا يديه مبتسمًا قليلًا، رد عليه سليم بالتحية فسأله كارم، كيف حال أمي يا د. منعم؟ رأيتها قبل قليل كانت تبدو هادئة جدًّا؟

أخذ د.منعم نفسًا عميقًا، أمسك بالقلم يعبث به قليلًا وهو يتحدث، أنت تعرف يا كارم أنت تعرف تشخيص السيدة عايدة وحالتها لم تكن سهلة، وشبح والدكم الذي تراه حولها في كل مكان، هناك أشياء أعتقد أنكم الآن على قدر من الفهم والوعي لتستوعبوا ما ستعرفون، حتى تفهموا ما أقصد، الحالة، أقصد السيدة عايدة عندما أتت لم تتحسن في البداية ثم حدثت لها انتكاسات.

أخذ نفسًا عميقا آخر ثم قام من مكانه تناول شريطًا، شريط فيديو مكتوبًا عليه، عايدة، غرفة 102، فبراير 1999، وضعه في جهاز الفيديو وضغط على زر التشغيل وجلس مكانه، ظهر على الشاشة غرفة عايدة، وظهرت هي في سريرها، كانت عايدة نائمة تخنق نفسها بيديها!

بدا الأمر كأنها تحاول نزع يدًا خفية تخنقها، لكن على كاميرا التشغيل كانت يديها، يداها تخانقها، ثمقامت مفزوعة تنظر أمامها، قفزت من على السرير وارتمت مستندة إلى الحائط تصارع في الهواء شيئًا لا يراه أحد، تجري في أنحاء الغرفة ثم تصرخ صرخات مدوية، لم يظهر منها سوى كلمة، اتركني، ثم يتعالى صراخها أكثر فأكثر فيدخل طاقم التمريض مسرعين يعطونها حقنة ما، فتهدأ وتنام.

في سؤالها عمَّن يطاردها أخبرتهم أنه شبح دياب زوجها، يريد أن يقتلها انتقامًا منها..ثم تصمت.

سألهما د.منعم وهو ينظر في عيني سليم، هل هناك علاقة بين اختفاء والدكم وبين السيدة عايدة؟

نظر كل من سليم وكارم إلى بعضهما البعض، ثم نظرا إلى د. منعم، وقال كارم: كلا بالطبع لا، ليس لأمي أي علاقة باختفاء أبي، أنا أرى أن حالتها هنا أسوأ لو تسمح يا د.منعم أنا أريد أخذها معى إلى المترل.. .الآن.

أنه مشفى خاص، هي ليست سجينة، كان يعلم كارم أنه سيخرجها وقتما تريد لكنها لم تطلب قط منهم أن يخرجوها، لكنها أيضًا لم تمانع حينما عادت معهم إلى المترل، كان سليم سعيدًا بعودة أمه، لكن كارم كان يفكر، يفكر

كثيرًا فيما كان يشك فيه منذ زمن بعيد، يريد أن يستجمع ما رآه تلك الليلة قبل سنوات، حينما كان الليل صابغًا كل شيء، عدا درجات السلم وثياب أمه المتسخة بالطين، وأباه الذي لم يعد قط؟

أن تعرف أو لا تعرف

أيهما أسوأ؟

سيقرر ولكن قال لنفسه.. لاحقًا.

***

(44)

1625م

غثيان، كل ما كانت تشعر به لينورا هو الغثيان المستمر، كلما ضعفت قليلًا أو تراجعت، ذكرتها تمازيغيت جيدًا، ذكرتها بأختها، ذكرتها بأن البشر لا أمان لهم، وأن ما تفعله فيهم حلال، ذكرتها بأنهم يأتونها مقبّلي الأيادي كي تساعدهم على الانتقام من بشر مثلهم، إنهم ليسوا ملائكة بل هم مجرمون، جنوا على بعضهم بعضًا، كانت لينورا تسمعها وتصمت، كانت تعلم تمازيغيت كيف تضرم النار في صدرها، هي تريد الانتقام لأختها ولكن، ولكنها ليست بالقوة والشر الذي توسمته فيها تمازيغيت، لكن الشر سهل، سهل جدًّا يا عزيزتي.

في غرفة بالمنزل، غرفة لا أحد يعلم بمكانها سوى سكان المنزل فقط، ليس سهلًا أن تميز باب غرفة ما، خاصة إذا كان هو والحائط سواء؟

أشعلت تمازيغيت النار وأتت بصندوق فتحته، كان الصندوق يحوي ثعبانًا، كبير الحجم، ملتفًّا حول نفسه، قابعًا في انتظار الطعام، يثير القشعريرة من منظره، فتحت له تمازيغيت الصندوق وألقت إليه بقط صغير الحجم، وأغلقت

الصندوق عليهما، لم يكن صعبًا تخيل المشهد، قضم الثعبان القط من عنقه بعدما صرخ القط الصغير بمواء مفزع، صمت بعده بثوان، صمت عن الحياة كلها صدى صوته، ثم صمت الثعبان عن الحركة كذلك بعدها بدقائق!

فتحت تمازيغيت عليهم الصندوق لتجد الثعبان مخدرًا كما تريد، انتشلته، الثعبان وما داخله من جثة القط الصغير ووضعته على النار، كانت رائحته لا تطاق، وبدأ الثعبان يفيق قليلًا ويتلوى، لكنها أحكمت القبضة عليه بحجر ثقيل وضعته فوقه، بعد أن أصبح رمادًا، لملمت آثاره ووضعتها في قدر على النار، واضعة عليه زيوتًا وبعض الأوراق المكتوبة حتى أصبح كخليط ثقيل لزج، وضعته جانبًا، ثم ذهبت لتغير ثيابها قبل حلول المساء.

كانت طرقات على الباب من رجل، لم يكن يأتيها كثير من الرجال لكن بعضهم يأتي طالبًا إياها أن تفعل له ما عجز عنه، دخل الرجل، فتح له ناتير الباب وتأكد أن لا أحد خلفه وأغلق الباب عليهم.

استقبلته تمازيغيت بترحاب، وأجلسته، وطلبت من ناتير أن يقوم باللازم لتجهيزه.

دخلت لينورا إلى غرفة غير مكشوفة بالمنزل، وأتت بالقدر، ذاهبة به إلى غرفة التحضير، كان الرجل ممدَّدًا على طاولة خشبية، جرده ناتير من ملابسه إلا ما يستر به عورته، دخلت تمازيغيت عليهما ووقفت لينورا تشاهد على مَقربة، فهي الآن في درس تعليمي، عملي، لا يتاح للكثيرين حضوره حتى وإن أرادوا.

وضعت تمازيغيت قفازين على يديها، ثم أتت بالقدر تأخذ منه شيئًا فشيئًا، تضعه على جسد الرجل وتدهن به جسده بالكامل، ظلت هكذا إلى أن غطت جسده كله بالخليط اللزج، أشعلت النيران الخافتة بالغرفة واقتربت من أذن الرجل، ثم تلت عليه: "بحق اهيا شراهيا براهيا ادوناي اصبا ؤت آل شداي بحق الأقسام والأسماء المكتوبة على قوائم العرش وبحق ما كتب على النجم البراق وبحق سيدكم ثلي الخناق وبحق الأقسام المكتوبة على قلب الشمس والقمر وبحق التراب والنور وحق من خلق الجان وبحق الذي قال للسموات والأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين، اقبلوا وأسرعوا بحق الكف العظمى، وبحق اهيا شراهيا براهيا ادوناي اصبا ؤت آل شداي وبحق والطور وكتاب مسطور، والرق والسقف المرفوع، والبحر المسجور، أطيعوا ما تأمرون وافعلوا ما يتلى عليكم، الجسد أمان الجسد أمان الجسد هلاك الجسد أمان الجسد هلاك الجسد امان الجسد هلاك اطيعوا القسم وأوفوا العهد الا ما اقتسم جسد العبد "، ثم أتت بمطرقة جوارها وانهالت على جسد الرجل تهشمه، كأنه مخبوزات الليلة الماضية، تطحن في عظامه فيصرخ متأوِّهًا انهالت على ذارعيه حتى أصبحا عظامهما فُتاتًا، وعلى رجليه حتى أصبح عظامهما رخوًا، كان كلما صرخ الرجل، كتم ناتير فمه، حتى ما انتهت منه، أشعلت في جسده النيران، وتعجبت لينورا أنه لا يزال حيًّا بعد هذا، لكن تمازيغيت أتت بطائر، ديك، كتفت جناحيه إلى الخلف، أمسكه ناتير من عنقه، ثم ذبحه فوق جسد الرجل، خلعت تمازيغيت القفازين من يديها، ثم على يديها كتبت حروفًا من حبر بدأ يسيل مع دماء الديك عندما قامت بدهن الرجل مرة أخرى بيديها، بدماء الديك والحبر، انطفأت النيران ما إن لمست جسده بيديها، تلطخ

جسده بالسواد، ثم قالت العزيمة مرة أخرى، وتركت الرجل، عرفت اسمه عندما طمأنته تمازيغيت بعدها، أنه، هاشم بن كليم، تركته وقتا ليرتاح، ليقوم بعدها وكأن شيئًا لم يكن، اغتسل أولًا، وساعده ناتير ثم خرج من باب الدار، مسرعًا إلى بيته، هو لم يغادر بيته ابدا، هل رأه أحد في هذا الظلام يذهب إلى منزل المشعوذة تمازيغيت؟ لم يره أحد؟ إذًا فهو بريء.

لم تلبث ساعات الصباح كي تعلن عن نفسها حتى دوت في المدينة الحادثة، الخادم يصرخ ما إن خرج من غرفة، سيده، شهاب الدين، كان نائمًا في الغرفة وحده ليلًا، من الذي قام بالدخول عليه وتحطيم عظامه وسحقها ثم حرق جسده، هل يكون السيد هاشم بن كليم، شريكه في تجارته هو من فعلها؟ وهل تصل الخصومة إلى هذا الحد؟ كلا، لقد كان السيد هاشم نائمًا في منزله ليلًا؟ إن خدمه كلهم أقسموا؟ لم يره أحد خارج الدار بالأمس؟ لا بد أنهم اللصوص؟! الأوغاد.

***

(45)

2011م

ما تطلبونه هذا شيء مستحيل،ليس فقط اخلاقيا، كلا انتم أيضًا تريدونني ان ادخل السجن!

كانت تلك صرخات كارم، حينما جاء وقت اكتمال المطلوب كي تفتح المقبرة، كان لا بد من اكتمال كل شيء، كل شيء مهما يكن.

نظر إلى ما خرج من الحقيبة القماشية، لم يخرج منها قطًّا أو ثعبانًا أو حيوانًا ما ككل مرة، تلك المرة قد خرج منها ما لم يحسب له كارم حسبانًا من قبل،.

كان الأنين مختلفًا تلك المرة، أنينًا ذا بكاء حاد، ثم بدأ كل شيء يتضح عندما رأي شعرًا ناعمًا أسود، ورأسًا صغيرًا ذا بشرة بيضاء، وسطه عينان سوادهما غطاه بُحيرة من الدموع أغرقت وجه ذلك الفتى الصغير ذي الأعوام الأقل من سبع، مكتوف الأيدي والأرجل ومكمم الفم، لا يمكنه سوى الارتجاف والبكاء والأنين، والخوف!

نظرت ليديا إلى كارم وهي تترجاه تارة، وتهدده تارة أخرى، هل تريد أن يضيع مجهود السنين التي فاتت كلها، لا بد أن نفعل المطلوب بلا نقصان، ولا بد ألا نهدر المزيد من الوقت، ليس أمامنا متسع الآن حتى نذهب في الموعد المتفق عليه لفتح المقبرة، لا بد من أن نفعل هذا حتى نحصل على الطلسم، لا بد.

وقف جمال عاجزًا عن الكلام لكنه كان مع ليديا في رأيها، لكن كارم كان خائفًا حتى من أن يفكر في أمر كهذا، إن العالم الذي يقتل ويذبح ويقطع فيه أوصال الحيوانات فيه، إلى حد تلك اللحظة، عالم لا يحاسب عليه القانون، هل قام أحد بالإبلاغ عن فقدان جني أو تشريح أعضائه؟ هل سيسجن إذا اتهم بقتل بعض القطط؟ إنه يدرس علم التشريح، أليس بيطريًّا؟

لكن أن يتم التضحية بالبشر، لم يفكر بها حتى على سبيل المزاح!

لا بد أن يأتوا بالطلسم المدفون في جوف المومياء، لا بد أن يتم فتح عشرات المقابر، لا بد أن يتم التضحية أمام كل مقبرة منهم، لا بد أن تسال دماء الزُهري، لا بد من طفل زُهري أن يموت، كي يعيشوا هم حياة الأبدية آمنين، إلى هنا الأمر لم يعد مجرد ثلاثة أصدقاء يقومون بأعمال وتعاويذ وأشياء غريبة، إلى هنا سيتحولون إلى مجرمين، مكانهم إذا تم كشفهم سيكون رداء أحمر اللون أعلاه حبل ملتف حول عنق كل منهم كي يجد مثواه الأخير في الجحيم، أعلن كارم عن رفضه، صرخ في وجه ليديا وجمال، ثم خرج إلى الأرض حول المنزل القديم، يتجول وحده ليلًا، لعله يجد مخرجًا، لعله.. نادته ليديا بصوت خفيض قائلة له: أنا اعلم، تُلي أخبرني، أنا أعلم مكان دياب.. أبوك، هل تريد الذهاب إليه!

سيعلم الرّب أتباعه.. ..

(46)

1625م

ثلاثة أشهر مرت، وكأنها ثلاث سنوات، إن يومًا لدى تمازيغيت وفي حضورها، يمكنه أن يمر عليك كالدهر، كان الصراخ في أرجاء المدينة صباحًا هو أمر طبيعي من طقوس الحياة، اعتادته لينورا، فما يفعلونه ليلًا، يأتي ثماره الجوفاء بعدها بسويعات قليلة، كانت في البداية ترهب مشهد الدماء، لكنها الآن تنظف مع ناتير كل شيء، أليس هذا ما يفعله الجواري والعبيد في بيوت سادتهم؟ يمحون كل أثر لجونهم، لكنهم ليسوا لدى سيدة سليطة، ولا يخدمون في بيت عادي، إنهم لدى الآمرة الناهية في بلدة لا يوجد فيها من لا يخشى تمازيغيت أو تسردونت نسيمضال، لا يوجد؟

كان هذا اليوم هو الموعد، لم يخطر على بال كرستن، أو على بال أختها لينورا، إن ما أُعدمت غرقًا من أجله كرستين، إن ما حاكموها عليه في أقاصي الدنيا، إن التهمة التي كانت بريئة منها، إن التهمة بالفعل موجودة ولكنها ليست بالأمر الذي ظنته محاكم التفتيش، إن الأمر فاق ما كان يتصورونه يومًا.

تحت باب المريسي ليلًا، وأمام المقبرة، قامت تمازيغيت بفتحها بنفس الطريقة، تحت الباب خطت تمازيغيت ثم ركعت أرضًا وتحسست بيديها حتى وجدت ما أزاحت عنه التراب، وجدت حلقة معدنية دائرية، سحبتها إلى الأمام ولفتها يمينًا ثم يسارًا ثم سحبتها ولفتها مرة أخرى يمينًا ويسارًا، نظرت حولها بتأنٍّ حتى تتأكد أنه لا أحد هاهنا غيرنا، وقفت ثم ضمت كفيها إلى فمها وقالت: "لظى لظى لهيب لهيب نور نور يا ساكني القبور لظى لظى لهيب لهيب نور نور يا ساكني القبور بحق المقبرة المقدسة بحق تسردونت نيسمدال بحق باستت وحق السر، احجبوا عنا أعين الناس من كان منهم يرانا، ومن كان منهم يسمعنا، ومن كان منهم يتبعنا، نسألكم، الستر، الحجب، السر، لظى لظى لهيب لهيب نور نور يا ساكني القبور"، بعد أن أتمت قولها نزلت إلى الأرض مرة أخرى، ثم أدارت الحلقة مرة أخرى ففتح في الأرض باب كأن الأرض ذاتها انشقت ونزلت أولًا ثم أنا وبعدي ناتير، وأغلقت المقبرة من تلقاء نفسها، كان الأمر مختلفًا عن كل مرة، كانت هناك نسوة، ملابسهن مختلفة و ألوانهن مختلفة، كان يبدو عليهن أنهن من بلاد متفرقة لا يجمع بينهن سوى هذا المكان، حول تمثال القط الكبير كانت شموع كثيرة قد قُدّت، توجهت واحدة منهن بعد أن قالت شيئًا يفيد أن العدد قد اكتمل وكلهن قد آتين، بعد أن رأت تمازيغيت، توجهت المرأة إلى اليسار ثم أدخلت يديها في شق بالجدار ظلت تبحث عن شيئًا إلى أن لمست فيه ما تريد، شيئًا جعل الحائط يزخرف نفسه، كان هناك أشكال، تموجات كثيرة، كثيرة جدًّا، كان الحائط مثل الأرض الجافة ذات الشقوق، ولكن لم يسرِ فيها هنا مياة، بل سرى فيها شيء كخيوط الذهب، كانت المقبرة كلها في دقائق قد أصبحت منيرة بالكامل من

حوائطها، اتجهت المرأة إلى كفا مرسوما على أحد الجدران، وضعت عليه كفها ثم التصقت بالجدار كأنها تحضنه، مسحت وجهها فيه يمينًا ويسارًا ثم قرّبت فمها وقالت شيئًا هامسًا بصوت خفيض جدًّا، ألصقت أذنها بعدها بالجدار، ثم تراجعت إلى الخلف قليلًا، ركعت على ركبتيها، ففعلت مثلها الأخريات، ثم كان صوت التكسير، كان شيئًا ما يخرج من الجدار، صوت تكسير الجدار كان بطيئًا، مخيفًا، لكن الأكثر إخافة هو صوت الهمهمات والأنين الصادرة كلما زاد الانشقاق، إلى أن بدأ يخرج منه رجل، امتزج صراخه بدمائه بدموعه بعرقه في مشهد مروع، مكبلًا بأصفاد وحوله اثنان، طويلا القامة عنه، لهم عيون سوداء لامعة جدًّا، وشعر أسود كثيف جدًّا، طويل جدًّا، وضعوا الرجل في منتصف الغرفة ثم رحلوا من حيث جاروا، ما إن دخلوا في شق الجدار، حتى ثُني الجدار، وضم على نفسه فعاد كما كان مرة أخرى.

***

(47)

2011م

وقفنا أمام المقبرة، كما دلّنا عليها العارفون ببواطن تلك الأمور، رجل من أهل المنطقة على أطراف قرية في الصعيد يدعى مندور، سألته ليديا إن كان أحد علم بها من قبل، فقال متحمسًا، لا، كلا أبدًا، كل شيء إلا الأمانة!، فعلًا رجل أمين بحق، أخذ ماله لكننا كنا نعلم أنا لن نسلم من آذيته، إذا ظن أننا هنا لسنا للذهب أو خلافه، لا يوجد سوى حل واحد، أظل أنا وليديا أمام المقبرة، ويعود به جمال إلى المدينة، لم يرض في بادئ الأمر، لكن هددناه إذا لم يعد مع جمال، سنأخذ منه المال ولا نريد أي شيء، فوافق، لم يكن متأكدًا على كل حال أن هناك مقبرة حقيقية أو أنها مجرد معلومة، لقد كان من باحثي الخبر، يعرفون احتمال وجود المقبرة لكنهم ليسوا متأكدون من شيء أو أنها ستفتح من الأساس.

لكننا لسنا وحدنا، كان معنا بعض خُدام ثُلي، تطلبهم ليديا حينما يتعلق الأمر بمهمة، فكما نخدمه يخدمنا، لا شيء عشوائي، النظام هو من يحكم.

في المكان الذي حددوه لنا حراس ثُلي، بعد أن علموا بحضور الطفل الزُهري معنا، نزلنا بعتادنا، كانت المنطقة خالية تمامًا، لم يكن أقرب معبد إلا

على بُعد مئات الأمتار، الجو ليلًا، والشتاء لم يبدأ بعد، لكنه صقيع الخريف، يغيريك أن تخرج ليلًا، لكن لحسن حظنا، لم يخرج أحد سوانا، فتحنا الحقيبة وأخرجنا منها الزجاجة، المليئة بأعضاء القطط المجففة، المخلوطة بأشياء لا يعلم كنهها سوى ليديا! إنها تطهو لنا الطعام في المترل، وتخلط الأحشاء المجففة أيضًا، لديها وصفات لا مثيل لها، إنها امرأة!

صنعت دائرة حولنا، كنا فيها أنا وهي والطفل الصغير الذي كان مخدرًا طوال الطريق، أليس مشهدًا رقيقًا؟ أسرة سعيدة معهما طفل صغير ذاهبون إلى رحلة، لقد نام الصغير من التعب، أنزلته على الأرض، اكتملت الدائرة بخليط الأحشاء أولًا، ثم دائرة أصغر حولها زيت عطري، ثم دائرة أصغر وأخيرة من الشموع القصيرة، وضعتها ليديا إلى جوار بعضها البعض، وأشعلت كل واحدة فيها، ثم وقفت وقالت: "ألا يا من سمعت القسم أجب، أيا من سمعت القسم أجب، أيا من سمعت القسم أجب، عزمت عليكم يا معشر الأرواح الروحانية بعزعز وبنور وطُليسمات الغائم، ومعترقات أبناء لعين وأبناء شعين وبني قلضيعين إلا ما أقبلتم وأسرعتم فى قضاء حاجتى بحق التسابيح اليونانية والأقسام العبرانية والعزائم الملكوتية بسكون الأكوان وضريح الأركان وعزائم الوردان بحق حمكيل وشعيبيل ائتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين، أيا من سمعتم القسم أطيعوا، أطيعوا، أطيعوا، أقبلوا وأسرعوا بحق الكف العظمى، وبحق اهيا شراهيا براهيا ادوناي آل شداي، أتينا بالدماء الوردية والعيون النقية والروح المعنية، نقدمها طوعًا وطاعة، أتونا يا من سمعت القسم، أجب يا من سمعت القسم، أجب يا من سمعت القسم، أجب".

انطفئت كل الشموع مرة واحدة، ولم يكن هناك أي نور، حاولت إخراج الكبريت من جيبي أضيء به، فوضعت ليديا يدها على يدي وقالت، انتظر، الشموع اشتعلت مرة أخرى، وحدها، ثم اشتعلت الدوائر التي صنعتها ليديا حولنا، لثوان كنا في حلقات من النار، ثم انطفأت الدوائر، وبقيت شمعة مشتعلة، ثم بدأ شيء ما يظهر خلف الدائرة، شيء كان ضبابيًّا في بادئ الأمر، لكنه يتضح الآن، كان حولنا ثمانية مخلوقات، طوال القامة، عريضو الصدر، لكن سيقانهم كانت رفيعة جدًّا، كانوا يضمون أيديهم على صدورهم، كنت أتلفت حولي وهم محيطون بنا من كل اتجاه، شديدو الشبه بالبشر، فيما عدا شيئًا لا يدع أي مجال للشك، كان سبعة منهم، لا يوجد لديهم فم، إن أفواههم مخيطة، مثل.. مثل ما أفعل أنا بالقطط!

(48)

1625م

تجمعت النسوة حول الرجل، منعني ناتير من الاقتراب، أشار لي بيده أن انتظر جواره، نرى، ولكن من على مسافة، مثل باقي الخدم، النسوة اقتربن من الرجل ببطء، ليس مخافة منه، ولكن، لإخافته هو شخصيًّا، كان باديًا عليه آثار التعذيب، حول عنقه التفت دوائر معدنية ينسدل منها سلاسل ملفوفة حول جسده، ما ظهر منها من لحمه كان مقطعًا، ممزقًا بقضمات صغيرة، كأن هناك عشرات الفئران قد قضمت أشلاء جسده من أخمصي قدميه حتى رأسه، وتلك القضمات تترف، جميعها تترف، تعجبت أنه لا يصرخ، لكني حينما رأيت وجهه فهمت، كان فمه مخيطًا، يسيل منه لعاب ممزوج بالدماء، لهذا لا يقوى على الصراخ، لكنه كان يئنّ، ناظرًا في كل أرجاء الغرفة متوسلًا بعينيه لكل من يحيط به، متأملًا أن يستنجد بإحداهن تنجده مما هو فيه، لكن لم يتعاطف معه أحد! اقتربت منه تلك المرأة التي بدا عليها زعامة النسوة، وكانت تقف جوارها تمازيغيت، تعجبت من الأمر بعد ما حكاه لي ناتير عن قوة وبأس تمازيغيت بسبب أختها تسردونت نيسمضال، أتكون تابعة لأحد؟ لكن لم يتسنَّ لي أن أفكر كثيرًا بالأمر، فقد بدأ الحفل، ارتصت حوله النسوة في دائرة،

واقتربت المرأة المتزعمة الموقف قائلة له بصوت هامس علا تدريجيًّا إلى صراخ، الآن؟ الآن تئن وتتوجع وتتوسل، الآن! ألا تعرف عقوبة من يخون عهد "خُريد وفروش " بيننا وبين پادشاهان غار؟ ألم تخف منهم؟ ألم تخف من سيدتك؟ ألم تخف مني أنا؟ أنا قُصيلم؟ ثم أمسكت قُصيلم شيئًا واقتربت من الرجل، نثرت فوق الحلقات المعدنية الملتفة حول عنقه شيئًا كالرمال، فإذا بالحلقات المعدنية تتوهج ويزداد توهجها شيئًا فشيئًا حتى انبعثت رائحة شواء لحم عنقه في المكان، ثم فعلت بالسلاسل حول جسده نفس الشئ، نثرت فوقهم تلك الرمال السوداء، كانت تلك الرمال في رحلتها من يديها إلى جسده يتحول لونها من الأسود إلى الأحمر ثم الأسود مرة أخرى، ثم تتوهج السلاسل لتشوي ما تبقي من جسده ويعلو صراخ أنينه في المكان، أغمض عينيه محاولًا بقدر طاقته أن تخرج من فمه المخيط صرخة تريحه وتخفف عذابه ولكن كان يترف فمه أكثر فأكثر ثم يتمدد الخيط مع صراخه ولا يُفتح فمه، ظل هكذا إلى أن ذاب لحم جسده كاملًا، ثم دُميت مقلتا عينيه وسال الدم من سائر فتحات جسده، ثم، ولحسن حظه، توقف عن التنفس، لقد انتهى عذابه عند هذا الحد، قامت قُصيلم بشق صدره، أخرجت قلبه، وضعته في طبق فخاري، ثم نثرت فوقه من يديها بالغبار الأسود، متمتة بكلمات، ذاب قلبه وتبخر في الهواء كعود بخور كريه الرائحة، ثم هوت بالطبق من أعلى فانكسر بما فيه، ثم جثت على ركبتيها أمامه وفعلت مثلها النسوة وكذلك ناتير الذي طلب مني أن أجثو على ركبتي، حَنَتْ قصيلم رأسها إلى أسفل ومعها النسوة، انتظرت دقائق، ثم جاءت رياح في المكان، رياح شديدة لا يمكن أبدًا أن تكون في مكان تحت الأرض، رياح دارت حولنا، أخذت رماد الجثة ورماد القلب

وطارت بهم في الهواء، عائدة من حيث أتت في آخر السرداب، وقفت بعدها قصيلم، وتبعتها النسوة، إشارة إلى أن كل شيء تم بنجاح.

خرجنا من المكان وأنا شبه فاقدة للوعي، حملني ناتير إلى المترل، سائرًا بي خلف تمازيغيت.

***

(49)

2011م

كان الطفل قد بدأ يفيق، فَفُزع مما رأي حوله، أمسك في قدمي، وزاد تشبثه بي عندما نظر إلى فوق فرأي تلك المخلوقات العملاقة ذات الفم المخيط والأنوف الرفيعة جدًّا وعيونهم الحمراء كالجمر، نظر إلى الطفل بعينيه السوداوين التي تخلع القلب، سوداء لامعة كأنها القمر في ليلة مظلمة، أمسكت ليديا كفًّا يديه لتريهما إلى تلك المخلوقات، كانت خطوط يديه متساوية ليست منحنية مثلنا بعينيه السوداء ويديه، كانت تلك علامات الزِّهري، هو زُهري الدماء، يمكن لدمائه فتح المقابر ويمكنه رؤية الجان بسهولة، هكذا تقول الأسطورة التي أخبرتنا بها ليديا، كنت على وشك الانهيار، فمهما بلغ بي الشر، لن أقتل طفلًا، لكني تخليت عنه، كي تقتله ليديا وأعوانها.

أخذه أحد المخلوقات الواقفة أمامنا من يديه، أراد الصراخ لكن عينيه بدأتا بذرف الدموع عندما وضع يديه على فمه، بعد أن فككنا وثاقه، ليجد أن فمه مخيط، لن يصرخ، فلن يسمعه احد، أخذته المخلوقات إليهم، شكلوا

دائرة حوله، وضعت ليديا سكينًا على كف يده محدثة فيه جرح صغير، سقط منه بقعة دماء على الأرض التي يقفون عليها، فانشقت الأرض من تحت أرجلهم وأمرونا بالنزول بإشارة من يديهم، لكني قبل أن أخطو إلى السلم، نظرت خلفي فوجدتهم شكلوا ذات الدئرة وأخذت الدائرة تضيق أكثر فأكثر فأكثر كأنها حلقات من نور ونار تصغر شيئًا فشيئًا، اختفوا في الدائرة ومعهم الطفل الصغير، هنا نادت ليديا على بصوت خفيض، كارم، هيا أسرع لا يوجد أمامنا متسع من الوقت!

دنوت معها إلى داخل المقبرة، لم تكن من المقابر ذات الذهب الكثير أو التحف الثمينة، أو ربما لم يكن هذا ما لفت أنظارنا هناك، ولم يكن مسموح لنا بأخذ أكثر مِمَّا اتفقنا عليه مع حراس المقبرة، كنا نبحث عمَّا نريد تحديدًا، ووجدناه، تمثال القط، تمثال باستت، الإله باستت، أخذناه ومضينا إلى الخارج بسرعة، كانت الرائحة بالأسفل لا تُطاق، لا هواء، لا ضوء سوى ما كان معنا من ضوء الهاتف المحمول، أسرعنا إلى الخارج، وما إن خطونا مترًا بعيدًا عن المقبرة، حتى أغلقت نفسها، لا يوجد سلم، لا يوجد بوابة، لا يوجد أثر لشيء.

***

(50)

1625م

فتحت عيني على ناتير يجلس جواري، كانت عيناه قلقتين على، شيء لا يمكن أن تتوقعه في مثل تلك الدار، العاطفة.

ناتير، الذي كنت أحسبه وغدًا، عرفت أن تمازيغيت اشترته عندما كان صغيرًا من سوق العبيد، فعلوا به ما يفعلونه بالعبيد الذين يرجون منهم القيام بدار الحريم، يقطعون نسله، كي يكون قويًّا، لكنه مأمون الجانب على نساء الدار، كان يفعل ما يؤمر تمامًا، بلا زيادة أو نقصان، أسرار تمازيغيت كلها معه، لكنه كان محيرًا، الشر فيه محير، والخير فيه محير أيضًا!

قبل أن أنطق بكلمة واسأل عما كان في المقبرة المقدسة، قال لي: ما رأيتيه اليوم يا لينورا هو جزاء الخيانة، الرجل الذي رأيته يتعذب، يُدعي سعدوف، كان مثلي وفي نفس وظيفتي ومقامي لدى سيدة مثل تمازيغيت تدعى برخيت، العهد الذي بيننا وبين "پادشاهان غار"، ملوك الكهف، كهف المقبرة المقدسة، العهد، عهد خُريد وفروش، عهد البيع والشراء، إننا لا نبيع ولا نشتري أيًّا

من أغراضنا الخاصة بأعمالنا إلا من ملوك الكهف لأجل حفظ السر، من يبيع شيئًا أو يشتري شيئًا، من خارج الكهف، ومن يخون سيدته، فله هذا الجزاء، أو تكون سيدته في ذات الجزاء إذا لم توقع العقوبة عليه، من يَخُن العهد يُحرق جسده، ثم يحرق قلبه اعتذارًا، وسعدوف خان العهد، فلا شفقة له اليوم ولا رحمة من لأحد، إن قُصيلم لا تتهاون في شيء كهذا أبدًا، أنها هي من عهدت العهد مع پادشاهان غار، فإذا خالفت العهد، وجدت مصيرًا أبشع مما وجده سعدوف بألف مرة ومرة، ولا بد لنا من الحضور، إن أي عقوبة لا بد للجميع من حضورها، وأنت عزيزتي لينورا، ستصبحين منهن يومًا، من نساء ملوك الكهف، تمازيغيت تنتظر فقط أن..، هنا لم أتمالك ما في أحشائي مرة أخرى، لكن ناتير نظر لي بفزع تلك المرة، بعينيه الزرقاوين على اتساعهما تصاعدت أنفاسه ثم اقترب مني، وضع ببطء يديه على بطني، فزع إلى الخلف فانسدل شعره الأسود على عينيه، عقد لسانه تلك المرة، أغلق على باب الغرفة وذهب.

***

(51)

2013م

سليم،

نظرت إلى المنزل، متعمقا بعد كلام ظيام، فوجدت العديد من تماثيل كان داخلها مومياوات القطط، مشقوقة، أو كسيرة، انهمرت الدموع من عيني، عندما علمت جيدًا ما هو ثمن كل تمثال من هذه القطط، كان الثمن هو.. .هو الصغار؟ كل مومياء منهن، كل قطة كسيرة، كان في أحشائها مومياء قطة فرعونية حقيقية، كسروا التمثال كي يأخذوا القطة المحنطة بالداخل، هكذا هو عُرف المقبرة المقدسة ب شالي، لا بد من أحشاء ثمانين قطة، هذا ما أخبرنا ظيام، لا أصدق، لن أصدق قبل أن أراه واسأله، هل كان أخي بهذه القذارة؟ كم من روح أُزهقت كي يحصل على تماثيله؟ كم طفلًا توسل له وبكى بقلب محترق وفم مخيط كي يتركه ولا يقدمه قُربانًا، كان المرار يتصاعد إلى حلقي، عصارة أمعائي تحتج على ما تسمع ونبضات قلبي كانت تضرب صدري بعنف أشبه بقرع طبول الحرب، هل يبكي الرجال؟ هنا أنا أبكي بكل جوراحي، رآني الشيخ معتز وأنا أدور حول أرجاء المنزل اتمسك بجدرانه، أريد الصراخ

لكني أخاف أن أصرخ حتى الموت فقط من هول الفكرة، ربت الشيخ معتز على كتفي قائلًا، تمالك نفسك يا سليم أرجوك تمالك أعصابك، قلت لك قبل إن تسمع الموضوع كله إن الأمر ليس بالهين، لكنك يجب أن تعرف الحقيقة كاملة كي تستطيع المساعدة.

العجيب في الأمر أن ميادة كانت تسمع كل شيء، لكن تأثرها كان غريبًا، غريبًا بالنسبة لفتاة؟ ظننت أني انهرت، ظننتها ستنهار وتبكي حتي النحيب، لكنها لم تفعل! ربما كان لديها ما يطلقون عليه ثباتًا انفعاليًّا لكنه زائد جدًّا عندها، ربما!

أكمل يا ظيام، قالها الشيخ معتز، ثم بدأ بعدها ظيام يكمل لنا حكاية أخي الملعونة، أخي اللعين مثل حكايته تمامًا.

***

(52)

1625م

لينورا،

صدمة على وجه ناتير، لكنه لم ينطق بكلمة، قال لي تعالَ معي، الآن.

أخذني من يدي، وضع على عباءة زرقاء ذات قلنسوة وضعها على رأسي، ومشينا إلى مكان بعيد عن المترل، بعيد جدًّا!

كان على وجهه نظرة تحدي، قلق، كان يهرول ملامسًا الأرض، كأنه لا يريد أن يمشي على الأرض بتؤدة حتى لا يترك أثرًا خلفه، قابضًا على كف يدي، يجرني خلفه، كان النهار قد انتهى وانتهت معه أقدام المارة من الطرقات، كعادة المدينة، لا يجرؤ من يخرج ليلا، لا يجرؤ إلا من لا يخافون الليل، ولا يخافون سكانه، كانت عيناه يندلع منهما غضب وخوف لم أعهده في ناتير من قبل، كان دومًا هادئًا، هادئًا جدًّا.

أفلت يدي من يده، ونظر حوله جيدًا في كل اتجاه، إلى أن اطمأن أننا وحدنا قال لي قفي هنا ولا تتحركي أبدًا، كان معه عصى صنع نقشًا على

الأرض بها، مُثلثا حولنا، أخرج من جيبه قنينة بها مِسك، وضعه على علامات المثلث، ثم قنينة أخرى تحوى رملًا ناعمًا لونه أسود جدًّا، قربه من فمه ثم وبصوت خفيض دنا من الأرض وهمس شيئًا ثم أخذ القنينة وسكب تلك الرمال حول المثلث، ثم أشعل نيران في الرمال، فإذا بها يخضر لونها ويتصاعد منها نور، كأنه حاجز أخضر يحيط بنا من الأرض إلى السماء، حينها نظر إلى ناتير، وقال لي الآن فقط يمكننا أن نتحدث يا لينورا، لقد قمت بإخفائنا عن أعين خُدام الجن أجمعين، حتى لا يخبر خُدام تمازيغيت بما نقول، لكني يجب أن أسرع وإلا سألت عنا، ووقعنا في مشكلة أكبر مما أنتِ فيها، نظر لي نظرة عتاب، وغضب وخوف، نظر لي ثم مد يده تزيح إلى خلف أذني، خصلات شعري إلى تطايرت على وجهي من الهرولة في الطريق، اقترب مني ممسكًا بي بكلتا ذراعيه، في عناق حنون مربتًا على رأسي بهدوء، مطبقًا على كتفي قليلًا، ثم قال لي بصوت مخنوق بالدموع، واليأس معا، لم تشربي ما ناولتكِ إياه تمازيغيت ليلة المقبرة الأولى، لقد ارتكبتِ خطأً كبيرًا، كبيرًا جدًّا، نظرت إليه وأنا مطبق فمي لا أعرف ماذا أقول، فقال لي لينورا أنا أعرف ما تخفيه، وكان غباء كبيرًا منك أن تخفيه عني، أنا أعلم الآن، ولحسن حظك لا أحد سواي يعلم وإلا هلكتِ، لينورا، أنتِ حامل، في أحشائكِ جنين، لن يرغب فيه أحد وهو على قيد الحياة، ولكن موته غالٍ جدًّا، لن يعلم أحد بوجوده، ولا يجب أن تعرف تمازيغيت ولا أي مخلوق بهذا الآن، أبدًا، قالها لي ناتير ثم انحنى وسكب فوق الرمال المشتعلة رمال أخرى زرقاء كالسماء فانطفأت، ثم عدنا إلى تمازيغيت التي اشتعلت غضبًا ما إن رأتنا.

***

(53)

2001م

كارم،

هذه ليست أمي! منذ أن عادت عايدة من المشفى وهي بهذه الحالة، إنها كطفلة في الخامسة من عمرها، لا تهدأ، لا تنام، لا تكف عن الذعر والبكاء.

فكرتُ ليالي جيدًا قبل أن أقدم على تلك الخطوة، الخطوة التي لا يوجد بعدها أي تراجع، فلا إجابة مريحة لسؤالي، لكني لا أقدر أيضًا أن أجعله داخلي إلى الأبد بلا إجابة، الإجابة ستقتل شيئًا في روحي، لكن السؤال بلا إجابة سيفتك بي أسرع، فالقلق يمكنه أن يفعل أكثر مما تفعله الصدمة، لن أصبر أكثر، لن أضع الشك في حُسباني أكثر، لا يوجد حل سوى أن أضعها أمام الأمر الواقع.

بهدوء، فتحت باب الغرفة، أدرت المقبض وأمسكت الباب ولكنه أصدر صريرًا خافتًا، فوجدت أمي تجلس في منتصف السرير، تشد الملاءة إلى ما بعد عنقها، بكلتا يديها قابضة على طرف الملاءة، لا يظهر منها سوى عينيها المذعورتين، ناظرة إلى الأمام في ترقب وخوف، منتظرة من سيفتح الباب؟!

أنرتُ الغرفة، وأغلقت الباب خلفي جيدًا، فلا أريد لسليم أن يسمع شيئًا مما سنقوله، مشيت إلى جوار السرير، وجلست على مقربة منها، سحبت الملاءة بهدوء من على وجهها، كان وجهها أصفر كلون الملاءة التي عليها، كانت تنظر لي في فزع، كأنها تعرف ما أنا آتٍ له، لكني اقتربت منها وهمست لها بهدوء،

أمي، أنا كارم، لا تخافي مني، لقد أجلت سؤالي هذا كثيرًا، كثيرًا جدًّا لكني لا أستطيع تأجيله أكثر، أنا مقدر حالتك الصحية والنفسية، صدقيني، لكن لن أنتظر أكثر، أنا لن ألومك على شيء، ما حدث في الماضي قد حدث وانتهى، واعلم جيدًا ان لكلٍ أسبابه الخاصة في تصرفاته، وأقول كل هذا لكي تطمئني، لكن أنا، أنا من حقي أن أعرف، أمي، لماذا قتلتِ أبي؟

***

(54)

1625م

ناتير، كان يعلم أن لينورا لا تنتمي لهذا المكان منذ أن رآها لأول مرة، ليس كل من مر بالألم لديه نزعة انتقامية، وإن كانت لديه فهي محدودة، ليس كل معقد بالضرورة أن يكون سفاحًا، أن ينتمي إلى عالم مظلمٍ ظَلوم، الأمر ليس بالسهولة التي يتخيلها البعض، انزلاق القدم في وحل الظلام ثمنه ليس بالهين، ليس بالهين أبدًا، قد تفقد القدم وسائر الجسد والروح ذاتها في الطريق إلى هناك، قد لا تصل، فلا تكون قد ملكت شيئًا من عالم البشر، ولا ملكت شيئًا من عالم موازٍ، كُله شر، القلب فيه شيئًا لعينا، لا بد أن تلقي في الطريق بضميرك وقلبك وروحك وكل ما يُثبت أنك إنسان.

لكن ناتير يرى، يرى ولا يتحدث كثيرًا! ربما لهذا اتخذته تمازيغيت خادمًا لها، كان هادئًا، وكانت هي تريد هذا الهدوء أكثر من أي شيء، لم تكن تمازيغيت نفسها متمرسة في كل هذا الوحل، لم تبدأ فيه إلا بعد ما حدث لتسردونت نيسمضال، أختها، لقد رأت بأم عينيها رجم وتعذيب أختها، ربما من أجل هذا ظنت أن لينورا هي الأخرى لديها نفس الرغبة الانتقامية، نفس العذاب، ونفس الضمير، لكنها، كانت مخطئة.

كان ناتير خادمًا لتمازيغيت ولكنه ليس أيضًا بالهين، إن عالم الجان عالم خاص لديه قواعد، ربما كان شرف الميثاق أولها، لا يوجد من يخون العهد، إن خائن العهد مجازٌ وعبرة لغيره، لا يوجد من هو فوق القانون، فوق الميثاق، وفوق الشرف، وكان ناتير خادمًا لدى تمازيغيت لكنه كان صديقًا لكبير حراس ملوك المقبرة، كان صديقًا ل ثُلي، لم يتورع لحظة في أن يذهب إلى صديقه، لربما وجد عنده حلًّا، إن الذي يحركه الآن هو شيء لم يحسب أنه ما زال موجودًا أبدًا، إنه خفقان الحب والخوف لا يزال لديه منهما في ما لم يحسب أنه لا يزال موجودًا قط، قلبه.

***

(55)

2011م

همسات خفيفة، همهمات، تبعها أنين وبكاء، ظل صوته يزداد تدريجيًّا حتى علا إلى حد لا يمكن، كان أنينا واحدًا، لكنه كان مكثفًا، متواصلًا لا ينقطع، كلما زاد صوت البكاء، شعر كارم بهاتين اليدين الصغيرتين المتشبثة بساقيه، اليدين اللتين جعلتا شعر ساقيه يقف كمن لمس سلك كهرباء عارٍ لتوه، اليدين اللتين تنهشان في لحمه بلا أثر، اليدين اللتين ما إن يصحو ليرفع الغطاء الشتوي الثقيل من عليه، لا يجد لها أي أثر!

كان الأرق مرضًا أصاب تلك الدار، كانت أمه التي تتجول في غرفتها ليلًا، ثم تقبع داخل السرير، تشد عليها الملاءة في خوف، وتنظر إلى الباب طوال الليل في فزع، حتى يحل الصباح، لتغفو قليلًا، لكنه لم يكن ينوى أن يعيش مثلها، عايدة فقدت جزءًا من عقلها بعد مقتل دياب، أما هو، كارم، فلديه ما يعيش من أجله، أن التضحية دائمًا بثمن، يجب أن تعرف جيدًا ما تُضحى به، وما تُضحى من أجله، لن يموت، هذا ما فكر فيه كارم، لن يُدفن بلا أثر مثل أبيه، لن يقبل أن تُفنى حياته، الأمر ليس مزحه حينما يتعلق

بمصيرك الكلي، وقد ضحى، كارم ضحى بكامل إنسانيته، إن بقي منها شيء فهذا مجرد رُكام، مع كل أُضحية لكل مقبرة، مع كل تسولات واستغاثات، مع كل دمعة كتمها في أحشائه للأبد، مع كل يوم جديد فقد جزءًا، إن الأمر لم يقتصر بعد هذا على الأُضحية الحية لحراس المقبرة، لقد تعدى الاتفاق حد الذنب، آتاهم التعديل الجديد، إن الحراس يريدون فقط الدماء كلها، وعينان لطفل زُهري، فلماذا لا نستفيد بباقي الجثة؟ اسمع كلامي يا دكتور، هناك من يدفع الكثير في تلك الأعضاء الطازجة، وإن كان على المقابر الفرعونية هذه هدية مني إليك، لن آخذ ثمنها، لا تنظر إلى هكذا يا عزيزي، إنكم تقتلون الضحية كل مرة، فلماذا لا نستفيد منها بأكثر من طريقة والمكاسب خير للجميع، كانت تلك كلمات مندور، متعهد المقابر الأثرية في المنطقة إن جاز عليه التعبير فهو بحق وغد جشع لا يشبع من المال أبدًا وسننصاع لأوامره حتى لا يقطع عنا خير المقابر، لكني حينها حدثت نفسي لقد ضحيت بالكثير، بالكثير جدًّا، لكني سأضحي، سأضحي، وافعل ما أؤمر به، لقد وقعت في بركة الماء الآسن، وإلا فسيكون ما ضحيت به، لا يساوي شيئًا، أنا أريد الدخول إلى حيث الخلود، لن أموت ولن أكون حبيسًا لمقبرة مرعبة وحدي ليلًا، سأضحي بكل شيء وأي شيء، وإن كان الثمن هو أن أفقد نعيم النوم للأبد فلا بأس، مرحبًا، فلتكن الكوابيس.

***

قيّد الشيء الذي تستطيع فك سلاسله.. .. ..

(56)

1625م

ظهيرة يوم الثلاثاء،

كانت تمازيغيت تشهق، شهقة تبعتها دموعا! لم تبكِ منذ سنوات طويلة حتى إن عينيها نسيتا مذاق الدموع، نظر لها كل من ناتير ولينورا بحذر وتراجعتا إلى الخلف قليلًا، أمسكت هي بطرف الطاولة الخشبية التي أمامها، كانت الطاولة عليها شيء كالشحم الكثير جدًّا، وعليها كان ممددًا، كائنان، قصيرا القامة، في أطراف دماغهما، بروز أشبه بالقرون الصغيرة، كانا شبيهان ببعضهما البعض إلى حد كبير، ممددين على الطاولة يسبحان في بركة من سائل لزج تحت أجسادهما، سائل غامق اللون، كريه الرائحة، ينساب من كل فتحات في جسديهما، وعلى جلدهم، آثار لما حدث أمس، نظرت لهما تمازيغيت ثم قالت بصوت مخنوق، لقد ارتكبت خطأ، خطأ كبيرًا، كبيرًا جدًّا.

مساء يوم الإثنين،

سُمِعَ صوت الطرقات المعتادة على باب الدار، ذهب ناتير وأدخلَ من بالباب، كانت امرأة معروفة لدى تمازيغيت، أنها السيدة التي تدخل أكابر

البيوت أنها من تحضر الأقمشة والحلي الثمينة إلى نسوة الأكابر، وتحضر إلى تمازيغيت بطلبات منهن، مُحمّلة بالكثير من النقود والكثير من المشكلات التي يرجون حلها لدى تمازيغيت، كانت السيدة، قصيرة، سوداء البشرة، عينلها واسعتين جدًّا، كأنها ترى بهما ما لا يراه غيرها من البشر، كانت ذكية إلى حد قراءة لغة الجسد، وضليعة في أمور كثيرة، لم يكن يُستهان بها، هي جارية لكل نسوة الكبار، لكنها مليكة على عقلهن، فهي تعرف كيف ومَن وأين ومتى في كل دار لكل أحوالهن وأحداثهن ، كان اسمها، سعيدة، وربما كانت كذلك.

كانت تعرف سعيدة أن تمازيغيت لا يوجد لديها متسع بالترحاب في هذا الوقت، أخرجت النقود أولًا وناولتها إلى تمازيغيت، ثم ورقة مكتوبة عليها ما تريده سيدة الدار الآتية من عندها، ورقة في لفة قماشية تحوي أثرًا لمن سيتم عليه التعويذة المطلوبة، لم تكن سعيدة تقرأ أو تكتب، ولذا كانت تأمنها النسوة تمامًا، فهي لا تعرف السر، لكنها توصله إلى تمازيغيت، فهي إن عرفت السر لن تفشيه، ففيه هلاكها هي أولًا، إن فعلت.

رحلت سعيدة وأغلق ناتير وراءها الباب، أخرجت تمازيغيت الورقة المكتوبة وبدأت تقرأ فيها، إن المطلوب غريب ولكنه أغرب ما فيه توقيته سيدة الدار تريد المطلوب الليلة، وحالًا!

كان في لفافة الورقة شيء، أثر، قطعتان من الملابس، تلك المرة ستقوم بكل شيء على آثارهما، بدون أن تعرف من هما، فقط تعرف أسماءهم الأولى واسم أمهم التي هو اسم لكثير من النساء، ليتها فعلت وعرفت من هما، لكن المكافأة كبيرة، كبيرة جدًّا، ليست أموالًا فحسب، فتلك أمرها هين، لكنها كانت شيئًا نادرًا جدًّا تمتلكه تلك المرأة، شيئًا ثمينًا، ستقدمه لتمازيغيت كهدية إذا اتمت

مهمتها، كانتا عينين لتمساح أبيض وضعتا بطريقة لا يعلمها إلا صانعها، في كرة من الزجاج، إنها شيء نادر جدًّا كمن وجد كنزًا لا يقدر بمال، إذًا الأمر فيه شيئًا، لكن المخاطرة تليق بتلك الهدية، هكذا قررت أن تفعل، كان بعادها أن تعرف من ستؤذي لتحمي نفسها من بطشه إن أراد انتقامًا، لكن تلك المرة لم تفعل، أغلقت عليها الباب الخشبي لغرفة التحضيرات، وأعدت كل شيء، أمرت ناتير بتجهيز الطاولة، وجلبت لها أنا لينورا، حسب طلبها أقوى حيّة لدينا، في الصندوق الذي تقبع داخله الحيّة الصفراء، وضعت لها تمازيغيت صيصان صغيرة، اثنين، اطعمتهما تمازيغيت حبوبًا مطحونة ممزوجة بالدماء كان مزيجًا من دماء الحيض ودماء ديك أسود اللون ذبحته وسكبت دماءها فوق قماشة، ثم عصرت القماشة جيدًا، ما نزل منها من دماء قطّرته على الحبوب ومعها قطرات من مخدر بسيط ثم أطعمت الصيصان، بعد أن التهمت الحية الصيصان جلبتها تمازيغيت، ثبتتها على الطاولة ممددة بالطول، وبدأت تمازيغيت تنقش عليها نقشة الموت!

***

(57)

2012م

كان اختفاء الأطفال شيئًا غريبًا، لكن الناس كانت منشغلة في أشياء وأحداث كثيرة، لربما تاه هؤلاء الأطفال في التجمعات والمظاهرات، لربما، من يدري، كل شيء يختفي في الظلام لا يعود، أليس كذلك!

كان جمال يذهب إلى عمله الجديد في شركة للحواسيب، دبرت له العمل ليديا كانت تعمل بالترجمة في شركة مجاورة ورأت إعلانًا لوظيفة خالية، كانت شركة السياحة التي يعمل بها أوقفت نشاطها بالكامل وأنهت عقود الموظفين بعد أن توقفت السياحة عن العمل، تقلص راتبه الشهري كثيرًا، زاد هذا من حماسته على الحلم، حلم الثروة التي لا حد لها، الراحة التي يحلم بها، ما أجمل أن يكون في جيوبك مال لا تعرف عدده من كثرته، أن تدخل إلى أفخم المحال لتشتري كل ما تريد دون أن تسأل البائع، وأنت في توتر وبعض الحرج ألا يوجد أرخص من هذا؟، لم تكن لديه عقدة الخوف من الموت ك كارم، إنها عقدة مرفهة إلى جمال، كان لديه بعض الغلّ في عينيه كلما رأى كارم طبيبًا

شابًّا ذا مال وقدر من الوسامة وعائلة ذات مقام، فيشعر جواره بالضئالة تارة، وتارة أخرى يتعمد إشعار كارم بأنه لا يفقه في شيء، لكن الشيء الوحيد الذي يثلج قلبه هو ليديا، إنها لا تأبه ل كارم مطلقا! صحيح أنها لا تأبه ل جمال أيضًا لكن في هذا عزاء له، إنها وحدها لا تشعره بأي نقص فيه، كأنها ليست من هذا العالم، على الإطلاق.

***

(58)

1625م

قُبيل فجر يوم الثلاثاء،

أنهت تمازيغيت نقشها على الحية، ثم أمرت لينورا بمد يدها، جرحتها جرحًا صغيرًا، أخذت منها بعض قطرات الدماء في وعاء، دماء أجنبية، لابد منها، ثم وضعت شحمًا أسود ومزجته به، ودارت تسكبه حول الحيّة على مقربة منها، ثم أشعلت فيه النيران، ظلت النيران تقترب وتقترب، إلى أن بدأت الحية بالاحتراق، ألقت حينها تمازيغيت قطعة القماش التي أخذتها من سعيدة، في وسط النيران على جسد الحية المثبتة بالسلاسل، ثم بدأ يظهر على الطاولة جسدين.

تشكلا شيئًا فشيئًا، جسدين صغيرين، شبيهين بطفلين لا يزيدان عن العشرة أعوام، لكن تشكّل رأساهما، ظهراهما، إنهما قرينان، قرينان لطفلين، أنهم صغار، من الجن، لكنهما صغيران، لم يستوعبا ما يحدث حولهم قط، لكنهما قبل أن يصرخا بدآ في التلاشي مرة أخرى، لكن تلك المرة ليس تلاشيا

آثيريًّا، لكنهما بدآ في الذوبان،كل فتحة في جسديهما كانت تترف سائلًا غامق اللون، كريه الرائحة، بدا ظاهرًا حينما نزفاه من أنفيهما وأعينهما وآذانهم، لكن بعد أن نزفوا وماتوا، نظرت لهم تمازيغيت جيدًا، فعرفتهم، ثم تصلبت كأنها تمثالًا متحجر العينين، لم يكونا هذين سوى قرين أبناء مراد الرايس الأصغر، حاكم مدينة سلا!

هل تعلم ما يحدث إذا مات القرين قبلك ومات مقتولًا؟ كانت تمازيغيت تعلم الإجابة جيدًا، سيهذي الطفلان كثيرًا، وسيموتان في الصباح بعد أن يتمزق جسداهما من آباء الجان المقتولين، ستخرج مقلتا أعينهما من مكانها ويبدأ نزيف الجسد، لكن تلك المرة ستكون الدماء، حمراء، حارة، مصحوبة بصرخات.

صباح يوم الثلاثاء،

الصراخ ملأ المدينة بأسرها، لقد حدثت الفاجعة، لكن تلك المرة لا أحد سيحمى تمازيغيت، لا أحد مطلقًا، حتى أولئك الكبار الذين تحت طوعها في كل مصيبة تفعلها، لن يجرؤ أحد على الوقوف جوارها، إنه مراد الرايس وهذان ابناه التوأم، دقائق وتجمع الناس حول المنزل، على مسافة بعيدة لكنهم يشيرون ويتغامز بعضهم لبعض، لم يكون مراد الرايس يستمع لتلك الحكايات عن الساحرات وما يفعلن، لكنه الآن سيحرق كل ساحرة في المدينة وهي حية، أنهما ليسا أبناء العامة، إنهما ابناه هو.

عصر يوم الثلاثاء،

لم تجد تمازيغت مخرجًا، حاولت أكثر من مرة استدعاء خُدامها، لم يجيبها أحد،حتى ثُلي، لم يجب نداءها، كانت تعلم القانون الخاص بالكهف وساحراته، لا مساس بمن يجلب لهم المشكلات من الإنس والجان، لقد قتلت أبناء الجان ولن يسامحوها وقتلت أبناء الإنس وسيفتكون بها، كانت تعلم البطش، ولهذا كانت تدفع ثمن حماية الكبار، لكن ليست تلك المرة، دخل الحراس إلى منزل تمازيغيت، طار الباب في الهواء من شدة الهجوم عليه، في حذر أمسك معصمها أحد الجنود يقودها للخارج، نظرت خلفها فلم تجد ناتير، ولا لينورا!

***

(60)

2012م

نادرًا ما اجتمع كارم، سليم، وعايدة على المائدة، كانت تعد لهما الطعام، ويأكل كل منهم في أوقات مختلفة، لكنهم في أيام كانوا يجتمعون، تعد لهم ما يطلبونه، كانت تعلم عشق كارم للمحشي، وكان سليم متيمًا بالمكرونة بالبشاميل، كانت تنظر لهما وهما يلتهمان الطعام، نظرات بها حب، ووجع، امومة، ابتسامة، وفي عينيها ألف سؤال واعتذار!

هل كان الأجدر بها ألا تقتل ديابًا، ربما كان سيكبر في السن ويتغير؟ هل يتغير البشر؟ هل كانت أنانية لأنها لم تتحمل زوجًا سيئ الطباع، سادي، عنيف، ذو لسان أحدّ من السيف ويد باطشة؟ هل كان يجب أن تتحمله في سبيل أن يكون لأبنائها أبًا؟ كانت هذه الأسئلة تفجر نصف رأسها كل صباح ويفجر طيف دياب الغاضب النصف الآخر كل مساء، لم تفكر حتى في الزواج مطلقًا منذ حينها، لقد اكتوى قلبها بعلامة للأبد، لم تعرف أنها كانت حقًّا تحب ديابًا إلا بعد أن قتلته، ومن الحب ما قتل هو قتلها أولًا ثم قتلته هي وأراحت جسدها وجزءاً ضئيلًا من روحها وكرامتها المجروحة، كان يمزق فيها بأنيابه

حتى امتلأت بالشروخ، مئات الشروخ التي لا يكفيها الحياة الدنيا حتى تشفى منها، إن شروخ النفس أصعب كثيرًا من شروخ الجسد، كل جزء منها كان يلومها على جعل أبنائها بلا أب، لكنه كان زوجًا وأبًا سيئًا، كانت تتفانى في تربيتهم جيدًا، لقد أصبحت أما مثالية إلى حد كبير، سخرية الأمر أنها مثالية بطريقة، قاتلة.

***

(61)

1625م

الهواء، الهواء كان شعلة من النيران، لو كنت تؤمن بانبعاث الطاقة من البشر، لكانت تلك أكبر حلقة من النيران يمكن أن تراها، مئات من الناس متجمهرون، الحراس يبعدونهم، الغبار يتصاعد في الهواء إثر اجترار تمازيغيت من بين الحشود، بين قبضة الحراس كانت مذهولة، كأنها لم تستعد وعيها بعد، كانت الشمس في الأفق تنعكس على كل شيء، فبدت عينيها تلمعان من الخوف، وبدت عيون الناس تلمع من التشفي، لكن تحت أقدام مراد الرايس حينما جعلها الحارس تركع، رأت في عينيه نظرة الأسد الجريح، تطل من عينيه الرغبة في الانتقام، الرغبة في أن يقطر دمها قطرة قطرة، ذاك الذي جاب البحار شرقًا وغربًا، ذاك الذي ركعت له سفن البحار بمن عليها، القرصان الذي أصبح حاكمًا لمدينة بأسرها، يهابه الكبير والصغير، لم يكن قتلها كافيًا بالنسبة إليه، لكنه كان يود أن تعذب وتقتل في أسرع وقت ممكن، لا يضمن بقاءها على قيد الحياة دقائق أخرى لربما فعلت فيهم أكثر!

كان تبادل النظرات بينهما مثيرًا بحق، ظنت أنه سيحرقها بمقلتي عينيه، وظن أنها ستفعل به شيئًا لتثنيه، أليست ساحرة، أشاح بيده إلى الحارس كي ينهي كل شيء، إن الانتقام يثلج الصدر كي تجد وقتا كافيًا بعدها للنحيب والبكاء.

قُرعت طبلة بصوت عالٍ جدًّا، علا بعدها صوت الحارس مناديًا، بأمر أمير البحر العثماني، زعيم جمهورية بورقراق السلاوية، مراد الرايس الأصغر، تعدم تمازيغيت ابنة شجير أمام الناس علنا، تجمعوا عند باب المريسي الآن!

بعد دقائق كان الجميع لدى ساحة تنفيذ الحكم، وضعوا لها مشنقة عالية، وأشعلوا تحتها نيران، واقتادوها أمام مراد الرايس ورجاله.

كانت يديها مثبتتين إلى الخلف، وشعرها مرفوع على رأسها، تمالكت نفسها ووقفت على قدميها، لن ترحل تاركة وراءها ذكرى أنها كانت مذعورة، إن العصر ليس وقتا جيدًا للإعدام، لو أنهم مساء لربما أنقذتها تسردونت نيسمضال أختها، لكنها لا تتجول في المدينة إلا ليلًا!

كانت تنظر إلى كل المحيطين نظرات تدب في نفوسهم الخوف والهلع، أنها في قبضة الحراس الآن لكن الناس وإن كانوا في انتظار تلك اللحظة منذ سنوات، لكنهم ما زالوا يرهبونها حد التبول في سراويلهم، ألم تقتل طفلي الحاكم نفسه؟ إنها تستحق أن تكون مَهيبةً، أليس كذلك؟!

لكنها وهي تدور بعينيها وسط الناس وصلت إلى عيني مراد الرايس، لم تعتد عيناها الاعتذار، وإن فعلت فلن يغير في الأمر شيء، لكن التحدي هو من طل من عينيها، وكأنها لا تأبه لأي شيء مما يحدث.

رأي مراد الرايس في عينيها ما جعله أمام الجميع وقبل أن يتم ربط حبل المشنقة حول عنقها، صرخ فيها بصوت جهوري غير عابئ بشيء، تمازيغيت، وفي ثانية واحدة انقض خلفها ممسكًا برأسها بيد وباليد الأخرى خنجرًا ذبح به عنقها ولم يلقها أرضًا حتى لفظت آخر نفس في الدنيا، سقطت وسط الحراس وأمام الناس سابحة في دمائها، مقيدة الأطراف، وفي عينيها كلام، لن يقرؤه أحد بعد الآن.

خلف الحشود كان هناك رجل وامرأة متواريان، مرتديان عباءتين تغطيهما من الرأس وحتى أخمي القدمين، انتظرا سويعات حتى انفض الحشد، خلت الساحة، وأخذوا الجثة كي يحرقوها بعيدًا، وقبل المغرب بدقائق قليلة، كان لا بد لهما من النزول، إلى المقبرة المقدسة، حيث الاختفاء من البلدة، إلى الأبد.

***

(62)

2013م

كان المنزل تلك المرة في البلدة يحوي ثلاثة أطفال، زُهريون بعيونهم الواسعة السوداء وأيديهم ذات العلامة المميزة لكف اليد، وشاب في الثلاثين من عمره كذلك مثلهم، زُهري، كان يجلس جوارهم لسبب يجهله تم خطفه وهو عائد إلى منزله في الواحدة صباحًا، جميعهم مقيدون من الخلف، أيديهم وأرجلهم مقيدة بسلاسل قوية، قابعون في الغرفة المظلمة، لا يدرون ما سيُفعل بهم، كان المنزل حولهم يثير الهلع وهم يرون ثلاثة اشخاص، فتاة وشابان يفعلون أمامهم أشياء غريبة!

كانت الفتاة تعبئ شيئًا كأشلاء مجففة وأخرى طازجة تضع كل صنف على حدي، ومعها حقيبة كبيرة تحوي عشرات البرطمانات الزجاجية، تفتح أحدها تضع فيه شيئًا على غرار كبد أو أذُن، وتضع فوقها سائلًا ثم تغلق البرطمان بإحكام واضعة إياه في الحقيبة التي بحوزتها ثم تمسك ببرطمان آخر وهكذا لا تكل أو تمل، على الجانب الآخر من الغرفة كان هناك شاب يقطع شيئًا على

أطراف طاولة بيضاء، أو كانت كذلك قبل ان تلون بالدماء التي تسيل عليها في كل اتجاه، كأنه جزار، لكنه يحمل مشارط دقيقة جدًّا يمزق بها يدًا أمامه، يدًا آدمية ينزع منها كل شيء، يفصل العروق عن اللحم ويفصل اللحم عن العظم، بدقة وتركيز وصبر، كأنه ربة منزل في مطبخها تجهز دجاجًا أو تخلي سمكًا لإعداده للطهي.

أتاهم صوت من الخارج، دخل عليهم شاب آخر، أخذ طفلًا من الثلاثة وأمسكه بيديه ونظر في عينيه طويلًا، من الرعب تبول الطفل في ملابسه، وهو يجهش بالبكاء، الأنين الذي لن يسمعه سوى ساكني الدار، كارم الذي كان منهمكًا في تشريح اليد على المنضدة، وليديا التي تعبئ البرطمانات لوضعها في الحقيبة، وطفلان وشاب مقيدو الأيدي والأرجل، وجمال، الذي كان ينظر إليه جيدًا قبل أن يأخذوه إلى الغرفة المجاورة.

أخذ يجره على الأرض لأن الطفل لا يريد الوقوف والسير وكلما حمله سقط منه من كثرة الحركة، كأنه يعلم جيدًا، لا خير يأتي من تلك النظرة التي رآها في عيني جمال، أخذه إلى الغرفة، كانت خالية من الأثاث العادي، بها منضده تشريح كبيرة، وأدوات مرصوصة بعناية، وحمام ملحق بالغرفة، أخذه إلى الحمام، جرده من ملابسه بعد قصها بالمقص حتى لا يضطر إلى فك وثاق قدميه أو يديه لا طاقة عنده كي يقاومه أو يجري خلفه في المنزل، أخذ يحممه بالماء البارد والصابون، قام بتجفيفه جيدًا بمنشفة نظيفة، ثم حمله ووضعه فوق طاولة التشريح، ثبته عليها جيدًا، ثم أحضر عدة صناديق حفظ المثلجات وضع فيها ثلجًا كي تحفظ جيدًا ما سيوضع فيها بعد قليل، نزل درجات السلم ثم نادى جمال على كارم ليصعد.

أغلق جمال الصناديق بعد أن انتهى كارم، في أحدها فصوص من الكبد، وفي أخرى الكلية اليسرى، وفي أخرى.. ، وفي أخرى.. .، لم يبق في جسد الطفل سوى ما يجعله على قيد الحياة فقط ريثما يسلمونه إلى حراس المقبرة، والعينان، لا بد أن تكون العيون سليمة، كي يقبلوه قُربانًا في المساء، فلأبد أن يقدموه الليلة وإلا كان خسارة عليهم أن يجعلوه نصف ضحية لا بد أن يستفيدوا منه حيًّا كما استفادوا من أعضائه، اتصل جمال بالمندوب، مندور، يأخذ الأعضاء ويقدم لهم ثمنها الذي يصرفون منه على كل مستلزماتهم، ويأخذهم المندوب إلى مقبرة أثرية يقدموا فيها الطفل، أو ما تبقى منه قربانًا إلى الحراس كي يحصلوا على ما تبقى لهم من أحشاء تماثيل القطط، لقد اقترب كل شيء، سيكتمل ما يريدون جمعه قريبًا، وستكون الرحلة إلى المقبرة المقدسة، رحلة الذهاب فانين والعودة، في الخلود.

***

ما الذي تعرفينه عن كارم يا ندى؟ قالها وجدي الخيشي وهو ينظر لها نظرة تعجب، سألها، قالت له، كارم وسليم هما جيراني، يسكنون أمامنا في البناية المقابلة، تحري وجدي عن الأمر، كان سليم معها في المدرسة أمضى عامين قبل أن ينتقل إلى مدرسة أخرى، كان هذا منذ زمن بعيد، قالت لوجدي، الآن أعرفهم، ولكن معرفة سطحية كجيران عاديين، يلقون السلام أحيانًا كلما التقينا، لكن هناك حدثًا غريبًا حدث لهم منذ فترة ولم يجد لها أحد تفسيرًا، إن الشقة الخاصة بهم، بها أشياء غريبة حدثت، كنت أكتب طوال الليل كعادتي، فإذا بي أرى إضاءة خافتة غامضة ثم أنارت فجأة كأنها انفجر بها شيء، انفجر الزجاج، ورأيت أشياء غريبة وأناسًا، ثم رأيت جارنا في الشرفة يقف مذهولًا،

سليم، الذي اختفى بعدها، لم يبلغ أحد، ولم يعثر له البواب على أثر، حينما كسروا باب الشقة بعد غيابهم جميعًا، لم يجدوا لهم أثرًا، لا لكارم أو سليم أو عايدة أمهم، لقد اختفوا جميعهم فجأة، لكن الأمر غريب بحق، ما الذي يجعل كارمًا يخطف أطفالًا ولأي غرض؟ إن كان المال فلا أظن، لديهم أموال كثيرة، هناك شيء، كان وجدي يستمع إليها وهو يجري مكالمة هاتفية، أجابه الطرف الثاني، فقال له وجدي، أريد أمرًا باعتقال، ما اسمه الثلاثي يا عوض؟ قال له مساعده عوض الاسم، فكررها لمن يحادثة، كارم دياب غنيم، وأريد مذكرة بتفتيش شقة المذكور، فورًا.

***

(63)

1625م

بعد ما حدث في أثناء النهار، كان التوتر سيد الأسواق طوال اليوم، الجميع لديهم الشعور بالرغبة في البكاء كي تهدأ النفس لكن الدموع حبيسة، كل المرار الذي ذاقته البلدة طوال سنوات من عمر تسردونت ومن بعدها تمازيغيت، تُرى، هل كانوا يفكرون فيما بعد، ما بعد انتقام مراد الرايس لولديه ولكل نفس تجرعت الألم على يد السحر الأسود الذي غلف سماء البلدة بيدي تمازيغيت؟ هل كانوا يفكرون فيما ستفعله تسردونت بهم ليلًا؟ ربما، بالتأكيد هناك شيء ما جعلهم ينصرفون مبكرًا هذا المساء، كانت الشمس ما زالت لم تعلن انسحابها بعد، لكن الشوارع خالية، لا وجود لأي أحد في أي مكان، الهدوء المخيف له صوت أبشع كثيرًا من أي ضجيج، لا تدري لينورا وناتير هل كان هذا من حظهما أم من سوء حظهما؟ لكن الأمر لا يحتمل رفاهية التفكير أو التحليل المنطقي، كانا يقفان على مقربة من باب المريسي، ينتظران غروب الشمس، كان ناتير يعرف، لن يفتح لهم أحد قبل غروب الشمس، لكنه كان مرتعدا مما سيحدث بعد ذلك هل سيفي ثُلي بوعده؟ هل سيقف إلى جوارنا، أنا ولينورا في وجه قُصيلم؟ والأهم من هذا كله، هل سننجح في عبور البوابة قبل أن تظهر تسردونت نيسمضال لتنتقم

لأختها؟ لم أعد أتمنى الغروب في حياتي كما تمنيته اليوم، مع أول بادرة لاختفاء الشمس، اقتربت من البوابة وسحبت لينورا من يدها، وقفت جواري شاحبة، صامتة كالأسماك ويدها معروقة كأن البحر قد سكب ماءه فيها، وقفنا أمام المقبرة المقدسة وثنيت ركبتي وجدت حلقة معدنية دائرية، سحبتها إلى الأمام ولففتها يمينًا ثم يسارًا ثم سحبتها ولففتها مرة أخرى يمينًا ويسارًا، وقفت ثم ضممت كفي إلى فمي وأسرعت اتفوه بالكلمات: "لظى لظى لهيب لهيب نور نور يا ساكني القبور، لظى لظى لهيب لهيب نور نور، يا ساكني القبور، بحق المقبرة المقدسة، بحق تسردونت نيسمضال بحق باستت، وحق السر، احجبوا عنا أعين الناس، من كان منهم يرانا، ومن كان منهم يسمعنا، ومن كان منهم يتبعنا، نسألكم، الستر، الحجب، السر، لظى لظى لهيب لهيب، نور نور، يا ساكني القبور".

نزلت إلى الأرض مرة أخرى ثم أدرت الحلقة مرة أخرى فَفُتح في الأرض باب، كأن الأرض ذاتها انشقت، أنزلت لينورا ثم نزلت وأغلقت البوابة بعدها، لكني وقبل أن تنغلق المقبرة سمعت أبشع صياح في حياتي، كانت تسردونت قد أتت مع رحيل آخر شعاع للشمس، عَلمت بما حدث وكانت صيحتها مخيفة، مفزعة، خفت من أن يصحو الموتى بعدها من هولها، نزلنا وانتظرنا بجانب تمثال القطِ حول النافورة، لكن تلك المرة لم تجلس لينورا في زينتها تنتظر التضحية كالمرة السابقة، لكنها تنتظر ضحية جديدة، تنمو في أحشائها، هاربة بها من بطش تمازيغيت التي لم يعد لها وجود ومن بطش الساحرات إن عرفن حقيقة ما حدث، لكن لحسن حظي وحظها لم تكن الساحرات الأقوى تحت الأرض، مثل ما هن فوق الأرض، فوق الأرض هن الملكات على كل شيء لكن هنا في تلك المقبرة، الحكم للسادة، ملوك المقبرة، ملوك الجان.

(64)

2013م

الغثيان، كلما زاد ظيام في الحديث، وكلما جاء بسيرة أخي شعرت بالغثيان، الإحساس بالرغبة في تقيؤ كل قطرة دماء وماء من جسدك حتى يصبح هذا الجسد خاويًا، بلا حياة.. بلا شعور.. .بلا شيء.

أسندت رأسي بين كفوف يدي، مغمضًا عينيَّ لثوان، قامت ميادة من مكانها ناولتني كوبًا من الماء، مسحت بيديها على رأسي كي أنظر لها، لكني وما إن لمست يداي الكوب واقترب من شفتيَّ حتى ألقيته في الأرض، إن كل شيء في هذا المنزل له رائحة الدماء، هل سمعت عن منازل جدرانها تئنُّ من قبل، إن هذا المنزل نابض بالأنين والروائح والموت.

نظر لي الشيخ معتز موجهًا إلى الكلام، بعد أن أشار إلى ميادة بالجلوس، أرجوك يا سليم تمالك أعصابك، إن الأسوأ لم تسمعه بعد!

هنا نظرت له بعينين ملؤهما الذهول، الاستنكار، والشر، ماذا؟ أبعد كل هذا هناك أسوأ؟ هل ستخبرني أن أخي كان إبليس متنكرًا في ثوب كارم؟، هل ستخبرني أنه.. أنه ماذا؟ قاتل أطفال، تاجر أعضاء بشرية وسارق آثار ويتبع

السحرة ومعذب للحيوانات، شخص مريض سادي مجنون بلا ضمير، هل هناك أسوأ؟ إن المخدرات والاغتصاب وخيانة الوطن على حد سواء بذات السوء كسابقيهم من الجرائم، ما الذي في جعبة عالم الجريمة ما زلت أجهله كي يفعله أخي؟ أخي القذر، ليتني أستطيع أن أكرهه، أن أقتله، أن أعانقه، أنا، أنا أفتقده، وأريد اقتلاع قلبه من صدره كي أعرف مما صُنع.

كنت أتحدث إليهم وأنا أخرج نيران من صدري مع كلماتي، تصلب الشيخ معتز وميادة في مكانيهما، من حديثي الصارخ، لكن ظيام، عفريت الغفلة كما أسميته في خيالي، كان هادئًا حد الجنون، حقًّا لا بد من أنه جني كي يبقى هادئًا وهو يحكي كل هذه البشاعة بلا أن يجفل، أشار إلى بالجلوس، جلست ونظرت إلى أحد حوائط المنزل ريثما يُكمل ظيام حديثه، حديث المدينة، سأقدم له في التلفزيون بعد أن ينتهي، إنه مذيع بارع.

***

(65)

1625م

إن للبرودة قسوة، لا يعلم قسوتها مثل الخائف، أن ترتجف مثل ورقة الخريف لا تدري أي مزيج هذا، لفحة هواء ساخنة وأخرى باردة وأخرى مخيفة وأخرى حزينة تلفلف الأوراق المتساقطة على كل شيء، لقد سقطت كل الأوراق، ونادى الشتاء بصوت عميق، يدب الرعب في القلوب، قائلًا.. أنا قادم.

ناتير، كان جالسًا إلى جواري هادئًا، ينتظر ثُلي أن يأتي، لكني أعلم أن عقله وقلبه النيران تأكلهما من الخوف، مثلي تمامًا، لكنه كان يحافظ على مظهره الهادئ كي لا ترتعد يديه هو الآخر في يدي المرتعشتين، إن قانون ارتجاف الأيادي المتشابكة واضح، أحدهم يرتجف، والآخر يطمئنه أن كل شيء سيكون على ما يرام، لم يكن الصراخ بالخارج هو صوت الشتاء وحده، لقد كان شتاء من نوع آخر، داميًا، لا ينبئ بأي خير سنراه بعد الآن، لقد احتمينا داخل مقبرة! ويا لها من سخرية لكنها حقيقة! كان صوت الفزع والصراخ يزداد بمرور الوقت، لولا أن ناتير مُمسك بكف يدي، لسقطت من

ذراعي من قلة الدماء التي لا تسري فيها، كان كل من في المقبرة يعرفون ما يحدث بالخارج، لكنهم هادئون، يعلمون جيدًا أن الأمر ليس بهذا السوء، إنه أسوأ.

كلما ارتفعت النيران أكثر فأكثر، اقتربت من النهاية، فالنيران تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله، تسردونت، لقد علمت كل شيء، وكانت الصرخة التي أطلقتها، تُميت القلوب، لقد غدروا بأختها، مثلما غدروا بأختي من قبل، لكن الفرق كبير بين ضحية، وبين مُدانة، لكن التشابهة هو الغضب، كان الصراخ يعلو، تارة يقترب وتارة يبتعد، وكأن هناك حربًا فوقنا المنتصر الوحيد فيها، والذي لا يعلو على غضبه، ورياح صراخه الصفير أحد، ولا يفوق قسوته أحد، نعم، إنه الشتاء.

جلسنا قابعين ننتظر ولكن حدث ما لا يُحمد عُقباه، سمعنا ما دار بالأعلى من حديث اثنين من جنود ثُلي.

ما إن أعلن الليل عن قدومه حتى فُكَّت أغلال تسردونت نيسمضال، إنها بتعاويذ شيوخ المدينة محبوسة من الفجر حتى الغروب، حتى يجري الناس على ديارهم، أما الذي ينتظر بالشوارع بعد الغروب، فهو من الشهداء.

كانت صيحة تسردونت نيسمضال مدمرة، مدوية، طوال سنوات تركتهم في منازلهم آمنين، كانت تحمي أختها تمازيغيت، ولا تفتك بأحد إلا من حاول عبثًا المشي في الشوارع ليلًا أو القدوم مع أصدقائه إلى مقابر القرية، أنت تعلم الصبية دومًا هم في تحدٍّ، من منكم يمكنه الذهاب إلى المقبرة ليلًا ويعود؟ لكنهم أغبياء.. فلا أحد يعود.

حرائق، قُدّت نيران الحرائق في الأسواق كلها، وعلى أبواب المدينة، وفي البيوت، نيران لا تنطفئ بالماء، ولا بأي شيء آخر، إنها نيران حقد وغضب، نيران لا يعلم أحد كيف يُخمدها، هرع العباد إلى خارج منازلهم يهرولون في الشوارع والأزقة، إلى أين؟ إن كل مكان يحترق، اهتدوا إلى أن الراعي مسؤول عن رعيته، ألم يقتل تمازيغيت ويتسبب في كل هذا، على أبواب دار "مراد الرايس" حشد الناس أنفسهم، يصرخون، يلعنون، بينما كان مراد الرايس وجنوده يحاولون إطفاء حريق داره، لكنه فهم أن كل هذا لن يجدي، خرج إلى الناس يطمئنهم، كان الشر والشرّر يتطاير حولهم، لكن شرار الغضب انتقل إليه، أمر الجنود والشيوخ أن يتبعوه على الفور، إنه قائد بحري، حاكم المدينة المُهاب، لن ينتظر الشر أن يأتيه كحيوان خائف عاجز، في طريقه هو جنوده إلى المقبرة، كانوا يبسملون كثيرًا، كي يطردوا الخوف من قلوبهم، ولكن كلما اقتربوا من المقبرة كلما وجدوا الأرض ساخنة، محترقة، كأنهم يسيرون على جمر من النار، اقتربوا حتى وصلوا إلى مقبرة تسردونت نيسمضال، بغلة القبور، كانت يومًا فاتنة البلدة بجمالها الآخاذ، الذي انتهى عُقب رجمها فوق المقبرة المقدسة بأن صارت بغلة القبور، نصفها الأعلى حسناء هيفاء، ونصفها الأسفل بَغلة يخشاها القاصي والداني، يبول الأطفال في سراويلهم حين يسمعون اسمها، ويخشي البالغ إغماض عينيه ليلًا إذا سمع صوتًا خارج الدار، خوفًا من أن تكون هي زائرة له، كي تأكله حيًّا.

توسط مراد الرايس المكان ومعه جنود يشكلون دائرة من أربعين جنديًّا، كان باقي الجنود أمرهم مراد الرايس أن ينقذوا ويساعدوا الأهالي من الحرائق، وأن يحموا مداخل ومخارج المدينة، خلافًا عن الجنود القابعين بالميناء، وجنود

آخرين على مقربة من المعركة أكثر من مائتي جندي ينتظرون الأمر بالهجوم، ومائة آخرين تركهم على حدود المدينة إذا ما فشلت مهمتهم، لديهم الأوامر ان يترحوا بسكان المدينة إلى المُدن المجاورة، إن مراد الرايس قائد لا يستهان به أبدًا.

الأصوات فوقنا تتعالى، الصراخ يزداد، إنه الهول، يوم القيامة يدور فوق رؤوسنا لكننا لا نستطيع فعل أي شيء، نظرت إلى ناتير كأني أستنجد بعينيه، لكنه كان دائم النظر إلى النفق المظلم، أنا اعلم هذا الطريق جيدًا، في تلك الغرفة المعتمة، في هذا النفق الذي لا أعرف ما بعده، كان هناك لقاء، ثمرته في أحشائي، ثمرة تُمزق قلبي وتثير في داخلي الخوف، إن الصوت بالخارج اقترب إلى حد مروع أنهم فوقنا، مراد الرايس وجنوده وتسردونت نيسمضال، إنهم فوق المقبرة يدبدبون بأقدامهم وصوت تسردونت المروع وهي تلقي بتعويذة فتح البوابة، بوابة المقبرة المقدسة.

***

(66)

2013م

كارم،

على وجه ليديا كانت علامة الرضا بدأت تظهر شيئًا فشيئًا، الآن فقط، ولأول مرة منذ سنوات طويلة، أرى أنا وجمال ابتسامة على وجه ليديا، ربما منذ أول لقاء لنا معا، لم تكن ليديا من النوع المبتسم قط، هناك آلاف السنين الحزينة في عينيها الجميلتين، حزن ممزوج بغضب وغلّ وإصرار، كالجندي المحارب الذي لا وقت لديه لأي شيء آخر سوى الحرب والنجاة، كانت ليديا تقف وهي تعيد ما فعلته مجددًا، كانت تقوم بترقيم كل شيء، لكن تلك المرة في ذهنها ليس على ورق مكتوب، ألفًا، ألفًا من أحشاء الجن كانت في حوزتنا، الروح كانت تُعذب بالتعاويذ الخاصة بليديا، والجسد أقوم أنا بتفريغه، ومائة من أحشاء الزِّهريون، هؤلاء الحمقى الذين لا يعرفون كيف أن تفاصيل صغيرة كعيونهم السوداء واستقامة خطوط كفوفهم، ورؤيتهم للجن فيعرف الجن أنهم يرونهم ويسهلون علينا مهمتنا كثيرًا، إن قاعدة رؤية الجن واضحة فلا يجب أن تنظر إلى جن حتى وإن رأيته، لكنهم حمقى، تلك

التفاصيل، تساوي حياتهم بأكملها، لقد جهزنا كل شيء، تقريبًا، كان الفتيان والرجل والزِّهريون قابعين كما هم بجوار الحائط، عيونهم الفَزعى من كل شيء حولهم، والدموع التي تُغلف أنينهم كل مساء، لم يعد بداخلي بعد كل تلك السنوات أي نوع من التعاطف، لقد أصبحت كالجزار المعتاد على ذبح الأرواح، سوف أرسلهم كسابقيهم إلى جنة الخُلد، ألست بمُحسن لفعلي هذا؟ حقًّا إن البشر ناكرين للجميل.

كان على الآن أن أضع حدًّا لكل شيء، سأستريح وأريح المتعبين من حولي، ولكن، على طريقتي الخاصة جدًّا.

***

(67)

1625م

طبول الحرب، كانت تدق فوقنا، أخذت لينورا من يدها بسرعة كي نقف على مشارف النفق بعيدًا عن البوابة، كان ثُلي لم يحضر بعد، لكنه أعطى خُدام المقبرة أمرًا أن يستقبلونا، أنا ولينورا، ويؤمنون لنا الحماية، لكن قرع الطبول يزداد وكأنهم أعلنوا الحرب على سكان باطن الأرض بأكملها، ما الذي يحدث؟ سألت أحد الخُدام، كان طويل القامة، نحيفًا إلى حد كبير، له أذنان طويلتان، وعينان مشقوقتان بالطول، سوداء نورهما خافت، حتى ابتسامته التي لم تفارق وجهه كانت هادئة، كأنه لا يعرف أن النيران مندلعة فوقنا، سألته عما يحدث، فأجابني، إن مراد الرايس عازم على ألا يرحل قبل أن يقتل تسردونت، لقد قتلت هي وأعوانها من جنوده الكثير، حتى إن دماءهم صبغت أرض المدينة بأكملها، ولايزال صامدا أمامها، إن الأمر لن ينتهي الآن، هكذا أبدًا، لقد أخبرنا قائدنا، ثُلي، أنه في حال اقتحم أي منهم المقبرة المقدسة سنلقي القبض عليهم جميعًا، بما فيهم تسردونت وأعوانها، إن للمكان قدسيته، ومن لا يحتَرِم لا يُحتَرَم، هكذا أمرنا أن نفعل ريثما يعود من اجتماعه مع الملك

وقُصيلم، إنهم في البوابة الرابعة، وهي معزولة عنا بجيش "الطُّم والرِّم" ولن يعود القائد قبل انتهاء الجلسة، ثم بهدوء قال لي، لا تخافا واجلسا، هناك في النفق جيش كبير ينتظر الإشارة، ما إن تفتح البوابة سيحضرون جميعًا إلى هنا.

تركني في هدوء ورحل يباشر عمله، كانت المقبرة في الجزء الخارجي من البوابة والسُّلم المؤدي إليها والنافورة التي لم يكن حولها أحد اليوم، لا فتيات، لا رجال، لا شيء، وقف فقط تمثال القط يخرج من فمه الماء منسدلًا إلى الحوض المحيط به، يغسل العملات المعدنية الملقاة فيه، ولكنه لا يغسل الذكريات، ولا يغسل الأوجاع، ولا الخوف النامي في رحم لينورا المذعورة، إن الضوء خافت هاهنا، لكني أرى وجهها الممتقع، وعينيها المنهكتين، كلما نظرت فيهما أدرك أني فعلت الصواب، لقد ضحيت بالكثير، لكن إن لم يأتِ ثُلي في موعده، سيكون هذا موعدي، موعدي الأخير.

***

(68)

2013م

ليلًا، انتظرنا حتى غلف الظلام كل شيء، أخذنا الطفلين المتبقين، بعد أن مات ثالثهما من الخوف، وأخذنا الرجل، خدرناهم جميعًا، ثم أزلنا من فوق وجوههم وأجسادهم آثار الليالي التي قضوها في البكاء، ألبسناهم ثيابًا نظيفة ثم فككنا قيودهم تحسبًا للّجان في الطريق، لن يشك في أمرنا أحد إذا وجدوا نصف من بالسيارة نائمون، إن النوم جريمة لا يحاسب عليها القانون، وضعناهم في السيارة التي اشتريتها منذ فترة، سيارة كبيرة تسع كل شيء، نقلت كل ما نحتاج إليه هناك، صناديق ليديا التي قامت بتنسيقها بعناية فائقة، وبعض الملابس والطعام والوقود، كان جمال يغير ملابسه بعد أن قام بدفن الطفل النافق في حفرة جوار المنزل، كانت غلطة غبية،لكن لا وقت لإصلاحها الآن، إن الوقت يداهمنا وأريد أن نصل إلى هناك قبل الشروق، لقد تم ترتيب كل شيء، علينا فقط أن نصل إلى مدينة مرسى مطروح، قبل الشروق، رباه، إن ليديا في اللون الأسود لا مثيل لجمالها، اقتربت مني وهي تغلق سحاب المِعطف الجلديَّ الأسود الضيق جدًّا الذي ترتديه، واضعة كفيها قرب شفتيها،

مددت يدي ألمس يديها كي أدفئهما لها قليلًا، فوضعت يديها في جيبيها، لم أشعر بالإحراج منها، فأنا أعلم أنها لا تكن أي مشاعر لأحد، لكني اغتظت عندما رأى جمال هذا المشهد وهو يقف على باب المترل يغلق الباب، ويرمقني بنظرة حادة، نزل درجات السلم وجاء يفتح باب السيارة ل ليديا التي قامت هي بالإسراع وفتحت وركبت السيارة، وأغلقت الباب، بادلته أنا نفس نظرة التشفي الحادة، ركب جمال إلى جواري، وجلست ليديا بجوار الطفلين والرجل المخدرين، سيظن الجميع حتمًا أنهما عائلة سعيدة، نام الأب والطفلان والأم ساهرة والعم والخال الشرفاء يجلسان بالأمام، أحدهما خلف المقود والآخر جواره يراقب الطريق، كلا لن يشك فينا أحد، نسيت شيئًا واحدًا فقط، لكني سأعود من أجله، إذا عدت، كان كارم يحدّث نفسه وهو يبتسم وينظر إلى ليديا في مرآة السيارة.

***

(69)

1625م

ما إن رأيت القادم حتى وقفت وكادت عيناي تدمعان من الفرحة، ثُلي، لقد عاد، لكنه أشار إليَّ بالجلوس، عدت إلى الجلوس بجوار لينورا، ونظر ثُلي إلى الأعلى ومعه جنود ظل عددهم يزيد وخوفي يزيد، فهذا معناه أن الخطر لا بالهيّن، وقف الجميع في صمت يراقبون ما يحدث، ناظرين إلى أعلى وصوت العراك يقترب حتى دقت الدقات الثلاث، تسردونت دقت وتَلت التعويذة كي تفتح المقبرة بابها، وما إن فُتحت المقبرة حتى سقطوا على السلم، تسردونت، مراد الرايس وبعضا من جنوده، ثم أغلقت المقبرة بابها، ظل الجنود الباقين بالخارج يحاولون مِرارًا وتكرارًا فتح البوابة، لكنها لا تفتح، فليس لها وجود إلا للعالم بها، لكن مراد الرايس وجنوده كانوا في قمة الاستغراب، لن أقول في قمة الرعب لأن ليس سهلًا إن ترعب مراد الرايس، لكنه وجد نفسه في المكان مع جنوده وتسردونت وأنا ولينورا، لكنه لم يأبه لوجودنا في المكان، كان ثُلي وجنوده يقفون خلفهم لكنه لم يراهم، اقترب ثُلي وجنوده منهم، أمر ثُلي جنوده بإحضار جنود مراد الرايس، كانوا ثمانية، لقد حان الآن وقت

الرعب، صرخ الجنود عندما أحسوا بأيادٍ عملاقة خفية تقبض عليهم وتقودهم إلى البوابة، أمر ثُلي بفتح البوابة وتم إلقاء جنود مراد الرايس ثم أغلق البوابة ثانية، لقد كان جنود ثُلي من الجن الضبائيين، طوال القامة، لهم مخالب وأرجل وجلد كالماعز، وصدر كصدر الإنسان لكن رؤوسهم بها قرون، أمرهم ثُلي بالعودة خلفه بعد أن ألقوا جنود مراد الرايس خارج المقبرة، وكان مراد ذاته واقفًا متحفزًا، لا يعرف من ألقى بجنوده إلى الخارج لكنه يشعر بهم، ثنى ركبتيه وأشهر سيفه من غمده، وقال والنيران تندلع من عينيه وصوته، ربما كانت نيران الخوف، إن الخوف يُمديك بشجاعة وقوة أحيانًا حتى، وإن كنت جبانًا، فما بالك بمراد الرايس ذاته؟ كانت تسردونت لا تُمس، هو يعلم هذا جيدًا، فكيف لك أن تقتل من قُتل بالفعل، لكنه صاح عاليًا، إن كنتم ذا شرف فاظهروا، وإن كنتم أعدمتموه فأخرجوني إلى جنودي نقاتلكم، وإني أحكّم بيني وبينكم مليككم.

نظر بعدها ثُلي إلى جنوده وأمر أحدهم بتمهيد الطريق، واقترب ثُلي من مراد الرايس وقال بصوته الرخيم الهادئ، لأنك هنا في المقبرة المقدسة، أنا أذنت لك بأن ترانا الآن يا ابن آدم، تراجع مراد الرايس خطوة إلى الوراء بعد أن رأى ثُلي وجنوده للوهلة الأولى، كان ينظر إليهم ثم يعود إلى رشده ثانية كأنه يقول نعم هذا كله حقيقي ليس وهمًا، قال له ثُلي: ماذا تريد من الملك القاضي؟ أجابه مراد الرايس إن ما حدث يحكم فيه قاضي الجان، لأنه فاق حكم ملوك الأرض وتعداها.

نظر له ثُلي ثم هز رأسه إلى الأمام، أي نعم، أمر ثُلي بإفساح الطريق وقال لتسردونت أن تمشي معهم، سيذهبون جميعًا إلى الملك القاضي وستكون هناك

محاكمة لما حدث في المدينة، ستحضر المحاكمة قصليم، كبيرة ساحرات المقبرة، وأشار لي ثُلي أن أتبعه أنا ولينورا، ثُلي تقدم الطريق وخلفه مراد الرايس وحراس ثُلي ثم تسردونت وخلفها حراس من المقبرة ثم أنا ولينورا وخلفنا أيضًا اثنان من الحراس، اقتربت مني لينورا ملتصقة بثيابي وهي تنظر لي وملء عيناها الهلع، وضعت ذراعي اليمنى تحوطها كي تهدأ، لم تكن وحدها بحاجة إلى هذا العناق، رغم السنوات إلى أمضيتها في خدمة تمازيغيت، لم أحضر قبلًا محاكمة للملك القاضي، إن الأحمق فقط من لا يخاف هنا، أحيانًا يكون الخوف من العقل، لكن العقل تركناه هناك، على أبواب مدينة سلا، أما الآن فنحن بقاع الأرض حرفيًّا.

مشينا إلى حيث الأنفاق الأولى، نظرت لينورا يسارها، نعم، تلك الغرفة التي زرعت في رحمها جنينًا، وفي صدرها أنين، كاد يخرج منها لولا ضغطت برفق على كتفها كي نكمل السير.

كان النفق يظلم أكثر وأكثر، حتى لم يعد هناك نور على الإطلاق، كانت عيون الحراس بجوارنا تُنير وحدها كأنها جمر في ليلة سوداء، لكن النور ظهر فجأة، كأننا عبرنا إليه من فجوة مظلمة، ورأينا بوابة عملاقة الحجم، حمراء اللون، بها زخارف ونقوش فضية يتوسطها ياقوت أحمر، اقترب منها ثُلي ثم تضاعف حجم ثُلي إلى حد أنه صار ضخما جدًّا، وازداد طول شعر رأسه إلى إن تدلى بالأرض، مد يديه إلى أعلى، كان هناك فتحة في أعلى البوابة مد يده فيها وألقى شيئًا كان بحوزته، ثم عاد إلى حجمه الأول وتراجع إلى الخلف خطوات، فُتحت البوابة وعبرناها إلى الداخل ثم أغلقت البوابة كما كانت، كانت تلك البوابات لا تُفتح إلا بإذن الملوك والغيلان، كان ثُلي من أُمة

الغيلان، يتشكل كيفما أراد، له قوته ونفوذه في عالم تحكمه القوة، فأينما حللت في أي مكان أو عالم، إن كل عالم تحكمه قوانين والقانون الذي يسري على الجميع هو قانون القوة، إن كنت صديقًا لها فأنت آمن وإن كنت خصمًا لها فلن تهنأ أبدًا، إنه قانون الحياة اقبل به، أو اهْلك.

***

(70)

2013م

كان هذا هو يومنا، يومًا لا مثيل له، إن أفراد الأمن منشغلون تمامًا، كان هناك حادث كبير في مكان ما، بعيدا عن هذا الطريق، هكذا لن يُهتم أحد في لعائلة تعبر الطريق، كانت المسافة بعيدة، طويلة، ومرهقة، لكننا وصلنا قبيل الفجر بقليل، كان جمال قد استأجر تلك الشقة هاهنا، لنمضي فيها ليلة واحدة قبل أن نرتحل غدًا إلى سيوة، إلى شالي، إلى حيث الأمان، إن الظلام غطاء سحري كبير يغلف كل شيء، يجعل من الرث أنيقًا، ومن الشيطان ملاكًا، ويجعل من المجرمون أبرياء، لن تعرف أحدًا في الظلام، كان لا بد لنا أن ننتظر إلى مساء اليوم التالي كي نرحل، كي لا يلاحظنا أحد من المارة أو السكان، صعدنا، حمل جمال الرجل يسنده من تحت إبطه، وحملت أنا طفل وليديا طفل وصعدنا بهم إلى حيث الشقة، كانت البناية مُختارة بعناية، لا يوجد بها سكان الآن، كلما أفاق الرجل أو الطفلان قمت بتخديرهم، لا يوجد احتمال لمجازفة سماع أصواتهم هنا، إننا لسنا في منزلي بالبلدة، في البلدة لم يكن أحد حولنا ولا يأبه أحد إلى أنينهم

لكن هنا الأمر مختلف، أمضينا اليوم نتناوب الحراسة عليهم وعلى السيارة التي بها أشياء لا يعرف قيمتها سوانا، إن الساعات حينما تراقبها كي تَمُر، لا تَمُر، بعد أن أسدل الليل ستائره، رحلنا كما آتينا، وضعنا الرجل والطفلين بالخلف وجلست ليديا معهم، ثم استقللنا أنا وجمال السيارة لكن تلك المرة قام هو بالقيادة، لقد كان يحفظ الطريق عن ظهر قلب، كان هذا الطريق مرسوم في ذاكرته جيدًا، كان هذا هو طريق الحياة إليه، إن كل شيء مهم، أي أوراق حكومية وأي أطباء يداوون المرضى بالطب الحديث، وأي سلعة خاصة، كل هذا له هذا الطريق، كانوا يأتون من سيوة إلى مطروح، كي يقضوا مصالحهم، لقد كان جمال يعرف الطريق جيدًا، وكنا قبل العاشرة مساء منطلقين نحوها، شالي.

***

(71)

1625م

لينورا،

عبرنا البوابة الحمراء الكبيرة، كان لها صرير مخيف عالٍ، ما إن دلفنا إلى الداخل حتى أخذ أنفاسنا ما رأينا، سبعة أنهار لكل نهر لون مختلف، تمتزج مياههم عندما تصب في نهر ثامن كبير، نهر له خرير ولون أسود متلألئ كالسماء ذات النجوم، نهر، كنا، نسير عليه، لقد اكتشفت فجأة أننا نسير على الماء، تجمدت في مكاني وتحسست الأرض ثانية كان الماء كالزجاج، هزني ناتير كي أكمل السير، كنا في بوابة القمطاق، العابرة بين البوابات والمقبرة المقدسة، كان بين كل نهر وآخر أشجار وزرع كله باللون الأحمر، كنا نُكمل السير متأملين حولنا كل شيء حتى وصلنا إلى بوابة أخرى، لكنها تلك المرة ليست مغلقة، كانت مفتوحة وعليها حراسة تحميها، اقترب ثُلي من رئيس الحرس، كان طويلًا، له قرن واحد كبير محفور عليه نقش في منتصف جبهته، وعين واحدة كبيرة، بياض كان عليه نقوش كالحروف الصغيرة المضيئة، له فم واسع، منخاراه كانا ثقبين، كأن لا أثر لهما، عدا ذلك الوجه كان جسده

كالإنسان، قال لثُلي شيئًا بلغة أشبه بالنقر على الخشب كأنك تدق دقات متتالية، رد عليه ثُلي بمثلها، فتنحى الحراس مفسحين لنا الطريق كي نعبر إلى الجهة الأخرى، كانت صحراء قاتمة اللون، رمال كثيفة، والأرض لهاونا ورائحة كأنها جمر أُضرم من ألف عام لكنه لم يحرق أرجلنا، سرنا وإذا بالخلف أحدهم يصرخ، نظرت بالخلف فوجدت كائنًا قصيرًان فعل حركة بهلوانية في الهواء كأنه يمشي على حافة البوابة بالعكس، لم يمسكه الحرس تركوه، وإذا به يترل إلى الأرض، ثم سمعنا صراخه المؤلم، وعواؤه يملأ المكان، لقد ذاب في الجمر، مثلما تُشوى الدجاجة أو بالأصح تحرقها على أقوى نيران يمكن تخيلها، الآن فهمت، لقد هرب من الحرس كي يعبر لكنهم لم يعطوه الإذن، هكذا حرقه الجمر إذًا، ولهذا لم يحرقنا، ولم يغرقنا النهر أول الطريق، أنه ثُلي، يعرف كل الحرس، ويأخذ الإذن والعهد قبل أن يخطو، حقًّا كان ذكيًّا، لكني إلى الآن لا أدري لماذا يساعد ناتير، جذبني ناتير برفق من ذراعي هامسا، لينورا، انظري أمامك كي لا تتعثري.

لا أدري كم من الوقت مر، لكني شعرت أنه دهر، حتى انتهت تلك الصحراء القاتمة، ووجدنا أنفسنا أمام بوابة أخرى، بوابة الصِّمطاق، بوابة الحراسة الأولى، لكنها كانت سوداء اللون، قصيرة، الزخارف بها دائرة، كأنها كرات تلف حول نفسها، أمسك ثُلي منها واحدة وهي تدور واقترب منها هامسا بكلمات معكوسة الأحرف، تركها ثُلي فإذا بها تدور بالعكس، كل الكرات تدور بالعكس وبسرعة أكبر، ثم طوت البوابة نفسها مثلما تُطوى الورقة، عبرنا خلالها ثم رجعت البوابة إلى حالتها، ضجيج، هذا ما وجدناه داخلها، من أول لحظات، أصوات كثيرة متداخلة، كان الأمر أشبه بسوق

شعبية كبيرة، كبيرة جدًّا، مئات الألوف من الكائنات القصيرة، سوداء اللون، قرمزية الأعين، جلدها به لزوجة لامعة، وآذانها كانت دائرية كبيرة، ويعملون، أنهم في دأب متواصل، كنا نَمُر في خط مستقيم خالٍ من المارة بأرض سوداء قاحلة، لكن على الجانبين كان هناك زرع وماء، ومنازل صغيرة الحجم، متواضعة المنشأ، كثيرة، كثيرة جدًّا، وكانوا هم أكثر، كانوا مثل النمل المجتمع، لديهم بضاعة يفترشون بها الأسواق، ودكاكين صغيرة، بها كل شيء، لو أننا لم نكن تحت الأرض لقلت إنه مثل السوق الكبيرة في سلا من كثرة زحامها، لم يكترثوا لأمرنا كثيرًا، كان تُلي ماض في طريقه وخلفه الحرس ولا يزالا تسردونت نيسمضال ومراد الرايس خلفه ثم الحرس وأنا وناتير وخلفنا الحرس، كنت أعلم تلك النظرات السريعة المختلسة غير المكترثة لشيء التي ينظرون هؤلاء القصار لنا بها، أنها نظرات من يكترث إلى لقمة عيشه، فلا وقت لديه أن يتطلع في المارة، ولا يريد أن يعرف ما وراءهم، إذا لم يقتربوا منه، ولن يكسب منهم شيئًا، فليذهبوا إلى الهاوية بعيدًا عنه، كان المنظر متصاعدًا، كأنه جبل نصعد إليه على الرغم من استواء الطريق، لكن المنازل كان تدريجها متصاعدًا، تعلو كلما اقتربنا، من شيئًا يلمع، لم أتبيَّن ما هو إلا عندما وصلنا.

***

(72)

2013م

كان الطقس باردًا، مطيرًا، مظلماً جدًّا، كأن السماء تعرف ما نحن مقدمون عليه، فأظلمت السماء للظُّلم، بُلينا بليلة بلا قمر، بلا روح، بلا حياة.

دقت الساعة كانت الحادية عشر مساء، حينما وصلنا إلى القلعة ذاتها، لم يكن هناك أحد سوانا، الكل احتمى من البرد داخل البيوت، أما نحن فقد نزلنا سريعًا، حملت أنا الرجل، وأمسكت ليديا بالطفلين كانا قد أفاقا قليلًا من المخدر، لكنهما سائران معها مترنحين تحت بقايا تأثيره، ربما كانت العمة ليديا اللطيفة وهم ذاهبون إلى منازلهم، إن منظرهما يُدمي القلب، إن بقي في أضلعنا واحد ينبض.

كان جمال يسير خلفنا بالصندوق الخشبي الكبير الذي يحوي كل ما نريد، وكل ما جمعناه طوال تلك الأعوام من الأحشاء المجففة وغيرها، كان يهمس لنا يدلنا على الطريق يمينًا أو يسارًا حتى نصل إلى باب المنزل المطلوب في قلعة شالي، وصلنا وعند الباب ظهر لنا حارس، كان يثير رعب العامة، حراس

الجان، فنحن نراه كما ترون أنتم فرد الأمن لدى أي شركة أو عقار، كان الحارس طويلًا، رفيعًا جدًا، ذا ملامح حادة وأنف صغير تحت عيون نظراتها هادئة مشقوقة بالطول، أخبرناه أننا قد أتينا إلى مولاه ثُلي، انصرف لثوان ثم ظهر مرة أخرى، وفتح لنا باب المترل، دخلت ليديا وجمال والطفلان، أما أنا فكان لا بد لي أن أفعل أول طقس لهذه الليلة قبل دخول المترل.

على عتبة الباب، وضعت الرجل على الأرض، وأخرجت من حقيبة صغيرة معي مشرط الجراحة، كان الرجل لا يزال تحت تأثير المخدر، قطعت أذنه اليمنى، وضعتها جانبًا، ثم قمت بلي عنقه حتى غاب عن الدنيا، تراجعت إلى الخلف وأمسكت الأُذن المقطوعة وأطحت بها على سطح المترل، ثم عدت إلى جثة الرجل حملتها معي إلى الداخل.

***

(73)

1625م

لينورا،

لم يكن الشيء اللامع إلا بوابة ذهبية عملاقة، من نورها أغمضت عينيَّ لوهلة، كان ذهبًا خالصًا كأنه صُب في قالب عملاق حتى صار تلك البوابة، لم يكن عليها أي نقوش، أو حتى مكان لفتحها، توقف ثُلي قبل البوابة ببضع أقدام، ونزل إلى الأرض، وضع رأسه على الأرض كأنه يسجد، غاص وجهه إلى داخل الأرض، كان يكلم احدًا يقول له من هو ومن معه، وأنه يطلب الإذن بالدخول، ثم أخرج ثُلي رأسه وانتصب واقفًا، وتراجع إلى الخلف وأمرنا بالشيء ذاته، ثم رأينا شرارًا يتطاير من البوابة، كان هناك من يحدث فجوة بطول قامتنا، بوابة تسمح لنا بالعبور، كان تطاير الشرر مثل الحديد عنما يُقطَع وهو ساخن باللهب، فُتحت الفجوة وعبرنا خلالها، ثم قام الحارس بغلقها مرة أخرى، كأنها أمتار من الذهب الخالص صلبة لا شائبة فيها.

كان الوضع هنا مختلف، وتلك بوابة مختلفة، إنها بوابة الملوك والقاضي، بوابة عُنيطاق، كانت المنازل راقية المنظر، بهية الطلة، كأنها داخل فقاعة نقية

كبيرة تحميها من كل شيء، حتى العيون ذات الأتربة، الحراس خلف البوابة كانوا كثيرين، كثيرين جدًّا، كأنهم جيش محارب، كانوا طوال القامة، عريضي الهيئة، لهم أرجل كالحوافر، وقرون كبيرة ملتفة على أطراف جباههم، بعض الشعيرات المتناثرة على وجنتيهم تقف حادة مثل الأشواك، كان من هؤلاء في كل مكان حولنا، عيونهم كأنها تراقب كل شيء بلا حركة، مشينا جوارهم، كان ينظر إليهم مراد الرايس بتفحص كبير، أنه خبير حروب، مُربي مقاتلين، ويعرف الجنود جيدًا، حينما يرى منهم واحدًا، كان هؤلاء بلا شك هم الجنود المحاربين للمكان، سرنا طويلًا، حتى وصلنا إلى مترل، صدر من ثُلي صوت ما يشبه القرقرة الصادرة عن غلي الماء، رد عليه صوت رفيع بنفس ذات القرقرة تلك، فُتح الباب ودخلنا لنجد قصرًا، قصرًا عملاقًا، أحمر اللون كله، مضيء بصورة رائعة، كانت الجدران ذاتها مضيئة، تشع نورًا متلألئًا، قادنا الحارس إلى حارس آخر، توقف قلبي حينما رأيته، لم أر في حياتي مخلوقًا بهذا الحجم، كان طوله أمتارًا كثيرة لا أدري عددها، ضخمًا، أملس بلا شعر، جلده يميل إلى لون السماء في يوم صافٍ، عيناه عميقتان كأنما يري بهما دنيا أخرى، قامته مفرودة، قادنا إلى داخل بهو كبير، نزلنا إلى سلالم نقش عليها طلاسم وحروف كأنها لغة عربية لكنها لا تشكل كلامًا مفهوم لي، نزلنا خلفه جميعنا، وأنا يدي في يد ناتير أقبض على يديه بشدة من الخوف الذي كان يرجف جسدي كأني ورقة خريف سقطت من شجرة عجوز تعبت من الطقس البارد والرياح ليلًا، نزلنا سُلمًا طويلًا ملتويًا، ثم وجدنا أنفسنا في قاعة كبيرة، كبيرة جدًّا، مليئة بمخلوقات كثيرة، كأننا في حُلم لنائم خياله أسطوري، قاعة دائرية كبيرة، يصطف بها مخلوقات يشكلون دائرة آخرها كان قبلنا بقليل وأولها كان عند

عرش كبير لمخلوق يجلس عليه، كان يرتدي ثوبًا أخضر زاهيًا، وفوقه شريط أبيض مائل من اليسار إلى اليمين كُتبت عليه الشهادتان، كما كُتبَت على التاج ناصع البياض الذي يرتديه فوق رأسه، كان يجلس في وقار الملوك، نظرنا إليه وهمّ مراد الرايس بالحديث فأشار له ثُلي بالصمت واقترب منه وهمس في أذنه همسًا سمعناه لوجودنا قربه، قال له ثُلي : اصمُت، أنت الآن في حضرة قاضي قضاة الجان، أنت الآن في حضرة الملك، شمهورش.

***

(74)

2013م

كارم،

كان المنزل الذي في شالي متهدّما إلى حد كبير من الخارج، لكن ما إن تطأ قدماك داخله، ستراه كأنه منزل كبير، كأنه مَخفي عن أعين البشر في الخارج، أو أنه تمدد فزيائي لا تفسير له، كان المنزل قديمًا، باردًا، معتمًا، كان يسير أمامي جمال وليديا، يحمل كل منهما طفلًا وأنا معي الحقيبة، كنت قد تركت جثة الرجل بجوار أحد الجدران، فقد أتم مهمته ولم نعد بحاجة إلى جثته، قادنا الحارس الذي رأيناه على الباب إلى الداخل، صار بنا في ردهة طويلة، كانت تزداد ضيقًا كأنها توشك على اعتصار أجسادنا، حتى وصلنا إلى آخر الردهة، كان هناك جدار قديم، مظهره رملي، ينير أسفله ضوء أحمر، مثل النيران الخافتة، عدا ذلك لا شيء، نظرنا إلى الحارس الذي لم نر غيره بعد، كان يقف إلى جوارنا ينتظر، وضع كل من جمال وليديا الطفلين أرضًا، كانا لا يزالان تحت تأثير المخدر الذي حقنته بهما قبل قليل، لحسن حظهما، اقتربت من الطفل الأول أتحسس صدره كي أُباشر عملي، لكن العناية الإلهية أرادت له

ميتةً غير ما أردنا، لفظ أنفاسه الصغيرة في الطريق، وضعناه جانبًا، لا بد أن يكون القلب حيًّا حينما نتلو التعويذة، لكن هذا لا يهم، معنا الاحتياطي لهذه المهمة، إننا نخطط جيدًا، أمسكت بالمبضع وسرى بسلاسة يمزق جلد صدر الطفل الثاني، كان حيًّا،كانت دمائه تنساب بينما تتلو ليديا التعويذة الأخيرة في تلك الرحلة "(اغانم اغانم اغانم بالوحى والعجل العجل العجل اغنيم اغنيم اغنيم، يحضرون الآن يفتحون الباب إلى المقبرة المقدسة يحيطون السرداب بالقسم المقدس بعهد شمايل وخويلان، بعهد الملك المنسي، وأرض الأرضيين ضُميراء يحضرون الآن حراس البوابة مُيراء يريدون العهد يطيعون يطيعون يطيعون طهعيم طهعيم طعيهم أنزلت بالوغضاء سغاشم وبالطاعة مغاشم لك قلب الغضيض ولنا امتثال النهيض أجيبونا بحق اللام والضاد والكاف بحق القاصي والدان والناف اغانم اغانم اغانم اغنيم اغنيم اغنيم هاء سين عين ياء، أقسمت عليكم بطهير الدماء، الوحي الوحي العجل العجل الساعة الساعة الآن الطاعة والعهد لكم الوعد الكامل في اليوم المكتمل الكامل أيور الآن، تزيري أيور الآن تزيري، أيور الآن، تزيري بحق امرابض الأحمر وامرابض الجاسور بن الأحمر صاحب العهد الذي لا ينكث تفتح لنا البوابة ،وتأتي لنا الإجابة اهشم اهشم صليف صليف مزاجل مزاجل غسليم غسليم اغانم يطيعون الآن".

ما إن انتهت آخر كلمة من فم ليديا، وزهق آخر نفس للقربان الصغير الذي بين يدي ارتجت الأرض بنا حتى أني قُمت وأمسكت بيد ليديا، وكان جمال خلفها أمسك بظهرها قبل أن تسقط إلى الخلف، انشق الجدار الذي أمامنا محدثًا صوتًا وغبارًا كثيفًا، نظرنا إليه لم نتبين أي شيء، كان ظلامًا

دامسًا، لكني مددت يدي وجدت فراغًا كبيرًا أمامنا، دخلت أنا أولًا ثم ليديا وجمال خلفها، وكان يحمل الحقيبة التي بها جهد عمرنا بأكمله، عمرنا القادم، لحسن الحظ أن ليديا بارعة في تنظيم الحقائب، وإلا لكانت الزجاجات التي بها سوائل وعينات قد تهشمت، بعد ان خطا جمال وابتعد خطوات عن الجدار حتى سمعنا صوتًا، نظرنا خلفنا فراينا الحارس الذي كان خلفنا يضع يده على مكان ما بالجدار فانغلق في ثوان، نظر إلينا وهو يغلق الجدار نظرة لم أفهم معناها، إلا حينما نظرت أمامي ووجدت تلك الإضاءة الحمراء الخافتة تنير الظلام الذي كنا فيه ثم تحول لونها تدريجيًّا إلى لون أصفر ضعيف، نظرنا حولنا فذهلت أنا ونظرت إلى ليديا وجمال، كانت ليديا هادئة، أما جمال فكان مثلي مفزوعا قليلًا، كان حولنا على الجانبين وعلى مد البصر طوال السرداب،حفر كبيرة في الحائط، مقسمة إلى مترين ثم مترين ثم مترين بالعرض، أما الطول فكانت كل حفرة نصف متر طولًا، كان معرضًا طويلًا لا ينتهي، مليء بجثث محنطة بالطين، لونها أحمر، موضوعة على جانبها، متراصة، رائحة الموت القديم جعلتنا عاجزين عن التفكير، لكن ليديا تقدمتنا وأشارت لنا في صمت أن نكمل الطريق، نظرت إلى جمال الذي فهم ما يدور في عقلي تمامًا، ليست هذا المرة الأولى التي تدخل فيها ليديا هذا المكان.

***

(75)

1625م

كان حول الملك شمهورش حراس كثيرون، لا لكي يحرسوه ولكن تحسبًا إلى أي نزاع قد يحدث بين المتخاصمين الذين جاء كل منهم كي يفصل لهم الملك القاضي في خلافتهم السفلي والدنيا، كان الحراس صفوفًا، أولهم كانوا طوال القامة، نحفاء البدن، لونهم أقرب إلى الرمادي اللامع، أقدامهم كانت كقدمي الإنسان، إلا أن الأصابع كالحوافر، لهم عينان وأنف وفم كالخيط الرفيع، وفوق جباههم يمتد شيء كالقرن من نفس لون أجسادهم عدا نهايته كان لونها أسود، لاحظت أنه يتغير إلى الأحمر، كلما شعروا بالغضب من حديث أحدهم، وكأنها إشارة استدعاء تربطهم، كان صف الحرس الذي خلفهم من العملاقة، يزيدون على العشرة أمتار طولًا، جلودهم خضراء فاتحة، لا شعر لديهم، بنيتهم كأبناء آدم، عدا رأسهم، كانت عيونهم ثلاثًا ولهم فم كبير، لكنهم كانوا ذوي هيبة، يقفون في صفوف منتظمة، أيديهم خلفهم وأرجلهم متباعدة قليلًا، ورؤوسهم محنية قليلًا إلى الأمام، أما الصف الذي بجوار الملك كانوا الخدم، قصيرو القامة لا يزيدون عن المتر طولًا، كثيفو شعر

البدن، أرجلهم كالذئاب، ولهم ذنب صغير، وقرنان صغيران في مقدمة جباههم، وكانوا كثيرون في القاعة يتحركون بهدوء شديد، يلبون أي طلب صغير، قال ثُلي لأحدهم أن يحضر لنا ماء وبعض الطعام، إنهم يعرفون أن ضيافة الإنس تحتاج إلى كياسة يملكونها، كان على أطراف القاعة الكبيرة بعض المقاعد والأرائك التي صُنعت من أحجار ما، لونها قرمزي فاتح لامع، أمرنا ثُلي بالجلوس والصمت، ريثما تنتهي الصفوف التي أمامنا من حل نزاعها أمام الملك القاضي، أتى الخادم بالضيافة، وناولني ناتير شيئًا ما يؤكل وآخر شرابًا، لم يبد مراد الرايس أي اهتمام لاحتياجات آدمية، كان الغضب داخله أقوى من ـــن يستسلم لدقائق كي يتذكر مرة أخرى أنه إنسان ولا بد أن يأكل ويشرب ويفرغ مخلفات جسده المنهك، كان رجلًا من طراز خاص، قائدًا، لم ينس للحظة أنه كذلك، كانت تسردونت نيسمضال تنظر إلى الملك شمهورش في رعب كبير، ربما أكثر من رعبنا نحن أبناء آدم، ربما كان لديها فكرة عما سيصنع بها، لكنها كانت تبحث بعيونها في كل مكان عن من سيحاول إنقاذها إن وجدته، كانت تبحث عن قصيلم، إن ل قصيلم اليد العليا على ساحرات المقبرة المقدسة، لكن هاهنا اليد العليا في حل القضايا هي لقاضي الجان الملك شمهورش، لكنها ما زلت تبحث، وأرسلت خادمًا يبحث عن قُصيلم لعلها تفعل لها شيئًا، لعلها.

كان ناتير يضمني إلى جواره، وأنا أنظر إلى هؤلاء الذين يقفون أمام الملك القاضي، قال لنا ثُلي إنهم من أُمة الضبي، كانوا تسعة، أرجلهم كالماعز، جسد إنسان، ثم رأس ماعز أيضًا وقف أحدهم أمام الملك وانحنى ثم اعتدل وقال بصوت رخيم: أيها الملك قاضي قضاة الجان، العادل الذي أعطاه الله الحكمة

والعدل، نسألك فيما هو لنا أن تحكم، وأن تعدل فنرضي بإذن الله تعالى، قتل أخي ويُدعى، بِغَان، بلا وجه حق على يد من يُدعى، فُضِيلع بن السامع، وهو من أُمة الأرهاط، وهم قوم أقوياء، لم يسمعوا منا حين طالبنا القصاص، ولم يعيرونا انتباهًا حين أخبرناهم أننا سنذهب إليك يا قاضي القضاة، إن الحق بالحق والعدل نسألكم.

ثم انحنى وتراجع خطوات إلى الخلف، أشار الملك شمهورش بيده إلى أحد الحراس الذين يقفون خلفه، ففهم على الفور ما يُرَاد، ثوان واهتزات القاعة بشيء ضخم إلى أبعد حد يمكن تصديقه، مخلوق له سبع من الأعناق وسبعة رؤوس، وسبع من الأذرع والأرجل، ضخم إلى حد مفزع، لكن الحراس أحضروه مُقيدًا، مكبلًا، منحنيًا أمام الملك الذي قال له: هل فعلت؟ هل قتلت بغان بلا وجه حق، فأومأ برؤوسه السبعة، أي فعل، ولكن كان خطأ، فلم يقصد قتله، أشار له القاضي بالصمت، فكان يعلم كذبه، لكنه يريده أن يعترف عله يُبدي ندمًا صادقًا، حينما أدرك هذا المخلوق الذي يُدعي فُضِيلع بن السامع أنه مقتول لا محالة قام وهو ينظر إلى أخي بغان وعشيرته كي ينتقم منهم، حينها قام بعض من الحراس من بني العملاقة بدق عنق من أعناقه السبع، أشار لهم الملك فأخذوه إلى سرداب في يسار القاعة وهم يجرونه على الأرض محدثًا صياحًا مؤلمًا، اختفى ضجيجه بعد ثوان، كأن لم يكن وأشار الملك القاضي إلى عشيرة الضبي أي اذهبوا، لقد انتهى وقتكم، فانصرفوا جميعًا إلى باب يمين القاعة راحلين في ثوان، تقدم بعدها آخرون يقدمون شكواهم، هنا لم أستطع أن أتحمل أكثر، رفعت قدمي فوق الأريكة جواري وأمسكت بذراع ناتير، عدلت رأسي على كتفه واستسلمت إلى النوم، كنت بحاجة إلى تلك

الغفوة القصيرة، كيف أنام هنا، إن النوم يأتي وله هيبته حتى وإن كنت في هيبة ملك القضاة، إن النوم سلطان لا يقاوم أمره أحد، إن السكينة تأتى بهذه الذارع الذي التفت حوله يداي وأرحت رأسي على كتفه، إن النبض الذي أشعر به في صدر ناتير لقادر على أن يجعلني أغفو مُطمئنة، وإن كنت على أعتاب الجمر، إن رزق الله لي كانت هاتين العينين الزرقاوين الحانية التي بادلتني النظر بحنان ومودة قبل أن أغلق عينيَّ.

***

(76)

2013م

سليم،

في الطريق، لم أفهم ما الذي يريدونني أن أفعله، كان الطريق طويلًا، وكنا نتبادل القيادة أنا والشيخ معتز، وظيام وميادة يجلسان بالخلف، شردت لحظة فانحرفت السيارة قليلًا، نبهتني ميادة وهي تربت على كتفي، سليم، استيقظ، لو كنت متعبًا قف بالسيارة لدقائق أو اجعل الشيخ معتز يتولى هو القيادة، لكني أخبرتها أنني بخير، ولكني لا أدري ما الذي سأفعله حينما تنتهي تلك السويعات الباقية ونصل إلى سيوة، هل يتوقعون مني أن أثني أخي القذر وأصدقاءه الأقذر عما يفعلونه؟ هل سيخاف مني أخي الذي لم يخف ربه، أم سيصحو فجأة قلبه الذي لا أظنه حيًّا بعد أن قتل كل هؤلاء الأطفال كي يقدمهم أعضاء إلى تاجر ما، وأرواحًا كقرابين إلى تاجر آخر، هل يعي الشيخ معتز وميادة أن ذهابي لا حاجة إليه، أم أنهم كالغريق الذي يظن أن القشة هي التي ستنجيه، لكني كلما نظرت خلفي ووجدت ظيام يجلس هادئًا، ألقى ب

يظنونني تحت عجلات القيادة، فأين المستحيل بعد أن يجلس مخلوق كظيام في سيارتي كأننا ذاهبان معًا في نزهة عائلية، لم أكن أعرف شيئًا غريبًا عن سيوة، سوى مقال قرأته ذات يوم عن مأمور القسم هناك كان هذا عام **1891** الذي فجر معبد آمون الأثري كي يأخذ حجارته ليقوم ببناء قسم الشرطة ومنزل له، ولم يبق من المعبد سوى جدار واحد، لكن أن يكون هناك عالم آخر تحت الأرض كما يقولون، فكانت أقوى من تصديق عقلي، حتى وإن كنت مولعًا بأفلام الخيال العلمي، إن الحقيقة دائمًا أقوى على النفس من أي خيال محتمل، كان هذا رد الشيخ معتز على كلامي حينما أخبرتهم عما يدور في ذهني، لم أنتبه إلى أن حديثي مع نفسي كان مسموعًا، حسنًا إن كنت أنتوي أن أُجن يومًا ما، فلا بأس باليوم، هو مناسب، مناسب جدًّا، لكني كنت أفكر بشيء واحد فقط هو ما جعلني أتحمس لربما يمكنني فعلها وأكون عند حسن ظنهم وأحقق ما أخذوني من أجله كل هذا الطريق، كنت أفكر تُرى هل سأصل قبل أن يقوم أخي بقتل الطفلين اللذين أخبرني عنهما ظيام، أتمنى هذا.

***

(77)

1625م

بعد أن حكم الملك القاضي في أكثر من أربعين قضية، أشار الخادم إلينا، فقام ثُلي ومعه مراد الرايس وتسردونت نيسمضال وأمرني ثُلي، أنا ولينورا أن ننتظر في أماكننا، كانت لينورا كالهِرّة الصغيرة النائمة، ملتفة حول نفسها، تلتقط أنفاسًا سريعة، وجسدها الدافئ، ملتصق بي، لم تسمع شيئًا حينما ذهبوا ليقفوا أمام الملك، لكنها فُزعت حينما دق شيء معدني، كان هذا معناه أن المحاكمة بين الإنس والجان، وأنها ستبدأ الآن، وقف الجميع منتصب القامة، عيونهم تحوي رهبة وجلل الموقف، خطا مراد الرايس أمام الملك شمهورش بعد أن أذن الملك له بالتقدم خطوات نحوه إلى اليمين، ثم أشار إلى تسردونت نيسمضال كي تخطو إلى الأمام خطوات فصارت ووقفت أمام الملك على اليسار، تكلم الملك شمهورش برصانة وصوت رخيم وبفصحى عربية لا تشوبها شائبة، نظر إلى مراد الرايس قائلًا، "ابدأ الكلام بالسلام وذكر من خلق الأرض والسماوات والأنام، واعلم إنما أنت في حضرة ملك ملوك الجان،

شمهورش، من عباد الله الواحد القهار، خُلقت أنت من صلصال كالفخار وخلقتُ أنا من النار، وأني أعبد الله الواحد الذي لا إله الا هو، ولا أحكم بين الخلق إلا بالحق، فقل لماذا تجرأت ونزلت أنت وجندك تحاربون أبناء الجان في بوابة المقبرة الغربية، لقد أنهيت أنا سؤالي فقل لي ما جوابك يا ابن آدم".

انحنى مراد الرايس قليلًا إلى الأمام تعبيرًا عن الاحترام للملك وما قاله، ثم بدأ يسرد له القصة من أولها، بما فعلت تمازيغيت في عباد الله في بلدة سلا، وما فعلت بقتل وليديه الاثنين، حتى قاتلها فقتلها وانتهى كل شيء، وإذا بتسردونت نيسمضال، التي تسكن القبور خرجت ليلًا إلى البلدة كي تحاربهم، لم نكن نذهب إلى قبور البلدة ليلًا، وتركنا لها المكان، ولكنها لم تحترم العهد وقاتلتنا لأننا نفذنا شرع الله في أختها تمازيغيت بعد أن تأكدنا من قتلها للولدين، كنا نعلم أيها الملك أنها تفعل وأنها تؤذي، وكم شككنا في أنها قتلت، ولم يكن هناك دليل، ولكن وإن رأينا الدليل فحوكمت، والآن تسردونت نيسمضال تنتقم وتؤذي وتقتل رعيتي في البلدة، نزلت خلفها حينما احتمت بالمقبرة المقدسة وحتى جاء بنا من يُدعى ثُلي إلى هنا كي تحكم بيننا بالعدل، قالها مراد الرايس ثم حنى قامته إلى الأمام، أي انتهى ما يود قوله، فأشار له الملك، أي علمت، وحينها ظهر نور أحمر شديد تحت المكان الذي يقف فيه مراد الرايس، وظل هذا النور كما هو، أشار بعدها الملك شمهورش إلى تسردونت نيسمضال كي تتحدث، حكت له كل شيء، وفي أثناء سردها للقصة جاءت قصيلم، نظرت لها تسردونت مستنجدة بها، قالت بصوت يملؤه الغيظ والمرار، أيها الملك، يا عابد لله، لقد كنت امرأة من بني الإنسان، وهبني الله جمالًا يفوق جمال الحورية، كان رجال أهل البلدة يلقون الذهب والفضة

تحت قدمي راغبين في الزواج أهل الكرام، راغبين في عشق مُحرّم دونهم، واختار لي القدر زوجًا، عشت في كنفه سنوات ثم اختاره الله إلى جواره بعدها، وصرت أنا في نظر الناس أرملة، فظنوا أنهم قادرين على أخذي خليلة أو عشيقة، ولما امتنعت عنهم أيامًا وشهورًا حدادًا على زوجي، من كيدهم، اتهموني بالزنا، بلا دليل ولا برهان، بلا شهود ولا عدل ولا محاكمة، اجتمع رجال البلدة ونساؤهم يرجمونني بأحجار تفتت جسدي وأنا أجري وهم يجرون خلفي، راجمين، غاضبين، ظالمين، وصرت أجري حتى وصلت إلى بوابة المقبرة المقدسة، كانت إحداهم من ساحرات المقبرة نزلت، لم أكن أرى منها شيئًا، لكني ما إن وقعت فيها، وأنا أجري خوفًا منهم، انكسر عنقي داخل المقبرة، وأنت خير العارفين بها، من يمت داخلها يحيَ حياة أخرى، ورُزقت أم بُليت لا أعرف، لكني صرت كما أنا الآن، بغلة القبور، نصف امرأة ونصف حيوان، نصف حية ونصف ميتة، لم أكن لأترك أختي تمازيغيت مُضغة بين أيدي أهل البلدة الظالمين، فعلمتها كل ما تعلمته في المقبرة المقدسة، وادخلتها بين الساحرات نظيرة لهم، لم ابرح مكاني كما العهد، ظللت أنا لا اتخطى الحاجز الذي بين البلدة و القبور، حتى قتل هذا، وأشارت إلى مراد الرايس، حتى قتل تمازيغيت، أليس في الانتقام عدل، لم يكن وقت إعدامي رجمًا، لم يكن مراد الرايس حاكم المدينة، لكن أهل البلدة هم كما كانوا، وإن الظلم كائن والعدل لا أثر له في حكايتي، لقد صرت أنا الخوف ذاته ولكني قبل أن أُخيفهم، خفت، وقبل أن أقتل، قتلت، ها قد قلت ما في الأمر وإلى لله الأمر ثم لك سيدي الملك.

تراجعت تسردونت إلى الخلف قليلًا وأحنت رأسها احترامًا، وما إن أنهت كلامها حتى أظلمت القاعة كلها، وظهر نور تحت الأرض التي كانوا يقفون عليها تسردونت ومراد الرايس، نور أحمر خافت يضيء تحت أقدامهم، عدا ذلك اختفى كل شيء لدقائق، ثم وجدتني أنا وناتير وثُلي في نفق مظلم، كيف ومتى انتقلنا إلى هنا؟ لا أعلم، لكننا كنا نعبر المكان سريعًا، ثُلي يتقدمنا ووراءنا اثنان من حرسه طوال القامة، نحيفان، تبدو على وجهيهما جدية الموقف، خرجنا من النفق إلى قمة جبل تطل على مكان متسع للغاية، صحراء رمالها سوداء، وكان هناك آلاف الجنود يتدربون على القتال كل مجموعة منهم في جانب يتلقون تدريبًا مختلفًا، كثير منهم كانوا كحرس ثُلي، ومنهم من كانوا من العملاقة، أشار لنا ثُلي أن نترل خلفه من درجات سُلم محفور في الجبل حتى وصلنا إلى طرف جسر، يربط بين الجبل ومكان بعيد لا ندريه، كان الجسر طويلًا، مظلمًا، باردًا، طويلًا لا ينتهي، قال ثُلي إلى ناتير لا بد أن نسير ونعبر الجسر إلى نهايته، فلا يمكن الانتقال آنيًّا هنا، إن هذا ممنوع في ساحة التدريب، إلا بأمر من القائد عندما يرسل الجنود إلى مكان للدفاع أو القتال، حتى لا تتم مهاجمة الساحة من قبل جيوش أخرى، كنت أخطو متكئة على ناتير، أمر ثُلي جنده أن يحملني لكن ناتير أحس بفزعي من هذا فحملني هو باقي الطريق، كان صوت تدريب الجنود مفزع للغاية، أصوات عالية، بعضها كلام وبعضها طقطقات، وبعضها مثل قرع الطبول الصاخب، كلما ابتعدنا عن الصوت كلما أظلم الجسر نوره، حتى كنا في ظلام دامس لا تري فيه شيئًا، أنزلني ناتير أسير جواره خوفًا من أن نتعثر، أمسكت يده إلى أن وصلنا لأول بقعة ضوء خافته كانت هي إشارة إلى أننا انتهينا من عبور الجسر، إلى بداية بوابة المقبرة

الشرقية، كانت هناك مساكن قصيرة صغيرة على الجانبين وسوق كبيرة مثل السوق الغربية، لكن البضاعة هاهنا مختلفة، أغلبها لونها ذهبي وأزرق وأخضر وحُلي لم أرَ مثلها، وقطط محنطة، قطط كثيرة جدًّا، سرنا حتى وصلنا إلى بوابة ذهبية كبيرة ذات أبوب بها زخارف خضراء وحمراء و زرقاء، ونقوش كثيرة للحيوانات وأشكال لآدميين برؤوس حيوانات، دق ثُلي البوابة، ففتح له الحارس ودخلنا، كنا نسير في طريق على جانبيه قصور زاهية الألوان، كنا نراها عبر حائط مائي، كيف ينساب الماء لأعلى، لا أدري، لكنهم يفعلون، مرت ساعات ونحن نسير إلى آخر البوابة، حتى وصلنا للبوابة التي فتحها ثُلي بنفسه، كانت بوابة المقبرة المقدسة الشرقية، أخبرنا ثُلي أننا الآن تحت مدينة شالي، نحن الآن في مصر.

***

(78)

2013م

احمرَّ وجه ليديا غضبًا وهي تصرخ فينا أنا وكارم، أنتم أغبياء، أغبياء جدًّا، كيف تنسون الحقيبة في شقة مطروح؟ الحقيبة التي بها أحشاء القطط السوداء، لقد وضعتها في حقيبة وحدها لأنها الأغلى، كيف لكم أن تنسوا خلفنا شيئًا، لن تكتمل الآن الطقوس، لا بد من إحضار الحقيبة، وإلا فلن يُفتح لنا الباب الأخير للمقبرة، اذهبا معًا الآن إلى هناك، قبل أن تُشرق الشمس ولا تعودا إلا بعد الغروب، لا بد ألَّا يراكما أحد من سكان الواحة، وإلا ستمطر عليكم الأسئلة وسيفتضح امرنا، قال لها كارم، يذهب كارم وأظل أنا معكِ، كي لا تظلي وحدك في هذا المكان، نظرت لي ثم لكارم وقالت، اظل وحدي في هذا المكان؟ هل سأخاف إذا كنت وحدي؟ ستعرف إجابة هذا السؤال وأنت في طريقك إلى الخارج، عندما تخطو فوق جسد الطفل الصغير الذي ذبحناه معا قبل قليل كي نعبر إلى هنا، حينها، ستعرف إذا تبقي لديَّ أي خوف ام لا، هيّا ولا تضيعا مزيدا من الوقت، اذهبا الآن وكونا حذرين، قمنا أنا وكارم، نخطو عائدين ولا نعرف كيف فقدنا تلك الحقيبة ولكننا ونحن ذاهبون نظرنا إلى ليديا

التي نظرت لنا جيدًا، نظرة طويلة، عميقة، التقت عيناي بعيني كارم ثم هرولنا سريعًا كي لا يضيع الوقت، استقللنا سيارة كارم الذي انطلق بها سريعًا، كي نخرج من البلدة قبل أن يفيق أهلها لصلاة الفجر.

وصلنا إلى مدينة مرسى مطروح، وأوقف كارم السيارة قريبًا من المنزل الذي استأجرناه، ليس أمامه مباشرة كي نأخذ الحذر ربما كان يراقبنا أحد، ناولني مفتاح المنزل وقال لي: اصعد بسرعة وابحث عن الحقيبة التي قالت عليها لنا ليديا، سأنتظرك هنا، وسأدير المحرك كي نرحل من هنا وننتظر في مكان آخر حتى غروب الشمس، تركته وصعدت إلى المنزل، ما إن فتحت المنزل وجدت الحقيبة على الأرض بجوار الباب، حملتها، لا أدري لماذا جاءني شيء ما في خاطري أن أفتح الحقيبة، فتحتها لأجد ملابس الأطفال الصغار الذين قمنا بخطفهم، وبعضًا من الشعر المتناثر فوقهم، وسكينًا عليها آثار دماء، لقد قمنا بالتخلص من تلك الملابس بالكامل، ولم نقم بقص شعور أحدهم إلا أطفال أُضحية المقبرة وحدهم هناك على بوابة المقبرة الخارجية، فُزعت حينما دار في خيالي ما حدث بعدها حقيقة بثوان، نظرت خلفي لأجد اثنين من ضباط الشرطة وعساكر عددهم ليس بقليل، ألقيت الحقيبة من يدي وأنا مُدرك الآن ما حدث لكني لا أعرف، لماذا؟

"سيعرف الرّب أتباعه.. "

(79)

1626م

لينورا،

كان محتوى المقبرة المقدسة الشرقي مماثلًا لما كانت المقبرة الغربية في سلا، الغرف التي على جانبي الردهة الطويلة، الباردة، المظلمة، والنافورة التي يتوسطها تمثال لقطٍّ أسود كبير جدًّا، لم يكن بها أحد غيرنا، كان التعب قد احتل جسدي، والعرق يتصبب مني صبا، لقد مضت أربعة أشهر في قطع الطريق من المقبرة المقدسة بمدينة سلا في المغرب إلى قلعة شالي بمصر، إن بعضًا من الروح التي بجسدي تريد الخروج، أمسكت بيد ناتير وأنا أصرخ، كان الألم يعتصرني وانقباض أسفل البطن يمزقني، الجسد الصغير يُعلن أنه يريد الحياة، جلست أسفل الجدار الملاصق لي وناتير يعدل من جلستي، قال لي وهو يطمئنني، لا تخافي، ستلدين الآن، قاومي، استغاث بعينيه بثُلي، الذي أمر أحد جنده بإحضار أحدها، دقائق مرت وأنا أصرخ، كتمت صرختي طويلًا لكني لم أعد أحتمل، كان هناك ألف مطرقة تدق على عظام جسدي كله، أغمضت

عيني من الألم، فتحتها على صوت امرأة تقول لي هيّا، خذي نفسًا عميقًا وأطلقيه لأسفل، ودقائق أخرى وهي تقول وأنا أفعل، حتى سمعت صراخ طفل صغير، قالت لي إنها طفلة، لقد كانت قمرًا منيرًا، ناولتني إياها، ما إن رأيتها حتى بكيت، لقد غص قلبي ألمًا وفرحًا حينما نظرت لعينيها وأنا أحتضنها، كانت تحمل عيونًا أعرفها جيدًا، أجمل عيون في بلدة فاردو، إنهما عينا أختي كريستين، وكأن القدر أعادها لي مرة أخرى، انسابت من عينيَّ الدموع رغمًا عني، قالت لي المرأة التي ساعدتني كي ألد، أرضعيها بعد قليل، وسأحضر لكي ثيابًا جديدة وبعض الطعام، كانت سيدة جميلة، ملامحها شرقية، شعرها أسود طويل، وعيناها واسعتان كحيلتان، لكن عيناها كانتا حزينة، حزينتين للغاية، خطواتها هادئة ثقيلة، عرفت فيما بعد أن اسمها عايدة، وأنها من خدم المقبرة الشرقية، أحضرت عايدة الملابس والطعام وساعدتني كثيرًا، ثم قال لها ثُلي: حان موعد انصرافك الآن يا عايدة، ادخلي إلى الغرفة، راقبتها بعيني ورأيتها تدخل أول غرفة يسار الممر، سمعتها تشهق، ثم اختفى صوتها، ولم تظهر بعد هذا طوال اليوم، أين اختفت، لم تكن لديَّ قدرة على السؤال، نمت وتركت طفلتي لناتير الذي حملها إليه وهو ينظر لها بحب وحزن، لكني لم أدري لماذا كان حزينًا إلى هذه الدرجة، نظرت إليهما ثم أغمضت عينيَّ، ويا ليتني ما صحوت قط!

***

(80)

2013م

كيف حدث هذا لا أحد يعرف، لكن الشاب المُبلّغ عنه ويُدعى، "جمال قاسم نور الحسن"، قد اختفى من أمام قوة عناصر المباحث التي ذهبت كي تقبض عليه بتهمة خطف الأطفال للاتجار بأعضائهم، لقد أقسم الضباط والعساكر أمام قائديهم، لقد اختفى من أمام عيونهم فجأة، كأنه لم يكن، أخذوا يبسملون ويحوقلون ويذكروا الله بكل ما تذكروه من آيات وأدعية، لم يعرف كارم أن البلاغ الذي قدمه في جمال فشل، لم يكن يتخيل أن جمالًا لديه هذا العِلم بالعالم السفلي، وأنه قادر على إخفاء نفسه عن طريق التعاويذ، لكن ما إن رأى الشرطة تصعد خلف جمال إلى المترل حتى أدار محرك سيارته ورحل، سعيدًا راضيًا، حسب أنه تخلص من غريمه في قلب ليديا، كان طوال تلك السنوات يظن أنها محتارة بينهما، ربما بعد أن يُضحى به ويتخلص منه، لا تجد ليديا أمامها غيره، أنها حيلة الذكر منذ بدء الخليقة، يتخلص من غريمه كي لا تجد الأنثى بديلًا سواه، كان يريد أن يضرب كل العصافير بحجر واحد، يُخلّص أمه من عهدها مع ثُلي، ويحظى بليديا لنفسه، ويأخذ غنيمة المقبرة،

حياة أطول، ولديه المال لكن ينقصه الاطمئنان، سعادة بعيدًا عن موبقات الدنيا من المرض والموت والألم أو هكذا ظن، كان يفكر طوال الطريق حتى شارف على الوصول إلى شالي، كان مظهره مجرد رجل يمسك حقيبة صغيرة، ويرتدي ملابس عصرية، ربما كان سائحًا لن يثير انتباه أحد وهو وحده، قرر أن يغامر ولا ينتظر الغروب، مضى إلى داخل القلعة نهارًا، حتى وصل إلى مكان المنزل، لكنه لم يجده، إن البوابة لا تظهر بالنهار، كان عليه أن ينتظر غروب الشمس كي يدخل إلى ليديا، كانت أطول ساعات أمضاها في حياته، حياة ما قبل الحياة.

(81)

1985م

لم تكن عايدة تتخيل أن ديابًا زوجها القتيل، سيظهر أمامها وعيناه تقدحان من الغضب نارًا، كانت لتوها وارت جثمانه تحت الأرض، من هذا الذي أمامها، ركضت مذعورة في الليل وهو يركض وراءها، ظلت تركض وتتعثر وتسقط وتقوم لا تدري إلى أين تذهب أو على من تنادي، وهل بوسعها أن تنادي أحدًا، إن فعلت ورأت أي إنسان فلن يساعدها، سيبلغ عنها الشرطة ما إن يسمع عبارة زوجي المقتول يطاردني، زوجي الذي لتوي قتلته ودفنت جثته بيدي، كلا، إن الحل في الركض إذًا، ظلت تركض حتى وقفت فجأة، نظرت خلفها فوجدته، شبح زوجها دياب، الذي قطع أنفاسها ركضًا لوقت لا تدري كم مر عليها، وجدته يقف صامتًا ثم ينحني لأحد لا تراه هي، أمعنت في النظر أمامها وشيئًا فشيئًا، ظهر لها كائن قصير، كأن ضباب الهواء يجتمع ليشكل جسدًا أمامها، شهقت وهي ترجع إلى الخلف فتعثرت وسقطت أرضًا في بركة من الوحل، امتزجت الدماء التي تغطي ثيابها بالوحل الذي سقطت فيه حتى اقترب منها هذا الذي ظهر أمامها يحمل ملامحا غريبة وعينان

مفزعتان، كانت تعلم أنه ليس إنسانًا لكنها لا يمكنها الصراخ أو الاستغاثة، فلا جدوى من هذا الآن، حاولت تمالك أعصابها ونظرت إليه وهي ترتجف قليلًا، كان الذي أمامها ينطق باللغة العربية قائلًا لها، لا تصرخي، هل تعلمين من هذا الذي يعدو خلفك، ليس هذا زوجك الذي تحت التراب الآن، إنه القرين يا عايدة، قرين الروح المقتولة، لا تركضي، مهما ركضتِ فلن تهربي منه، إنه يريد أن ينتقم، يريد أن يأخذك إلى الجنون كي تقتلي نفسك مثلما قتلتِ جسد الآدمي القرين له، عايدة، إن لديَّ عرضًا لك،ستكونين في خدمتنا إن احتجنا إليك، إن فعلتِ سأرفع عنكِ أذى قرين زوجك دياب، وإن خالفتِ العهد سيعود لك، كي يكمل انتقامه الذي بدأه منذ الليلة، فكري مليًّا، ولك القرار، أنا لم أخبرك باسمي، أنا ثُلي، حارس الليل وحارس المقبرة المقدسة.

***

(82)

1626م

لينورا،

كيف تريدني أن أتخلى عن ابنتي يا ناتير؟

كان المرار يصب في حلقي الذي ابتلع جزئًا من صراخ مكتوم أود لو أنطق به، لكني تماسكت وأنا أنظر لعيني ناتير اللّتين تحبسان دمعًا لا يُريده أن يسقط أمامي، نظر ناتير أمامه ليجد ثُلي قادمًا، فهم ثُلي عينا ناتير وماذا يريد أن يقول، جلس إلى جواري وأنا أنظر إليه بخوف وأحتضن ابنتي الصغيرة وأضمها إلى صدري بخوف، قال لي ثُلي: هل تعلمين أني جازفت كثيرًا جدًّا كي أصل بك إلى هنا يا لينورا، أنتِ وابنتك التي لم يكن مقدرًا لها أن تغادر أحشاءك أبدًا؟ حيّة، كانت عقوبتك أن يتم التضحية بكِ أنتِ وناتير من قِبَل جماعة قصيلم وساحرات المقبرة المقدسة الغربية، لقد ادعيت أنكما لا تعرفان شيئًا عن الفخ الذي نُصب إلى تمازيغيت، دماؤكِ التي استعانت بها تمازيغيت في التعويذة هي التي قتلت قريني الطفلين ابني مراد الرايس، دماؤكِ وأنتِ حُبلى ملوثة للتعويذة، إن عَلِم أحد أنكِ السبب في قتل أبناء الجان، ستلقين مصيرًا

حتى في أشدّ كوابيس النوم لن تحلمي بعذاب مثله يا لينورا، إن مقابلتنا السرية وإلقاء تعاويذ الحماية عن أعين الجان هي من أنقذتنا جميعًا إلى هنا، ومقابل تلك التضحية لا بد لكِ من ردها، ستفعلين ما تؤمرين، إن الانتقال تحت الأرض أطول كثيرًا جدا من فوق الأرض يا لينورا، إن البوبات التي مررنا عليها لها حساب سنون يختلف عن حسابات البشر الأرضية، هل تعلمين في أي عام نحن الآن؟ نحن في عام الأرضي **1986**، لقد مر أكثر من ثلاثمائة وستين عامًا أرضيًّا، تحت الأرض هنا في المقبرة المقدسة، نحن في عام **1626**، لقد مات لنا خدم فوق الأرض كثيرون، ودائمًا ما نجدد العهود مع الخَدم الجدد المنضمين لنا، ولا بد لكِ من الخدمة والطاعة الآن، أنت الآن من خدم المقبرة ولهذا وضع خاص، ستخدمين سنوات أكثر من البشر الفانين، وهذا يخدمنا كثيرًا، أعمارنا نحن الجان بالمئات، والمرّدة مثلي بالألوف يا لينورا، أما أنتم فلا يزيد المائة منكم إلا قلة قليلة، أنتم الآن أحياء لأنكم الآن من سكان المقبرة المقدسة، ولكن التضحيات لا بد أن تتم، لا بد لتلك الطفلة أن تعود إلى المقبرة الغربية لتقرر قُصيلم مصيرها، أما لتصبح خادمة فيها أو يتم تقديمها قربانًا، إنها ابنة غُرفة المقبرة، إنها ابنة البغاء المقدس، أنها ابنة الليلة الأولى، إنها.. قاطعته وأنا أنظر إليه بتحدّ، إنها ابنتي، ابنتي أنا يا ثُلي، لن أضحي بها، سأقدم لك أي تضحية أخرى، إلا ابنتي أنا، لا بد لها أن تعيش، لا بد لها أن تشرق الشمس على عينيها، وأن يرى الناس ابتسامتها الجميلة، نظر لي ثُلي ونظر إلى ناتير الذي قام من مكانه بجواري وخرج هو و ثُلي وعدت أنا إلى غرفتي فوجدتها، عايدة، قالت لي إن كل شيء سيكون على ما يرام، نظرت لها وهي تبتسم، كنت أريد لو أصدقها، ويرتاح قلبي قليلًا، لكني أعلم، أن هذا ليس

واردًا هنا، لا شيء يصبح على ما يرام في صفقات تحت الأرض، وإلا لما أطلقوا عليه، عذاب القبر.

أتى ثُلي بعد قليل هو وناتير، كان وجه ناتير أصفر، باهتًا، ممتعضًا، حزينًا كأوراق الخريف، ففهمت للتو أن الصفقة ليست في صالحي.

لكن هناك من كانت تسترق السمع جيدًا، عرفتها من طرف ثوبها عند الباب، عايدة.

***

(83)

2013م

كانت ليديا تعمل في دقة بالغة، وبصبر وصمت، أخرجت من حقيبتها كل شيء تحتاجه جوارها، بعد أن أكملت نهاية النفق، جلست إلى الجدار الذي يفصلها عن ما بعده، وضعت حفنة من تراب القطط المجففة، ووضعت عليه قطرات من دماء الطفل الذي قتلوه قبلًا، ثم أخرجت من حقيبة أخرى ورقة مكتوبًا عليها رموزًا، قرأتها على الجدار مرة، ثم أشعلت الورقة وألقتها فوق الرماد المنثور، وقالت ما في الورقة مرة أخرى بصوت عال: "تليم تليم تليم تليم شومادر حواضر لاعثيم لاعثيم لاعثيم بحق السبع لا ثامن لهم وحق الناعقين، وحق السامعين، وحق ايليخ، وخدامه مانيخ، وحق العين التي ترى وحق دماء العهد بالشري، اتليم اتليم تكرير تكرير تتلية تتلية بحق طغخيق أجيبوا، وافتحوا ما سد علينا من أبواب بحق السامع الذي ما إن يدعى يُجاب، تليم تليم تليم قنادر قنادر تفتح لنا الآن شومادر الآن الآن الوحي الوحي الوحي العجل العجل الآن يُجاب مطلب من بالباب الآن".

عادت ليديا إلى الخلف وبدأ الجدار ينفلق بشرخ يسري من أعلى لأسفل، ممزقًا الجدار شيئًا فشيئًا، عادت ليديا إلى الخلف خطوة وأخذت ما معها من حقائب وتراجعت خطوة أخرى، ظلت الشروخ بالجدار تزيد وتسري به كأنها بيضة يتكسر جدارها الصلب ويتهشم، ثم انهار الجدار بأكمله، تناثر غباره في المكان محدثًا جلبة ثم بدا ينقشع ليظهر خلفه صورة مموهة، كلما اتضحت الصورة، كلما جف ماء الحياة في حلق ليديا، رأتها وعرفتها أنها، دُهمة، خادمة سيدة السِّعلات، كبيرة ساحرات الجان، دُهمة، سوداء الوجه، ضخمة البنيان إلى حد كبير، مخالبها طويلة حادة، لو أرادت شق أحدهم لنصفين لفعلت مثلما تفعل السكين بالزبد، عيناها جاحظتان، ووجهها لا يعرف الابتسام قط، نظرت إليَّ وأشارت لي أن أتكلم، فجثوت على ركبتي، نظرت إليها بثبات فقلت لها، أريد العبور إلى البوابة كما العهد بيني وبين مولاكِ ثُلي، إن لي أمرًا هنا، وله أمر معي، ففتحت فمها وخرج منه لسان أسود طويل تَفَتّح طرفه إلى رأس حية، فتحت الحية فمها وكلمتني، قالت لي: أرني ما معكِ، وإلا قطعت رأسك، فتحت لها الحقيبة تراها وترى ما بداخلها، نظرتها وتفحصتها جيدًا، ثم التَفّت الحية على نفسها وعادت إلى فم دهُمة التي تنحت عن البوابة قليلًا، وأدخلتني، ثم أشارت بيدها في الهواء، فعادت البوابة كما كانت، جدارًا صلبًا، لا شيء بعده.

***

(84)

1986م

أتى ثُلي ومعه ناتير إلى غرفتي كي يخبروني، لقد تم الاتفاق، سيؤخر ثُلي حسابي، سأظل في خدمة المقبرة عشر سنوات، لكن ابنتي لا بد لها أن ترحل من هنا، لو عَلِم أحدهم بوجودها، سنقع جميعًا في أبشع الكوابيس، عايدة، سأقوم بمحلها في خدمة المقبرة، وستقوم هي بتربية ابنتي، ميادة، هذا الاسم الذي اختارته لها عايدة، قالت لي إنها تملك الكثير من المال، ستقوم بشراء الشقة التي أمامها في ذات البناية، وستأتي بسيدة عجوز تعرفها لتعتني بابنتي على أنها ابنتها، فهي لا يمكنها الادعاء بأن ميادة ابنتها، وإلا عرف الناس أنها تزوجت وطالب أعمام أولادها بحضانتهم وأموالهم، قالت لي ألا أقلق أبدًا، ستأتي بعد السنوات العشر إلى، وتخبرني بمكانها، ضممت ابنتي إلى صدري وأنا أنظر وأملأ عينيَّ بنور عينيها الجميلتين، وأشتم رائحتها، وألمس جسدها الدافئ الصغير، إن ألف خِنجر ينخر في جسدي كله الآن، لربما مئات منه في قلبي، لو انفجرت عيني الآن بكاءً ودمًا فلن أتعجب، أريد الصراخ، أريد أن يشعر العالم كله بألمي، انعقد لساني وتصلبت أطرافي وعايدة تمد يديها لتحتضن ابنتي،

أدارت لي ظهرها ورحلت، سقطتُ أرضًا، فأسرع إلى ناتير يحتضنني بقوة، يحجم الصراخ داخلي، يبكي معي لكن بكاءه كان عليَّ، أما بكائي أنا فعلى روحي التي رحلت، إنها ابنة البغاء، ابنة المقبرة المقدسة، ابنة ليلة قاسية مريرة طعمُها علقم، لكنها ابنتي، ظننت أني سألفظها ما إن تخرج من أحشائي، لكني وجدت في يديها متناهية الصغر، وجدت فيهما قوة الحياة التي لم أكن أرغب بها لسنوات، الحياة التي تُميت الضعفاء قهرًا، لن أكون ضعيفة بعد اليوم يا ابنتي، لن يظل قلبي وحده يحترق، سأحرق كل من يقف في طريق عودتك إلى، أنا أعدك، ألتفتُ إلى ناتير أنظر لعينيه، كان يعلم ما أفكر فيه جيدًا، لكنه ضغط على معصمي برفق، ليس وقتًا للغضب أو التهور، قال لي، لم تعلمي الحقيقة كلها يا لينورا، كل منا سيدفع ثمن اختياراته، لست وحدك، نظرت له بفزع، حينما تلاشى من أمامي فجأة، واختفى.

***

(85)

2013م

أسدل النهار أستاره أخيرًا، انتظر كارم ريثما يغطي الليل كل شيء، ثم ارتحل من سيارته متجها إلى بوابة شالي، خطا بداخلها عائدًا لنفس الطريق إلى ذات المنزل، خطا بداخله، وصل إلى الجدار الذي تخطاه مع جمال وليديا قبلًا، لكنه وجده مغلقًا، قال تعويذة فتح الجدار فانشق، مر بالرِّدهة الطويلة ذات الجماجم على الجانبين إلى أن وصل للجدار الفاصل، وجد غُبارًا على الأرض لونه أحمر، فعرف أن ليديا سبقتهم إلى الداخل، لم تنتظره مثلما قالت، لكنه أخرج من حقيبة صغيرة معه رماد قط أسود، صنع به مثلثات متداخلة على الأرض، كتب في كل واحد منهما حرفًا، ورقمًا، وقطرة من دمائه أسالها عن كل حرف، تراجع إلى الخلف ونطق بتعويذة الجدار، كان قد حفظها وليديا تكتبها: "تليم تليم تليم تليم شومادر حواضر لاعثيم لاعثيم لاعثيم بحق السبع لا ثامن لهم، وحق الناعقين، وحق السامعين، وحق ايليخ وخدامه مانيخ، وحق العين التي ترى وحق دماء العهد بالثرى، اتليم اتليم تكرير تكرير تتلية تتلية بحق ط ن غ ي ق، أجيبوا، وافتحوا ما سد علينا من أبواب بحق

السامع الذي ما إن يدعى يُجاب، تليم تليم تليم تليم قنادر قنادر تفتح لنا الآن شومادر الآن الآن، الوحي الوحي الوحي، العجل العجل، الآن يُجاب مطلب من بالباب الآن".

انشق الجدار محدثًا الجلبة ذاتها والغبار ذاتها، ثم بدأ الغبار يتساقط ليظهر من خلفة، دُهمة، تراجع كارم إلى الخلف كثيرًا، توقف عن التنفس، ثم تنفس بكثرة لتتسارع ضربات قلبه كأنه يجري سباق ألف ميل، وقفت دُهمة وأشارت له، أن تكلم، فقال لها: جئت إلى تُلي وكان معي فتاة عبرت قبل قليل، فتحت دُهمة فمها وخرج اللسان الأسود الطويل وفي طرفه رأس الحية، تحدثت إليه، أنت من قالت عنك الخادمة لينورا، أنت شق الأُضحية الأولى، مرحبًا بك، ثم أشارت بيدها إلى بالدخول، فدخلت وأنا ما زلت أراجع كلامها عن شق الأضحية الأولى، التفتُّ خلفي وأنا أنظر إلى الجدار يعود مثلما كان، أشارت دُهمة إلى بيديها، فجأة وجدتني مكبَّلًا، قيودًا حديدية وسلاسل على سائر جسدي، منقوش عليها شيء بمادة صفراء كأنها ذهب، كلما حاولت أن أنزعها أو أُخرج كف يدي من الأساور تشعل احترقًا في يدي كأنما وضعتهما في جمر مشتعل منذ ألف عام، ظللتُ أصرخ وأصرخ وأنا مُقيد تجرني أرضًا تلك المخلوقة الضخمة إلى أن فقدت الوعي، أفقت بعدها لأجدني مكبلًا إلى حائط خلفي، وقبل أن أصرخ ثانية وجدتها أمامي، مُكبلة هي الأخرى بسلاسل إلى الحائط على يميني وتنظر لي برعب والدموع تملأ عينيها، تمالكت نفسي وأنا أضغط على كلماتي محاولًا ألا أرتجف كي أفهم والدموع تنهمر مني رغمًا عني، نظرت إليها وقلت لها، ما الذي أتى بك ثانية إلى هنا يا أمي؟

***

(86)

1996م

لينورا،

طوال عشر سنوات أمضيتها وأنا أدفع الثمن كل يوم، لو قلت إني حسبتهم يومًا بعد يوم، ساعة بعد ساعة، كي تَمُر ويأتي ما بعدها، لما صدقت نفسي، حلمت بها سنوات، ابنتي، ميادة، تُرى كيف أصبح شكلك الآن؟ هل اعتنت بك عايدة كما قالت؟ هل تفتقدين الحنان؟ هل تذكرين حضن أمك؟ أنا، لينورا ابنة العذاب الذي لا ينتهي، أحيا بقلب ممزق، كل ما مر عليه مزق جزءًا منه، كريستين أختي الملاك المعذب، وجسدي الذي انتُهك للبغاء اللامقدس، وما ذقته في بيت تمازيغيت، وروحي التي غادرتني ما إن غادرتني أنتِ يا ابنتي، وعين ناتير التي دفعها ثمنًا لجلوسه هنا معي، لكل شيء ثمن يا ابنتي، كان هذا هو ما جعل لونه يصفر ليلة رحيلك عنا، خيروه بين أن يُقدم لهم قُربانًا هنا، أو أن يرحل عائدًا إلى البوابة الغربية للمقبرة المقدسة، هل ستجدين حبًّا كهذا يومًا ما يا ابنتي؟ لقد ضحى بعين من عينيه كي يظل جانبي، إن ناتير هو عوض الله لي في حياتي البائسة مُنذُ خُلقت، كنت أعد الأيام حتى

وصلت لهذا اليوم، لكن ما أخبرني به ثُلي لم أحسب حسابه قط، لم يخطر على بال أحدنا أن عايدة، ستخون العهد، تلك الأفعى التي استأمنتها عليك، خانت العهد الذي بيننا، استطاعت أن تصل إلى قُصيلم، كبيرة ساحرات البوابة الغربية، وعقدت معها صفقة، أن تحررها من ثُلي في مقابل أن تشي بي أنا وناتير، إننا مسؤولان عما حدث لتمازيغيت، قال لي ثُلي يجب أن أرحل حالًا، يجب أن أصعد وحدي ويظل ناتير هنا، رهينة، كي يضمن أن أعود إليه، لا بد أن أتخفى في شخصية جديدة أصنعها، سيجازف ثُلي ويخلصني من الورطة التي أوقعتني فيها عايدة مقابل أن تنجو بنفسها، لكني في المقابل يجب أن أخدمه وأحضر له ما يريد من عالم البشر وعالم الجان بلا تدخل منه، لقد دخلت المقبرة أُضحية للبغاء، وخرجت منها لأكون جانية لا مجنيّة عليها، لو أن هذا ثمن أن نكون معًا أنا وأنتِ وناتير، فسأفعل يا ابنتي، سأقتل، سأسرق، سيختفي ضميري، فما جدواه بدونك، عانقت ناتير كثيرًا، وأخذني ثُلي وأخرجني من بوابة المقبرة، قابلنا مخلوقة ضخمة جدًّا، سوداء البشرة، لها عينان مفزعتان، قال لي ثُلي إنها دُهمة، خادمة السِّعلاة ساحرة الجان، إن دُهمة البوابة الشرقية تحت إمرتي أنا، أشار لها فانحنت وفتحت الجدار نصفين، انشق الجدار مُحدثًا غُبارًا كثيفًا، مشينا في ردهة طويلة تزيد عن المائة متر، تراصت على جانبيها جماجم كثيرة، ثم بعدها جثث حمراء اللون مُتراصة على الجانبين، حتى وصلنا لآخر الرُدهة، وخرجنا من منزل قديم، قال لي إننا هُنا في مدينة تُدعى شالي، في واحة سيوة بمصر، أمرني أن أرحل إلى القاهرة، عاصمة البلد الذي نحن فيه، قال لي أن أقف في بقعة ضوء جواره ففعلت، وجدت نفسي في شارع غريب لا أعرفه، قال لي إنه سيبعث معي خادمًا ليقوم بتعريفي على كل شيء حولي

من السنوات التي مضت ولا أعرف عن الدنيا الجديدة مها شيئًا، أخبرني أن أمكُث في مكان وأعطاني أوراقًا بها وثائق وثبوتًا شخصية، تعجبت فقال لي: إن خدمه من البشر كثيرون ويفعلون كل شيء يأمرهم به، كان بين الأوراق مال، قال لي سيكفي حتى تجدي وظيفة ما، لا بد أن تتخفي جيدًا في عالم البشر هُنا، إن مظهرك أجنبي ومعكِ لغات عديدة، ستجدين عملًا، ثم قال، بعد فترة سيلحق بك شابٌّ، يُدعى جمال، إنه يحوم حول المكان وأعرف أن قدميه وفضوله سيأتيان به، وسأبعثه إليك بعدها، نسيت أن أخبرك يا لينورا من الآن اسمك هو، ليديا، الأوراق التي بحوزتك لفتاة تُدعى ليديا، هذا ما قاله خادمي الإنسي المُزور العزيز، استعدي إلى ما سأطلبه من الآن، هيا يا ليديا اذهبي الآن مع خادمي، ظيام.

***

(87)

2013م

سليم،

قال لي الشيخ معتز بعد أن أوقف السيارة، هيّا وصلنا، نزلت ميادة ومعها ظيام، قلت للشيخ معتز: وصلنا إلى أين، هذه المدينة المُتهالكة بها شيء؟ قال بصوت غاضب لكنه خفيض: سليم، أتيت معنا كي نُنقذ أخاك مما هو فيه، لا تُماطل كي لا تعلو أصواتنا لربما كان يختبئ أحد الصبية من أهل الواحة في مكان ما وشكوا في أمرنا وأخبروا الكبار، هيا، سار الشيخ معتز أمامنا ونحن خلفه أنا ثم ميادة وخلفها ظيام، تعجبت كثيرًا من معرفة الشيخ معتز الطريق بتلك السليقة، وقف أمام أحد البيوت وقال شيئًا هامسًا جدًّا لم أسمعه رغم أني أقف خلفه مباشرة، لكنه بعدها دخل، ونحن خلفه، مر بطرقات إلى أن وصل لجدار، أخرج من جيبه ورقة بها شيئًا كالرماد ألقاه، وقبل أن أنطق بأي سؤال أشار لي أن أصمت، وفعل هامسًا مثلما فعل عند الباب، ما إن انتهى حتى شق الجدار وتناثر الغبار ودخل، وقال لي أن أدخل معه، لكني إلى هنا لم أريد الدخول، لكن ميادة سبقتني ودخلت، كان لديَّ رغبة في التراجع الآن لكني

ما إن أدرت وجهي حتى وجدت ظيام خلفي، لم يقل شيئًا، لكني شعرت إن لم أدخل برغبتي الآن سيدفعني إلى الداخل وسأكون النادم على إغضابه، دخلت ودخل خلفي ظيام وأغلق الجدار كأنه يغلق بابًا عاديًّا، ضم النصفين فإذا بهما يلتصقان، سار الشيخ معتز وميادة أمامنا، مشينا إلى أن وصلنا لرُدهة طويلة، أفزعني منظر الجماجم المتراصة، لكني أوهمت نفسي لربما كان هذا ديكور المكان، سرنا وأنا أعاني من ضيق شديد في التنفس بعد أن مشينا بين تلك البقايا الآدمية، وصلنا إلى جدار آخر، هنا قال الشيخ معتز بصوت مسموع شيئًا بدا لي كأنه تعويذة من فيلم مخيف: "تليم تليم تليم تليم شومادر حواضر لاعثيم لاعثيم لاعثيم بحق السبع لا ثامن لهم، وحق الناعقين، وحق السامعين، وحق ايليخ وخدامه مانيخ، وحق العين التي ترى، وحق دماء العهد بالثرى، اتليم اتليم تكرير تكرير تتلية تتلية بحق طغخيق، أجيبوا، وافتحوا ما سد علينا من أبواب بحق السامع الذي ما إن يُدعى يُجاب، تليم تليم تليم تليم قنادر قنادر تفتح لنا الآن شومادر، الآن الآن، الوحي الوحي الوحي، العجل العجل، الآن يُجاب مطلب من بالباب الآن".

هنا لم أتمالك نفسي وصحت به، كيف له أن يعرف كل هذا ولماذا وأين كيف عرف أن لكل بوابة شيئًا يقال غير الأخرى، لم يبد له أنه سمعني، انشق الجدار عن شيء كبير ضخم مخيف يحدق بنا فُزعت حد الهلع، قال الشيخ معتز لتلك المخلوقة، أنا أتيت إلى تُلي ولينورا ومعي ما طلبا، أشارت له بالدخول، تسمرت مكاني بالأرض لكن ميادة جذبتني من ذراعي، ميادة، كيف لا تهابين كل هذا، هل أنتِ رجل قوي شجاع لا يهاب شيئًا تخفَّى في ثوب امرأة، هناك شيء خاطئ، هناك شيء خاطئ منذ البداية لكني لم أفقهه إلا الآن، أنا أريد

الخروج من هنا، قالت لي ميادة لقد دخلت إلى هنا بإرادتك، انظر، هناك.. وجدتها تشير إلى رُدهة، طويلة آخرها نورا كالنار، لا يمكن التراجع الآن حتى وإن أردت، دخلت معهم، جال نظري بالمكان الذي كان يشبه أفلام تعذيب السجون في عصور ما قبل التاريخ إلى حد كبير، كان هناك جدار لا ينتهي مُعلق به سلاسل من كل نوع، مشينا قليلًا إلى أن وقع قلبي في قدمي، إن الذي على يميني، هل هؤلاء، أخي كارم وأمي؟

إن الصدمة جعلتني أفقد ما كان في أحشائي حينما وجدت أمي معلقة بسلاسل في كل جسدها، وحروق تظهر عليها والمُعلّق جوارها كارم، أخي لا يفرق عنها في شيء، لكنهم لا ينطقون، كان فمهم مخيطًا، في الجوار رأيت امرأة شابة، تقترب، رأت ميادة واقتربت منها، تأملتها بنظرات مليئة بالدموع، اقتربت منها ميادة وهي تحتضنها، ومكثا في حضن طويل انتهى على صرختي، أمي وأخي كارم يا شيخ معتز، نظر لي الشيخ معتز جيدًا ثم قال لي، جزاء الخيانة الخيانة يا سليم، قالت المرأة الشابة للشيخ معتز: المحاكمة لم تبدأ بعد يا جمال، سننتظر حتى يأتي تُلي، نظرت إليهم وأنا لا أفهم شيئًا، من أنتم؟

***

(88)

2013م

وجدي،

سهر الليالي ومئات أكواب القهوة وعُلب السجائر التي لم تُطفئ من نيران صدره شيء، جعلت وجدي الخيشي أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، عيناه زائغتان على الدوام، زاد عصبية وحِدّة، طلب منه رئيسه في العمل أن يأخذ إجازة، فرفض، لكنه كان مشفق عليه، لم يضغط عليه كثيرًا لأنه يعلم أنه يُريد أن يباشر التحقيق بنفسه، لم يكن يبكي أمام أحد سوى ندى، عندما تُحقق في حادثة لآخرين، فأنت تعلم أنها وظيفة، لكن حينما تكون أنت الطرف المجني عليه، هنا الوظيفة تأخذ منحني آخر، بإمكانك أن ترتكب أنت الجريمة، لو أنها تُعيد لك ما فُقد منك، كان وجدي في مكتبه حينما أتاه هاتف من فايز، ضابط صديقه في قسم مطروح، هناك بلاغ عن خاطف أطفال يحمل مواصفات كالتي وزعها وجدي على الأقسام، ملامحه متطابقة، لكنه فرّ فجأة، اختفى أو تلاشي لا أعرف كيف ستصدقني يا وجدي لكن هذا ما حدث، نحن الآن نبحث عنه في كل مكان و.. ، هنا أغلق وجدي الهاتف ووقف مُدخلًا قميصه بعناية داخل

سرواله، ووضع مسدسًا خلف ظهره، وآخر عند صدره، ارتدى معطفًا قصيرًا كان على الكرسي، وخرج إلى الشارع يبحث عن سيارته، قابلته ندى عند الباب، لم يتحدث معها، لكنها كانت تعلم أنه ينوي على شيء، بلا أي سؤال قد يثير أعصابه الآن، استقلت جواره سيارته، وهم ينطلقون قال لها بدون أن ينظر إليها، أنا ذاهب إلى مرسى مطروح، أومأت برأسها أي ستذهب معه، لم يكن هنا حدسها الصحفي وحده الذي يحركها، لم تكن ذاهبة فقط لتغطية حدث أو جريمة، إن القضية الآن تعنيها، إن الألم الذي في صدره تشعر به في صدرها هي، إن المصائب تحرق القلوب كالحب تمامًا، لكن حريقها أكثر وجعًا وإيلامًا، لم تنطق طوال الطريق، وكان هو منصبًّا على القيادة بجدية، جعلته يفيق من حزنه لدقائق كي يستعيد تركيزه الكامل، محاولًا فهم ما يحدث، حينما عاين شقة كارم وسليم لم يجد بها أي شيء مريب، كان الأثاث مكانه، حتى الغرفة التي تحدثت عنها ندى، كانت سليمة ليس بها شيء، هناك شيء ما، هناك خلل ما، وسيعرفه، لا بد أن يعرفه.

***

(89)

2013م

اقتربت لينورا من كارم وعايدة، أخرجت من بين يدها مشرطًا حادًّا، له طرف معدني وآخر ملفوف بقماش أسود كالحرير، مررته على فم كارم ثم عايدة، قطعت به الخيط الذي كان ملفوفًا على فم كل منهما، كان الخيط كلما قطعت منه وصلة، علا أنينهم، كان المشرط ملتهبًا، حادًّا، عليه طلسم يجعله يحرق اللحم الذي يلمسه، تحول أنين كارم إلى صراخ، صراخ من لا يفهم شيئًا، كان لا يفهم شيئًا، اقتربت منه لينورا وقالت له أنا هي، أنا لست ليديا، صديقتك، يا ابن الخائنة، أنا لينورا، ثم نظرت إلى سليم الذي قالت له وهي تُشير إلى ميادة، تلك ابنتي يا سليم، ابنتي التي كانت أمانة لدى عايدة، أمك، لكنها خالفت العهد، كانت تريد الخلاص، بلا عقوبة، كانت تريد الخلاص من قرين دياب غنيم، أبيك، الذي قتلته، كانت تريد الخلاص من خدمة سيد المقبرة المقدسة والحارس على البوابة الشرقية، كانت تريد الخلاص من ثُلي، لكنه أنهى عقوبته بعدما وشت به، وأنزل عليها عقوبتها، هي ونسلها، مكوث عايدة في مشفى الأمراض النفسية ليس مصادفة يا كارم، هو ترتيب من ثُلي، كي يعذبها كل ليلة بقرين دياب، ولقائي معك ليس صدفة أيضًا، كنا نحتاج من يعوننا أنا وجمال كي نلبي طلبات ثُلي طوال تلك السنوات وأن نصل

إلى أبناء عايدة في الوقت ذاته، وأتيت أنت بطمعك في الخلود، هنا نطق سليم وهو يعود إلى الخلف خطوات غير مصدق شيئًا مما يراه، صرخ، أنا لا أفهم شيئًا، الشيخ معتز هو جمال وانتِ أم ميادة، نظر إلى ميادة التي نظرت له بشفقة، وقالت قبل ان ينطق، سليم، أنت تعلم جيدًا أني أحببتك من زمن بعيد، ربما قبل أنا أعرف اسمى، لكن لن أخالف العهد، اتاني ظيام ذات ليلة، أفزعني، وقال لي الحقيقة كُلها، لم أصدقه إلا حينما رأيت أمي، أنت جربت الحياة بلا أب يا سليم، لكن هل جربت مثلي الحياة بلا عائلة، إن المرأة التي كانت تربيني لم تكن سوى خادمة، تطهو وتقوم بأعمال المترل، هل تُريدني أن أفقد حنان الأم بعدما وجدته كي أنقذك، وأشارت ميادة إلى عايدة قائلة، أنها الخائنة، خانت العهد وكان عليها أن تدفع الثمن، وأنتم الثمن، قلت لها، ولماذا كل هذا، لماذا لم تقتليني في المترل، لما أتيتِ بي إلى هنا، قالت حينها لينورا، ممنوع، لا بد أن تأتي هنا طواعية، كي تتم الطقوس، إن كل ما رأيته وسمعته في مترلك كان وهمًا، كي تقتنع، كي تصل إلى هنا، وهأنت ذا، لم يبق سوى انتظار ثُلي، لا بد أن تتم التضحية بكم، كي أعود أنا وميادة إلى المقبرة الغربية، إلى ناتير.

قال لها سليم في ذهول، أنتِ لينورا، كيف ما زلتِ حية طوال كل تلك الأعوام، إن هذا يفوق حسابات المنطق، هنا ظهر ثُلي ومعه ثلاثة من جنوده، نظر إلى سليم وقال له، لقد سألتني لينورا هذا السؤال من قبل، والإجابة واضحة، ألم تقرأ في القرآن؟ "في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة"، لا تفكر كثيرًا يا سليم، إن حسابات المنطق المطلق التي تعرفها، لها حسابات أخرى لا تعرفها.

اقتربت لينورا من تُلي، أوقفها بإشارة من يديه، قال لها: تريدين السؤال عن ناتير، ليس الآن، بعد المحاكمة، أشار إلى الخادم الذي جواره، فأخذ هو وظيام سليم وثبتوه إلى الجدار وقام ظيام بمسح كف يده على فم سليم فأصبح مخيطًا كما كان كارم وعايدة، حاول أن يئنَّ لكنه أدرك ألا جدوى، هنا ظهر بالممر المظلم الذي يقود للغرف، نسوة، أكثر من عشرين ساحرة، يرتدين ملابس حمراء، منقوشًا عليها بالذهب، طلسم تتوهج حروفه المنثورة بجوار بعضها البعض.

"، ف ي خ د م ة ا ل ع ه د خ ا د م ا ت ت س ر د و ن ت ن ي س م ا ض ا ل، "

اقتربوا من عايدة، وشقوا ثيابها، غلفوها بثوب أسود من أخمصي قدميها حتى شعر رأسها، ثم قالوا معًا تعويذة الموت، "بحق اهيا شراهيا براهيا ادوناي اصبا ؤت آل شداي بحق الأقسام والأسماء المكتوبة على أبواب المقابر وشعور السعلاة ذات المقادر وبحق ما كتب على النجم البراق، وبحق سيدكم ثلي الخناق، وبحق الأقسام المكتوبة على قلب الشمس والقمر وبحق التراب والنور وحق الجان، وبحق الذي تطيعون وحق اللام والقاف والنون ائتيا طوعًا أو كرهًا، قالتا أتينا طائعين، أقبلوا وأسرعوا بحق الكف العظمى، وبحق اهيا شراهيا براهيا ادوناي اصبا ؤت آل شداي، وبحق والطورر وكتاب مسطور، والرق المنشور، والبيت المعمور والسقف المرفوع، والبحر المسجور، أطيعوا ما تأمرون، وافعلوا ما يتلى عليكم الجسد أمان الجسد، هلاك الجسد، أمان الجسد، هلاك الجسد، أمان الجسد، هلاك أطيعوا القسم، وأوفوا العهد، أنزلوا الغضب على من خان، وأحرقوا اللسان بحق اهيا شراهيا ت س ر د و ن ت

ن ي س م ا ض ا ل " نثروا عليها رمادًا أسود يتحول لونه إلى الأحمر ثم الأسود، توهجت السلاسل التي تلتف حول جسدها ثم، احترقت عايدة في ثوان، سقط رمادها أرضًا، كأنها لم تكن، بقي منها جمجمتها فقط، انحنى خادم ثُلي، التقطها ووضعها بجوار آخر جمجمة في الممر الطويل المليء بالجماجم، كان سليم وكارم يشاهدان أمهما تحترق، وأعينهما متفجرة من الدموع والغضب، اقتربت النسوة بعدها من كارم، أخذه ظيام، قامت إحداهن بتمرير يدها على الجدار الأيسر، انشق وسال منه شيئًا كالحمم المشتعلة، أخذ ظيام كارم ووضع جسده ملاصقًا لهذا الجدار، وقام بدفعه إليه، بقوة شيئًا فشيئًا، كان جسده يذوب مع كل قطرة تلمس جسده، علا صوت صراخه، لكن ظيام أغلق فمه بيده، وظل يدفع فيه إلى شق الجدار حتى دخل إليه والتئم الجدار كما كان عدا فتحة صغيرة جدًّا، نزل منها سائلًا أجمعت الساحرات يلمسنه ويدهنّ به أيديهن، إنه دم القربان، كانت ميادة تنظر إلى سليم وهو ينظر إلى أخيه ودموعه تحرق مقلتيه وتحرق قلبه وتحرق كل نفس فيه، كانت ميادة تنظر إلى سليم وهي تبكي صامتة، تذكرت حينما كانت تراه صباحًا كل يوم، تذكرت رائحتة التي ودت لو أن احتضنته يومًا لتلتصق بها، اقتربت منه بهدوء في أثناء انشغال الساحرات، قالت شيئًا هامسًا فكت به وثاق سليم، الذي نظر لها حانقًا دامعًا، أمسكت يده ومضت به بهدوء تهرول خارج المقبرة، إلى أن وصلت للممر، هرولت به سريعًا جدًّا بعدها، إلى أن وصلت ل دُهمة، خادمة السُّعلاة، ساحرة الجان، قالت لها ميادة: إن مولاها ثُلي هكذا أمر، أن تأذن لهم بالمرور، شقت لهم دهمة الجدار ولكنهم وجدوا خلفهم.. .. .. . جمال.

وصل وجدي وندى إلى مرسى مطروح، هناك قابل زميله فايز، قال له فايز إنهم فعلوا مثلما أراد وجدي تمامًا، لقد تعقبوا المكالمة ورقم الهاتف الذي أبلغ عن الشقة التي بها الأطفال والخاطف، إن الرقم المسجل باسم، كارم دياب غنيم، تم إرسال إشارة تعقب للهاتف وأن موضع الهاتف الآن بالقُرب من قلعة شالي، بسيوة، ناوله ورقة، وها هو رقم سيارة كارم ووصفها بالورقة التي معك، سأرسل قوات للبحث عن السيارة انتظر في مكتبي، قال وجدي ل فايز، كلا، أنا سأذهب بنفسي، خذ ندى معك إلى أن آتي، رفضت ندى، قال لها وجدي لا وقت الآن ل ال..، قاطعته، سآتي معك، بسيارتي بحث ووجدي، ظلوا يبحثون عن أي أثر لسيارة كارم لكنهم لم يجدوا لها أي أثر، إلى أن وجدوا سيارة، تبعد قليلًا عن قلعة شالي نفسها، اقترب منها وجدي وكسر زجاجها، حينما رأى ميدالية مفاتيح فضية منقوش عليها اسم، سليم.

***

التفتت ميادة خلفها لتجد جمال، خطت إلى الخارج خطوة سريعة وهي تشد سليم بقوة معها، وهرولت تجري وجمال خلفهما، ظلت تهرول إلى أن وصلت للباب الأخير لبوابة المقبرة، قال جمال، أنتِ غبية لن تتم المراسم بدون سليم، أنا أريد مالي وأمك تريد ناتير، لا بد لنا من أن نعود، هنا ترك سليم يد ميادة وفتح الباب الأخير وخرج يجري إلى الخارج وخلفه ميادة وجمال إلى أن وجدوا أنفسهم أمام وجدي وندى ومعهم عشرات أفراد من الشرطة يحيطون بالمكان.

(90)

انتهت الساحرات من طقوسهن لرُفاة كارم، ثم استدرن إلى لينورا، اقتربن منها، وضعنها إلى الجدار في نفس مكان عايدة، نظرت لينورا بفزع إلى ثُلي وأدارت بنظرها تبحث عن ميادة، قال لها ثُلي لقد تركت ميادة وجمال وسليم يهربون، ليس لهم قيمة عندي الآن، لقد ظنوا أنهم خدعوني وهربوا، لكني أمرت دُهمة أن تفتح لهم الطريق، إن ما سيلاقونه فوق المقبرة أبشع مما سأفعله أنا بهم على أي حال، قالت لينورا صارخة، وأنا وناتير وابنتي والسنوات التي أمضيتها في خدمتك، قال لها ثُلي، ألم تعلمي بعد، لقد حوكمت معي قُصيلم على تقصيرها، لكني وحدي نالني العفو، إن سيدة المقبرة الغربية الآن هي، بغلة القبور، سيدة الساحرات الآن هي تسردونت نيسمضال، هل تظنين أنها ستترك ثأر أختها تمازيغيت التي تسببتِ في موتها أنتِ وناتير، سترحلين إلى حيث ناتير يا لينورا، لقد حوكم منذ زمن بعيد، وانتهى أمره، إن ما بقي منه أمامك، جمجمة من هؤلاء اللاتي تراصصن فوق بعضهن البعض في الممر، لقد أوفيتِ دينك، ولهذا تركت ابنتك تعيش، لكن أمرك الآن انتهى، ستسمعين الآن التعويذة الأخيرة، آخر طلسم في حياتك يا لينورا، انصرف ثُلي، ثم اقتربت منها النسوة وتلون طلسم الموت عليها.

فُزع وجدي حينما رأى فم سليم مخيطًا، لكن من عينيه قرأ العذاب الذي رآه، تحفظ عليه في السيارة إلى أن تأتي إسعاف له كي ينقذوه، لكنه أمسك بجمال، الذي عرفه من شكله، أوسعه ضربًا وركلًا وخنقه بين يديه، قال له جمال كل شيء، أخبره عن الصفقات والأطفال والمقبرة وتُلي، أخذه إلى بوابة المقبرة والمنزل، أمام الجدار، حاول ان يشق الجدار أو يتلو أي طلسم، لكن الجدار ظل كما هو، حاول وجدي أن يهدم الجدار لكن الضابط الذي معه أخبره أن القلعة يمكن أن يحدث بها تصدّع أو كارثة لو فعل هذا وأن كلام مثل هذا المجنون لا يصدق، لا بد أن الأطفال في مكان آخر، أمسك بجمال وأخذه وجدي مسحولًا، ووضعه في سيارة الشرطة هو وميادة التي لم تنطق حرفًا بعدها.

في القسم رغم كل محاولات استخراج أي معلومة منطقية من جمال أو ميادة، بالتحقيق تارة والتعنيف تارة، لا جدوى، لا يزال جمال مُصرًّا على ما قال، وعلى روايته، أما ميادة لم تنطق، ما الذي ستقوله وهي ترى أمها أمامها طوال الوقت عبارة عن أشلاء إنسان؟ كانت ترى لينورا ممزقة الثديين، لديها شقان في جانبيها، وتبكي دمًا بلا توقف، من الذي سيصدقها؟ كانت تغلق عينيها كي لا تراها، وعلى غفلة من المحقق بالغرفة، تناولت قلمين من على المكتب وقامت بفقء عينيها، كي لا ترى لينورا مجددًا.

بعد أيام من التحقيق مع جمال وميادة وسليم، تقرر وضع جمال وميادة في مستشفى الأمراض العقلية تحت الحراسة إلى أن يتم البت في أمرهما، وتم الإفراج عن سليم.

***

الفصل الأخير

ليلًا، وبعد أن تم الإفراج عن سليم، استقل سيارته إلى منزله الريفي، كانت الشرطة قد أخذت كل ما يلزمها من العينات وبقايا الجثث، استأجر اثنين من أهل المنطقة، أعطى كل منهما مبلغًا ماليًّا كبيرًا، قال لهما سيفعلان شيئًا سريًّا، وسيأخذان مبلغًا كبيرًا، وإن أخبرا أحدًا بما سيفعلانه سيقتلهما، وافقا، كانت نظرات عينيه توحي أنه قادر على ارتكاب جريمة فعلًا،حول المنزل، في الأرض، ظل هو والفلاحان يحرثون الأرض منقبين عن رُفاة، أيام ظل العمل متواصل إلى أن وجد أحدهم ما يريده سليم، فُزِعَ قليلًا في البداية لكنه تذكر ما قاله سليم حينما نظر إليه معلنا عن شره، أخرج الرُّفاة من الأرض أو ما تبقى منها جمجمة وبقايا ملابس، أخرجها ثم قال لأحدهم العارف بمقابر أسرة آل غنيم، ذهب معه وأيقظ التِّربي الذي قال لهم الزيارة ليلًا غير مستحبة، وكان ينظر إليهم بفزع، لكنه حينما رأي ما مع سليم، أصابه الخرس، فتح له المقبرة ونزل سليم ومعه الرجل يمسك له ضوءًا، وضع رُفاة أبيه في المقبرة بجوار الجدار، لكنه تراجع إلى الخلف بشهقة عندما رأى جثة أخرى محتفظة قليلًا بشكلها،

نظر سليم إلى التربي فقال له لم يُدفن أحد منذ أعوام منذ وفاة جدك يا بني، اقتربا من الجثة، نظر لها سليم جيدًا، أصابه الهلع وابتعد، إنها جثة، كارم.

أمر سليم التِّربي أن يفتح الغرفة الأخرى الخاصة بالحريم، دخلها فوجد فيها جثة مشابهة، ملفوفة بعناية، اقترب منها وكان يعرف، أنها جثة عايدة، أمه.

فُزع التِّربي وأقسم أنه لم يدخلهما ولم يفتح لأحد ولم..قال له سليم أن يصمت وألا يحكي لأحد ما حدث وإلا سُيبلغ عنه أنه يدفن الموتى بدون تصريح، ذُعر التِّربي وأغلق المقبرة، وأعطاه سليم مبلغًا ماليًّا كي يضمن صمته، ومشي سليم، استقل سيارته، وذهب إلى القاهرة.

***

ناجي، ظل طيفه يخايل لوجدي كثيرًا، لم يستطع أن يُكملا فى المترل لا هو ولا أخته ولا أمهما، باع وجدي المترل بأكمله، واشترى مترلًا آخر من طابق واحد، في مكانٍ ناء قليلًا، اشترى كلابًا كثيرة، دربها على أن تفتك بكل من يقترب من المترل، سافرت بعدها أخته مع زوجها، كان لا بد لها أن تغير المكان بأكمله بعدما تأكدت أن طفلها لن يعود، كانت البقايا التي وجدها وجدي في المترل الريفي الخاص بكارم وعائلته، تروى كل شيء، لقد ذُبح صغيرهم لغرض أو لآخر، لقد حثَّ أخته على السفر لعل الله يرزقها بناجٍ آخر وينجو، لعلها تضم لصدرها طفلًا جديدًا يواسيها، أخذ بعدها وجدي إجازة طويلة، وأخبر ندى أنه يريد الابتعاد قليلًا، إن الاختلاء بالذات سلاح ذو حدين، هكذا قال لها في آخر مرة تقابلا، ثم رحل.

***

عاد سليم إلى منزله، قابله حارس العقار بكلمات ترحيب، لكنه كان مبتعدًا عنه قليلًا، جريت إليه، لوجي، قطته، قال له الحارس إنه وجدها على باب غرفته، وأنه يعلم أنها عزيزة عليه، وأقسم له أنه كان يطعمها مثل أولاده تمامًا، أخرج له سليم بعض المال وشكره، حمل لوجي ودخل بها المنزل، نظر إلى منزل ميادة المغلق، بغصة، ثم أدخل المفتاح في ثقب الباب أداره ودخل، ارتمى داخل الحمام، تحت المياه المنسابة من صنبور الماء في حوض الاستحمام، كان جسده ينتفض، قرر أن يبيع المنزل، لقد اتاه ظرف في المشفى الذي كان فيه، يحمل شهادتي وفاة، واحدة ل كارم وأخرى ل عايدة، من أين أتى هذا الظرف ومن أرسله وكيف، لا يعلم ولا يريد أن يعلم، سيبيع المنزل وربما يرحل من البلد كلها بلا عودة، خرج من حوض الاستحمام وضع المنشفة على رأسه، كانت لوجي تنتظره، وقفت جوار قدميه تروح وتأتي حوله، قال لها أنتِ الوحيدة في العالم التي تستحقين أن أحبك يا لوجي، وقبل أن يخطو خارج باب الحمام وجد على الباب، كارم، لكنه كان بلا شعر على رأسه، كان قرين كارم، ينظر له بغضب، قائلًا له، بصوت عميق: لماذا أتيت معهم، ربما لو لم تكن غبيًّا وأتيت معهم لفشلت خطتهم، ثم قام بدفع سليم إلى داخل الحمام لاصقًا إياه بالجدار، قبل أن يخطو القرين داخل الحمام، علا صوت جعل سليم والقرين ينظران إليه، تكورت على نفسها لوجي، ثم قامت، كامرأة، اقترب منها القرين، أمسكت عنقه تلويه قائلة له: أتعبث مع ابنة الملك يا هذا؟

يتبع